تنشيط الذاكرة التاريخية:

ليبيراليون من غير ديموقراطية وديموقراطيون من غير ثقافة

رياض نجيب الريّس

■ في ندوة عن الديموقراطية عقدت في أوكسفورد في آب/اغسطس ١٩٩١، في الأسبوع الذي تمت فيه المحاولة الانقلابية الفاشلة على ميخائيل غورباتشوف في الاتحاد السوفياتي قبل انهياره بأشهر قلائل، تساءل أحد الحاضرين عن أسباب وقوف الشعوب العربية وجماهيرها مع الانقلابيين ضد غورباتشوف، مع أنه موقف معاند لتيار التاريخ ومعادٍ للديموقراطية. وكان جوابي في حينه، أن ذلك يعود لسببين:

الأول: أن الشعوب العربية لا تملك ثقافة ديموقراطية. فهي لا تعرف العمل الديموقراطي وليس لها تجربة في الديموقراطية السياسية ولا تعرف طعم الحرية الفردية والعمل السياسي التعددي. لذلك لم تنقد للتهليل للغورباتشوفية كفكرة تمثل الحرية السياسية واقتصاديات السوق. فظلت كلمتا «الغلاسنوست» و«البريسترويكا» لفظتين فارغتين لا معنى لهما في القاموس العربي، ولا تمثلان شيئاً في تجربة العرب الثقافية والسياسية.

الثاني: ان عواطف الشعوب العربية، وإن كانت ميالة تلقائياً إلى أي تغيير يعيد شيئاً من «التوازن الدولي» الذي أعطاها بعض ملامح الشخصية المستقلة، إلا أنها تنقاد بسهولة للتصفيق لأية محاولة ترفع عن رقبتها الهيمنة الأميركية، لتلغي المعادلة الحالية التي حولت بلادها الى مستعمرات.

في غياب الثقافة الديموقراطية لا بد إذاً أن يكون ميل الشعوب العربية إلى كل ما هو ضد مستعمرها الحالي (الأميركي/الغربي)، أمراً منطقياً ومبرراً، وإن كان خالياً من أي مضمون فكري أو

سياسي. ومن هنا كانت بداية وقوعنا في الفخ.

قبل ما يزيد على ثلاثين سنة بدأنا نتناقش ونتحدث ونختلف ونتفق ونتحاور في القومية العربية. ولما بحثنا في القومية العربية كانت الديموقراطية أحد مضامينها. لكن هناك مَنْ جاء ليقنعنا بتأجيل الموضوع الديموقراطي حتى يتم تحقيق الوحدة العربية. ووقعنا في الفخ الأول، لاعتقادنا بأن الوحدة العربية لا بد وأن تأتي بالديموقراطية بعد تحقيقها. فلا الوحدة العربية تحققت ولا الديموقراطية أتت.

بعد ذلك بعشر سنوات بدأنا نتناقش في الناصرية ومحاربة الاستعمار والقضاء على الأنظمة الرجعية وتحقيق الاستقلال الوطني والدعوة الى الوحدة العربية. ونسينا، في لحظات نشوتنا الوطنية من تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ الى قيام الوحدة المصرية ـ السورية عام ١٩٥٨، موضوع الديموقراطية، لأن هناك من جاء أيضاً ليقول لنا ان الديموقراطية تعني الاستعمار الغربي الذي نحاربه. ولما كنا نحن ضد الاستعمار، فقد كانت الديموقراطية من لزوم ما لا يلزم. ووقعنا في الفخ الثاني.

عشر سنوات أخرى بعدها بدأنا نتناقش وننظر في الاشتراكية وأصولها وفروعها وتاريخها وتطبيقها، وحتى إسلاميتها. وانبهرنا بمضامينها، واعتقدنا أن العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة لا بد وأن يأتيا بالديموقراطية. إلى أن بدأوا اللعب بنا وبالكلمات. فكانت هناك الديموقراطية الشعبية والديموقراطية الماركسية والديموقراطية المقننة والديموقراطية العلمية والديموقراطية البرلمانية والديموقراطية العمودية والديموقراطية الأفقية وغيرها. وسقطنا في متاهة الفخ الثالث، من قبل سقوط الاشتراكية، كمفهوم سياسي ـ اقتصادي، في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية بسنوات.

وضاع ثلث قرن من عمرنا ونحن نركض وراء سراب، ما زال بعضنا الى اليوم يعتقد باستحالة اللحاق به. ذلك دون أن ندرك حقيقة بديهية واحدة هي أن فشل التجربة العربية والتجربة الوحدوية الناصرية والتجربة الاشتراكية يعود إلى سبب أساسي واحد فقط هو غياب الديموقراطية، فكراً وثقافة وممارسة. وإذا بنا نجد أنفسنا اليوم، نقوم بطرح الديموقراطية كضرورة حتمية لأي عمل نهضوي، متأخرين ثلاثة أرباع القرن أو يزيد، عن بداية نشوء الفكر القومي العربي.

□ □ □

لكن لماذا نعود اليوم ونتحدث عن الديموقراطية؟ لأنه ببساطة، يبدو أن أي عمل يصبو نحو التغيير وليس فيه دعوة ملحة الى ضرورة ايجاد ثقافة ديموقراطية تملك وسائل التثقيف الديموقراطي، هو عمل عبثي. فليس مطلوباً الآن تعريف واحد للديموقراطية نقرّ به، وكأنه نظام إيماني. هذا أمر يتم مع ممارسات التثقيف وقيام التجارب الديموقراطية، التي تصبح من مكتسبات الشعوب مما يصعب التخلي عنه. في هذه اللحظة نحتاج إلى أفق تاريخي نطل منه على القرن الواحد والعشرين المقبل.

لذلك نرى من الضروري تنشيط الذاكرة التاريخية بالتذكير أن هناك جيلاً عربياً بين العشرين والثلاثين وحتى الأربعين من عمره اليوم، لا يعرف إلا حاكماً واحداً لبلده. ولد هذا الجيل وترعرع وشاب والحاكم هو نفسه. ولا يعرف من كان قد حكم قبله، لأن التاريخ قد خطف منه، ولا يعرف مَنْ سيأتي بعده، لأن التفكير في هذا الأمر ممنوع عليه. فالبحث في الماضي والتفكير في المستقبل عبارة عن ثقافة ديموقراطية ممنوعة الممارسة. وهنا سقطت عن الإنسان العربي صفة «الحيوان السياسي» التي أطلقها أرسطو في تعريفه الشهير. لذلك أصبح من السهل، في غياب ثقافة ديموقراطية، أن ينتقل الإنسان العربي من السياسة الى الدين. فيصبح حيواناً دينياً. و«الحيوان الديني» أينما وجد، نجده يصلّي مهموماً بمشاكل الآخرة أكثر من مشاكل الدنيا. فالذي يعنيه في سياق هذا الإنهام هو إصلاح آخرته لا تقويم دنياه. حتى في القضايا الاخلاقية التي يطرحها الدين عادة، نجد أن قلقه يعود إلى انعكاساتها على الآخرة لا إلى تطبيقها في الدنيا. الجنة والنار هما المشكلة عنده. لا نظام الحكم ولا الحريات ولا حقوق الانسان.

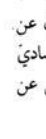
فإذا كان الانسان هو الغاية في الديموقراطية، كذلك تدوير السلطة بشكل سلمي ومؤسساتي، دفعاً لبروز مجتمع مدني على أنقاض التجمعات الطائفية والعشائرية التي يفيض بها العالم العربي، فإن المشاركة الكاملة في عملية صنع القرار السياسي والاقتصادي ليس فيها خصوصية عربية تميزها عن باقي المسارات الديموقراطية التي تتفاعل اليوم في دول العالم الثالث ـ أو الرابع ـ تحديداً. لولا أن مال النفط العربي الذي تدفّق بين منتصف السبعينات حتى أواخر الثمانينات قد قضى على النخب التي ـ كما جرت العادة ـ هي من يفكر بالديموقراطية ويدعو ويروّج لها. وهذه النخب التي توصف عادة بالليبرالية، ليست هي ديموقراطية بالضرورة. لذلك وجب الفصل بين الليبرالية كتوجه سياسي واقتصادي وبين الديموقراطية كنظام سلطة له شروطه ودستوره وتقاليده وأعرافه.

لذا كثيراً ما نتساءل، لماذا لا يطرح موضوع الديموقراطية عندنا إلا في لحظات الهزيمة والإنكسار، وسرعان ما نعود وننساه في أيام الوفر الاقتصادي والبحبوحة المالية والنشوة الوطنية والتجلي القومي؟ ذلك لأن الديموقراطية ليست عند العرب منهاجاً للعمل الفكري والسياسي ولا هي عقيدة لها مؤمنون وأتباع. ولأن لا ديموقراطية من غير ديموقراطيين، ولا ديموقراطيون من غير ثقافة ديموقراطية تؤهلهم لممارسة العمل السياسي.

لكن لا بد لهذه الظاهرة من أن تزول، إذ «لا أمل لنا كأمة عربية واحدة في الإنتقال الى عصر التكنولوجيا والقرن الواحد والعشرين، إلا بإبداع عميق وجاد، لا يمكن أن يتم إلا في مناخ من الديموقراطية والحرية يشجع على الإتيان بجديد (...) الى جانب قدر كبير من المشاركة في صنع القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي (...) وبالتالي فإن القدرة التكنولوجية مرهونة بالتعددية والديموقراطية». وهذا القول ليس لي إنما هو للأستاذ عبد اللطيف الحمد، المدير العام للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في الكويت[1]. فالتنمية المستقبلية في العالم العربي لا يمكن أن تتم بمعزل عن التطورات السياسية الداخلية، فتترافق برامج الاصلاح الاقتصادي حينها مع برامج الاصلاح الديموقراطي، عن قناعة تامة وليس عن أوامر مفروضة من جهات خارجية.

□ □ □

من أصول الثقافة الديموقراطية، الإدراك ان تحقيق الديموقراطية لا



يتم إلا نتيجة حالتين، وخاصة في تجارب الشعوب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى اليوم، الأولى: الحالة النضالية. والثانية: الحالة التاريخية.

وفي الحالة النضالية الأولى، لا تتم الديموقراطية ولا تتحقق إلا بتحرك شعبي داخلي يدعو لها ويتلهف إليها ويقاتل من أجلها. وهذا أمر يتخذ أشكالاً عدة حسب ظروف انتفاضة كل بلد. وهذه الحالة غير متوفرة في العالم العربي لسببين: القمع والإرهاب السلطوي من جهة. ومن جهة ثانية طغيان الاسلاميين، بمختلف أصولهم وميولهم وفروعهم، على ما يمكن أن يسمى بـ «المعارضة» للأنظمة، مما سهل لهم خطف الشارع العربي من لدن ما يسمى بالديموقراطيين أو القوميين أو الوطنيين أو الليبيراليين ومن جاراهم. فقد أفرغ طغيان الاسلاميين كل «معارضة» عربية تقع خارج تنظيماتهم، من إمكانية استقطاب الجماهير.

في الحالة التاريخية الثانية، لا تتم الديموقراطية ولا تتحقق إلا إذا كان هناك قرار دولي (أميركي / غربي تحديداً) يريدها ويعتبرها من مصلحته، تفرضه أساساً الحالة النضالية الأولى وتستقطب اهتمامه. وهذه الحالة غير متوفرة أيضاً في العالم العربي. فبعد الحرب العالمية الثانية فرض الحلفاء الغربيون على ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية وعلى اليابان الامبراطورية، النظام البرلماني الديموقراطي والاقتصاد الحر، لأن مصلحتهم اقتضت ذلك.

هذا لم يحدث في العالم العربي، حتى بعد حرب الخليج وضرب العراق، حين تفاءل العديد من باعة الأوهام، بأن أميركا لا بد أن تفرض تغييراً ديموقراطياً، أقله على الأنظمة الخليجية التي حاربت دفاعاً عنها وحررت الكويت من أجلها. وتبريراً أيضاً لسمعتها أمام شعبها وناخبيها، بأنها لم تحارب دفاعاً عن أنظمة عشائرية أوتوقراطية. ما حدث كان مجرد تغييرات «جمالية»، كانتخابات الكويت، ومجالس الشورى الموعودة في دول الخليج العربي الأخرى، ليس إلا.

لماذا؟ لأن هناك حالة ثالثة شاذة وخاصة بالعالم العربي وهي أن الولايات المتحدة والتحالف الغربي و«النظام العالمي الجديد»، لن تسمح بقيام نظام عربي ديموقراطي، بالمفهوم المتكامل للممارسة الديموقراطية إلى جانب إسرائيل. فإسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يجب أن تكون ديموقراطية وتبقى ديموقراطية في الشرق الأوسط، وسط بحر من الأنظمة الديكتاتورية، مما يسهل الدفاع عنها أميركياً وغربياً، ومن الممكن بحكم نظامها الديموقراطي، إدخالها في التحالفات العسكرية والسياسية والإتفاقات الاقتصادية الدولية.

بالإضافة إلى أنه من السهل على أميركا والغرب، وخاصة في هذه الظروف الاقتصادية الدولية العصيبة، التعامل مع الأنظمة العربية الفردية، لأنها تتعامل مع رجل واحد يملك وحده القرار، وليس مع حكومة وبرلمان وأحزاب ومعارضة، يحتاج القرار إلى المرور عبرها إلى نقاش طويل وتوازنات، هي في غنى عنها. إلى جانب أنه إذا تحول العرب الى ديموقراطيين، ممارسة وفعلاً، فإنهم قد يصبحون قوة تقدمية في العالم قادرة على الدفاع عن استقلالها وسيادتها وثروتها. وفي هذا تهديد لمستقبل إسرائيل والغرب برمته.

وهكذا يتبلور مأزق الديموقراطية العربية، بأن لا ملامح لتحرك شعبي يطالب بها، ولا قرار أميركي - غربي بفرضها. وهكذا أيضاً تضيع الذاكرة وتبهت الألوان ونفقد الحرية، فينسانا التاريخ ونقع في الفخ مجدداً[2]. □

(١) عبد اللطيف الحمد. ندوة آفاق استمرار التنمية في التسعينات، ودور برنامج الامم المتحدة الإنمائي في العالم العربي. «النمط الحالي والامكانات الكامنة للمستقبل». القاهرة - آذار / مارس ١٩٩٠.

(٢) يشكل هذا المقال مداخلة رياض نجيب الريّس في المؤتمر القومي العربي الرابع الذي عقد في بيروت في ١٠ - ١٢ أيار/مايو ١٩٩٣.

دفاعاً عن الثقافة وحريتها

■ **عبّر البيان الختامي للمؤتمر القومي العربي الرابع، الذي عقد في بيروت بين ١٠ و١٢ أيار/ مايو ١٩٩٣، عن اهتمامه بالبعد المتصل بالتجدد الحضاري للأمة العربية. وهي المرة الأولى التي يخصص فيها المؤتمر هذا الحيز للمشهد الثقافي في الوطن العربي، متخذاً أوضح موقف له من قضايا الفكر والابداع والنشر والاعلام.**

و«الناقد» اذ تسجل له هذا الموقف، تقتطف النص الآتي، كوثيقة، داعية إلى الالتزام بها والسعي من أجلها:

«يلاحظ المؤتمر القومي العربي على المستوى الثقافي العربي بكل الأسى والقلق عدداً من الظواهر شديدة السلبية في المشهد الثقافي العربي، سواء في إطار استمرار النسبة المخيفة للأمية في الوطن العربي، أو بالنظر إلى تعاظم دور المال في وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية مما جعل الإعلام العربي في معظمه، اعلاماً احادياً بمنابره على تعددها وبكتابه على تنوعهم، أو في إطار استمرار خضوع الكتاب العربي للحظر الرقابي والمساءلة الفكرية والسياسية، واستمرار معاملة المثقف العربي بمنطق التصنيف والمنع لا من قبل السلطات السياسية فحسب، وإنما على يد منابر أخرى للإرهاب الفكري السياسي. وكلّها أمور جد خطيرة كون الثقافة من أهم ما يجمعنا كأمة عربية أساساً بحيث تبقى هذه الثقافة سلاحنا الأساسي في حماية هويتنا.

ويرى المؤتمر أنه إذا كان لا بد من وقفة حاسمة مع هذا المشهد فلتكن وقفة حاسمة مع هذه الاقتراحات:

□ فتح باب الاجتهاد والحوار لكل التيارات الفكرية والثقافية، بعيداً عن التخوين الدائم لكل جديد وتهمة العمالة للأجنبي.

□ حماية المثقف والمبدع والمفكر من القمع السياسي والفكري والإغراء المالي.

□ التشديد على وحدة الثقافة العربية لردم الهوّة في التناقضات السطحية بين ما يُسمّى ثقافة مشرقية وثقافة مغربية أو ثقافة قطرية وغيرها من الإلتباسات والفوارق الثقافية العربية والإنفتاح على ثقافات العالم أجمع.

□ تضامن المؤسسات الفكرية والحزبية والنقابية المتعددة مع حرية الكاتب والكتاب بلا تردد، والمطالبة برفع الرقابة عن الكتب بلا تحفظ.

□ حماية الجاليات الثقافية العربية في المهاجر من الذوبان في الثقافة الأجنبية عبر تشجيع المنشورات والكتب بينهم، وتهيئة فرص تعلّم العربية لأبنائهم وتعميق وعيهم بالتراث.

□ دعوة أصحاب المنابر الإعلامية (صحف - مجلات - إذاعة - تلفزيون) للتعاطي بجدية أكثر مع قضايا الثقافة والفكر العربيين، بعيداً عن التسطيح.

□ مقاومة الاختراق الثقافي والإعلامي الإسرائيلي والتصدي للتطبيع، واعتبارهما حرباً لا تقل خطورة عن أي حرب أخرى، في ظل عالم جديد لا يرحم». □





وجهان عند الفَجْرْ

أنسي الحاج



■ لا، لا يكفي أن تطرح الاسئلة. حتى لو سميتها الاسئلة المصيرية والكيانية. طارح السؤال، ليكون كافياً او مكتفياً قليلاً او اكثر، لا بد ان يكون في حجم ابي الهول، او أرفع شأناً. اذا طرح الله سؤالاً، أَجْمُدُ. اذا طرحتُ انا سؤالاً على الله يظل سؤالاً، مهما اعتصر فؤاد الله أو فؤادك. يجب ايضاً ان اجاوب. ان القى الاجوبة. ان اسمع الاجوبة. أجوبة ما، تحفر في الجدار.

كثيرون يقولون عادةً: حَسْبُ هذا الشاعر أو الفيلسوف أنه طرح الاسئلة التي حرّكت ضمير زمانه الخ. . .

حَسْبُه، لا. جميل منه ذلك أو جريء، ربما. لكن طرح السؤال وحده، ولو بلغة الانبياء والعباقرة، لا يُشْبِع.

الجواب، ولو مجنوناً، أفْضَل من البقاء في حالة الضحيّة المغلوبة العاجزة التي يعنيها الاقتصار على السؤال.

عندما يتمنى الخلاّق تقليد مقلّديه...

* * *

. . . أو أن يكون السؤال في حجم المسألة تنطرح على ضمير الكون وتستنفر طاقاته الوجدانية.

أن يُقلِقَ الله حتى يحمله على القول. وإن لم يملك الجواب، فعلى البحث معنا عنه. . .

* * *

بعد أن يفقد الانسان براءته، كلُّ حديثه عن الحريّة حنينٌ إلى ما لن يعود.

* * *

لهجة الدمج بين الحيويّة والموت، بين المستقبل والدم، بين العدالة والقتل. . .
كل الايديولوجيات، الثورات، الانقلابات. . .
رؤوس كثير من المفكرين اذا فتحناها وجدناها أكثر ايواء للجثث من المقابر الجماعية. مع فرق: الرؤوس في حلم التغيير، المقابر في حزن العارف. . .

* * *

كلما لجأ أحدهم أمامي الى المنطق التحليلي شعرت شعوراً محسوساً يُلْمَس باليد، أن عملية نزوح بدأت من منطقة «المعرفة بلا شرح» الى مناطق «الشرح مع انتقاص من المعرفة».

* * *

يمارس الشعراء العرب الشطح، ويعتنقون العرفان، ويعيشون الحلم، ويهربون (الى الأمام والى الوراء والى الجهات المختلفة)، ثم يكتبون مقالات عن حاجة العرب الى. . . العقل.
هل هو الجهل بالكلمات؟
. . . ومعه، الرغبة اللاواعية بان تكون الاستقالة من العقل امتيازاً لهم وحدهم، وبان يكون الآخرون عاقلين وعقليين، حتى تستمر اللعبة.
والحق معهم. . . ما داموا لا يدرون.

* * *

ما أطول المشوار مع الفكر العربي. . . يدعونه للتحرر من الظلامية اللاعقلانية. . . واذا تحرر، سيُفرط في العقلانية. . . فيدعونه للتحرر من قيود العقل الصارم والعودة الى الجذور. . . واذا عاد، سيقولون له: ليتك ما عدت. . . وهكذا. . .
قرون الغرب الوسطى، الآن في العالم العربي.
لا بل قرون الغرب كانت اكثر تقدمية وأقل ظلامية، في الواقع.
مشوار طويل عشناه سلفاً.
ونتائجه غير مضمونة.
ولماذا العذاب؟
للخروج من «التخلّف»؟
ولماذا لا نُجرّب تَرْكَ التخلف يبلغ تمامه، لعل في ذلك الخلاص؟
ولماذا الخلاص؟
إلى آخره.

* * *

غناءٌ مثاليّ: معه تُركّز، وفي اللحظة نفسها تُغلغل في فرارٍ دافىء كالخلاص.
هذا هو، مثلاً، غناء فيروز مع الاخوين رحباني.

* * *

التركيز والفرار معاً: حضور الوجود كلّه فيك، وعودته وإياك، وعَبْرك، إلى أرض السماء المفقودة.

* * *

موسيقى تُخلّصك. تؤجّل الزمن لك. تُلغيه.
موسيقى تُحميك.
وأنت في الوقت نفسه، أو بعده بقليل، تَحميها أيضاً.
قارىء يحمي سطوراً طالَعَها مثلما تحمي الايقونةُ الصدر الذي يحملها، ومثلما يحمي الصدرُ أيضاً ايقونته عَبْر تعلقه بها.

* * *

الكبير هو من يظن نفسه أصغر من الصغار. كلّ خلاّق كان معجباً بواحد او أكثر ممن هم دونه أهمية، وكان يعتقد أنهم أعظم منه. لا يختال ويتباهى إلاّ الطبل الفارغ. الحقيقيّ، الصميم، جاهل لا لقيمته بل لتقدير قيمته بالميزان الاجتماعي والأدبي. يعرف أنه محمول على شيء، وحامل لشيء، وقد يعرف أنه مختلف، وحتى قد يفتتن بذاته، ولكنها ذاته التي، في كُنْه حالها، لم تعد ذاته هو بل الذات التي على صفحتها تنعكس الأشعّة. وأما افتتانه ذاك فملاحقة للحقيقة، إغراق في تأمل المجرّدات عبْر ما يتراءى للسطحيّ أنه نرجسية.
الخلاّق الأصيل، الاكبر من الزمن، إله فَقَدَ ذاكرته (مؤقتاً) بين مقلّدين، فراح، لبراءته، يتمنىّ لو يستطيع تقليدهم. . .

* * *

الابتسامة من طرف الخدّ، تُرافقها مراوغة في العينين:

هزء بالآخر لا يفسِّره ما هو، في الآخر، مدعاة للهزء، بل ما هو في نفس المستهزىء من اغتياب في قلب الحضور.

هذا النوع من الغادرين هم طليعة ما يُنفّر من السخرية، مع أنها، لو فَعَلَتْ في محلها، أخلاقية عظيمة.

* * *

السخرية في محلّها: ضد المنافق الكبير، المزيّف الحقير، الدجّال المؤذي، السفّاح، المنفوخ، المنتفخ، التافه المتعاظم، الديكتاتور، الخ...

السخرية من الضعيف، خصوصاً الضعيف البريء، جبانة. وهي التي نشاهد معظم الوقت.

* * *

السخرية التي نشاهد معظم الوقت

اليوم، في الخامسة فجراً، دخلتُ الى غرفة مطلة نافذتها على دير الراهبات، أمام البيت. نظرتُ من النافذة الى القطعة المرئيّة من السماء فوق صليب الكنيسة الصغير، واقشعرّ بدني للمنظر.

كان نور الصباح يبدأ يلوح ضعيفاً، ولكن من وراء الغيوم الكثيفة الحالكة. والمنظر العجيب المرعب الذي رأيته، في تلك الغيوم، هو وجه كبير مع كل قسماته وأجزائه، من عينين وأنف وجبين وشعر وخدّين وذقن ولحية... وجه ضخم جاحظ العينين، قاسي النظرة الى حد يبعث الفزع. وجه هو نفسه الذي اعتدنا رؤيته في بعض الرسوم، عبر كل العصور، للشيطان. ليس للشيطان المحتال المراوغ الموقع في التجربة، بل للشيطان الآخر، البشع، المجرم، العديم الشفقة، الغول، المفعم بكل ما في الخليقة من بغض وشرّ.

استمر هذا المشهد منطبعاً في السماء بضع دقائق. كان نور الفجر يُغلْغل في ثنايا الوجه المخيف، غير قادر على زحزحة الكابوس.

لم أقوَ على التحديق طويلاً، فغادرتُ الغرفة وحاولت معاودة المطالعة.

ذكّرني هذا الهرب بحادثة أُخرى حصلت معي مرة في القاهرة، حين اصطحبني اصدقاء، عند منتصف ليل اليوم الذي وصلت فيه الى مصر، لمشاهدة تمثال أبي الهول. كان القمر بدراً والدنيا صحو الشتاء. وما ان وصلنا الى طلسم الرمل ووقع نظري على وجهه حتى تملّكني رعب كاسح واخفيتُ عينيّ بيديّ وطلبتُ الرحيل فوراً عن المكان. لقد احسست بيني وبين ابي الهول سلكاً من الحياة، لعلني احتل فيه مركز المذنب، وأما هو فالمطمئن الجبار الرابض للحساب. احسست أن جموده الحجريّ خِداع قد ينطلي على الآخرين ولكنه لن يرحمني أنا. فهو حيٌّ بكل دهوره، حقيقي بكل أساطيره، ولا يجب أن أَمْثُلَ أمامه، وإلاّ فلن أنجو.

اليوم فجراً عراني خوف من النوع نفسه امام شيطان الغيم، ولكنْ أقلّ حدّةً. ربما لان أبا الهول باقٍ مكانه لا يتزحزح، بينما الغيم غَيم.

وفجأة قلت ساخراً من نفسي: «أقوم وأرى ماذا حلّ بالرؤيا».

فلما نظرت من النافذة الى تلك البقعة من السماء رأيت وجه الشيطان ينهي آخر تحولاته لا ليضمحلّ كل شيء وتعود الغيوم الى أشكالها العادية، بل ليتشكّل وجه جديد على انقاض الأول، وجهٌ صَدِّقْ أو لا تُصدِّق، اضحكْ أو لا تضحك، وجه هو ذاته، بكل بلاغة آلامه، وجه يسوع المسيح على الصليب كما اعتدنا رؤيته في اعمال فناني عصر النهضة، ولكنْ هنا، بالغيوم المدهشة، أقرب الى الاستعداد للنطق.

لم تستمر الصورة قَدْر ما استمرت صورة الشيطان. بل زهاء دقيقتين. ثم عاد كل شيء الى نظامه.

الغيوم ترسم دائماً أشكالاً. كلنا يستطيع تأملها وتقدير بدائعها. مجرّد تراكيب يتلهى بتأليفها البخار ثم تنسفها الريح في ثانية. صُدَفٌ، محْضُ صُدَف.

لكني لا أؤمن بالصُدَف الغبيّة. الصدفة مجموعةُ اتفاقات. نتيجة ارادات، او ارادة. وكل ما في الكون «يقول». وكل ما يحصل «يعني».

لا أعرف ما معنى توالي الوجهين عند الفجر. الصراع الدائم؟ اشارة خاصة؟ تذكير؟

بلى، في الحقيقة، لو لم اكن لا ازال أهرب، لعرفت. فهُها هنا. ◻



صادق جلال العظم:

أسير الوهم

عندما يتحول النقد من موقف الى مهنة

أحمد برقاوي

■ نشرت مجلة «الناقد» في العدد ٥٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٢ ـ جزءاً من كتاب «ذهنية التحريم ـ سلمان رشدي وحقيقة الأدب» للصديق والزميل صادق جلال العظم. يتناول فيه بالنقد نماذج مما نُشر عربياً من مناقشات «ثقافية» وادانات «صحافية» وتهجمات فكرية «تناولت مسألة سلمان رشدي زاعمة الرد على ما كتبه وافحام طروحاته».

ما أن انتهيت من قراءة هذا الجزء، حتى تأكد لدي الانطباع القديم عن الطريقة التي يكتب بها صادق جلال العظم والتي تبدو متسقة مع نزوع أصيل فيه، فالصديق العزيز وهو يكتب يحتاج دائماً الى خصم ينتقده أو شخص يحاوره. وهذا النزوع يدفعه احياناً الى اختراع خصومه اختراعاً اذا لم يتمكن من ايجادهم في الواقع. وهذه طريقة مثيرة، ولا شك، بسبب الحرارة التي يضفيها النقد على النص، كما تقدم لصاحبها مجالاً رحباً للانتقال من فكرة الى أخرى، خارج الاتساق المنطقي المطلوب الذي يتطلبه تناول ظاهرة محددة، في التحليل، للوصول الى معرفة نظرية متماسكة. ولا اعتقد ان صادقاً يعوزه الذكاء المطلوب للتفلسف. لكن لا أدري لماذا يستسهل الموضوعات، ولماذا يستسهل طريقة عرضها، فمن المعروف جيداً ان كل ظاهرة وفكرة او نص نظري او موقف يمكن أن يتحول الى موضوع للنقد. عندها ليس من الصعب أن يجد الناقد ما يشاء من النقص والنقض والجمل الداحضة واللغة الساخرة والاحكام العامة والنصوص المناقضة للنص المنقود الخ. غير ان هذه الطريقة اذا ما تحولت الى طريقة وحيدة في الكتابة لدى شخص ما، أو صارت

(*) باحث فلسطيني وأستاذ الفكر العربي الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة دمشق

مهنة، فإنها ستوقع هذا الشخص في مآزق كثيرة لا سبيل الى الافلات منها، اقلها الفقر الذي يطبع حصيلة جهده، وغياب النسق النظري العام الذي يميزه، وفقدان القضية التي تشكل اساساً للهم الذي يقف وراء الكتابة.

نقد أم هجاء؟

والمتتبع لنشاط د. صادق العظم الكتابي، يجد ولا شك هذا الذي تحدثت عنه. فلو تركنا جانباً كتاب «التعليم في اميركا» الصادر عن إحدى المؤسسات الدعائية الاميركية والذي ترجمه صادق في بداية الستينات، ونظرنا فيما صدر له من كتب ودراسات ومقالات باللغة العربية، فإننا نجد أن مجمل ما كتبه ينضوي تحت اطار النقد «نقد الفكر الديني»، «نقد فكر المقاومة»، «النقد الذاتي بعد الهزيمة» «السادات وبؤس السلام العادل» «الاستشراق والاستشراق معكوساً»، «دراسات يسارية» حتى كتابه الأخير «دفاعاً عن المادية والتاريخ» الذي أخذ صيغة الحوار مع شخص يُدعى قيصر. كتابان يشذان عن هذا السياق أحدهما تأريخ للفلسفة الغربية «دراسات في الفلسفة الغربية»، ثم «في الحب والحب العذري». أما كتابه «الصهيونية والصراع الطبقي»، فهو وحده الذي يحتوي على فكرة موجودة في كل ثنايا الكتاب. أرجو أن لا يفهم من كلامي، أن النقد اسلوب مرذول في الكتابة. فأنا اعتقد أنه لا وجود لكتابة لا تسري فيها روح النقد الصريح أو المبطن. ولكن عندما يتحول النقد الى مهنة، فإنه إذ ذاك يفقد وظيفته.

فمن المعروف أن ماركس قد بدأ حياته الفكرية بعد دفاعه عن رسالة الدكتوراه في النقد، فكان من جملة ما كتبه، وخاصة في الفترة الأولى ما قبل كتابة رأس المال، «نقد فلسفة الحق عند هيغل»، و«نقد النقد النقدي (أو العائلة المقدسة)»، «المسألة اليهودية»، «الايديولوجيا الألمانية». لكن ماركس كان بصدد صياغة جديدة لفكر يقيم قطيعة مع الفكر السائد. هذه الصياغة تمت وتطورت عبر نقد الاشكال السائدة من الافكار والايديولوجيات. ففي الايديولوجيا الالمانية اسس ماركس وانجلز المفهوم المادي للتاريخ، الذي استمر بوصفه اساساً منهجياً لكل جهدهما اللاحق.

ولكن ما حصيلة الجهد النقدي للصديق صادق العظم؟ ما الذي يريد أن يؤسس له صادق؟

هل يريد أن يؤسس لطريقة في النقد هجائية، تنال من الاشخاص، وليس من الافكار؟ أم يريد أن يعمم نزعة «الأستذة» التي لا ترى في الآخرين الا تلامذة يستحقون الضرب على الاصابع؟ ام أنه يسعى لأن يجعل طريقة نقده شبيهة بطريقة المحقق مع المتهم؟ مع انه يعلن انه ضد الموروث الثقافي السيء، وضد الجامعة المتخلفة وضد السلطة القمعية. أليس الأجدر بمن يعلن انه ضد هذه المظاهر الثلاثة ان يكون ضد الهجاء و «الاستذة» والتفلسف؟ المشكلة مع صادق لا في دفاعه عن سلمان رشدي ولا في هجومه على نقاد «آيات شيطانية». فهذه المسألة ثانوية جداً. المشكلة في بنية تفكير صادق بالذات والتي قد لا يكون على وعي كامل بها.

تفكير ميكانيكي

في تفكير صادق العظم أثر للنزعة الميكانيكية التي سادت في القرن السابع عشر واستمرت حتى القرن التاسع عشر. وتحولت تالياً الى نظرة للعالم. إنه لا يرى التعقيد في الظاهرة، التي يراها بسيطة ويمكن ارجاعها الى سبب واحد. أي انه لا ينظر الى المسائل التي يتصدى لها من حيث تغير الشروط والظروف ومعرفة الأسباب المتبادلة. ليس بإمكاني الآن العودة الى كتابات صادق العظم - بسبب انها ليست لدي هنا في عدن والمكتبة لا تضمها - ولا أريد الاعتماد على الذاكرة فقط، بل سأكتفي بالتدليل على ما قلت بالاعتماد على المادة التي أمامي «ذهنية التحريم».

ينطلق صادق من مقدمة بسيطة تفيد أن هناك نقاداً لرواية سلمان رشدي. اذاً جميع النقاد متشابهون. ولهذا فإنه يناقشهم دائماً في صيغة الجمع. عندها لن يختلف هادي العلوي وأحمد برقاوي عن الشيخ شعراوي وتاتشر وحكام جنوب أفريقيا. كما يتساوى ريغن وآية الله الخميني. ولان حسن حنفي له رأي «موضوعي في الرواية» فهو يستحق المديح والثناء من التنويري صادق العظم. نحن إذن أمام ثنائية عجيبة وغريبة: من هو مع رواية سلمان رشدي ومن هو ضدها. وعليه، اصدر صادق الحكم سلفاً. فالحكم جاهز عنده دون أن يكلف نفسه عناء الفهم والتفسير لزوايا الرؤية المختلفة من الرواية. ومما يؤكد قولنا هذا، هو ان يدين بعضهم لاقترافهم ذنب أدانة الرواية قبل قراءتها. ولكن هناك من قرأ الرواية وأدانها، أحدهم الصحافي احمد بهاء الدين، فتبين له انه لم يقرأها قراءة متمعنة ومتأنية، بل أن قراءته تشي بعكس ذلك. والا كيف نفسر حكماً مبتذلاً من النوع التالي: «لا يتوقع مثله عادة الا من اقلام كتاب من الدرجتين الثالثة والرابعة». كتعليق على عبارة بهاء الدين التي قال فيها: «ان الكتاب صادر من نفس مريضة، رضيت لنفسها أن تقترب بأن تبيع روحها وتراثها». اذن ينطلق من أن من قرأ الرواية يجب أن يعجب بها. واذا لم يعجب بها فهو من الدرجتين الثالثة والرابعة ولا يعرف شيئاً عن سلمان رشدي!

سخف واستهتار

وصادق على قناعة أن هادي العلوي لو قرأ الرواية لما كان أطلق عليها احكاماً تتصف «بهذا القدر من السخف والاستهتار». فكلا الكاتبين هادي العلوي وأحمد بهاء الدين برأي العظم أصدرا «أحكاماً سخيفة» الأول لأنه لم يقرأ والثاني لأنه قرأ ولكنه لم يقرأ بشكل جيد! وانا بدوري أسأل مثلاً السؤال التالي: لماذا يقف هادي العلوي المفكر الماركسي، العارف جداً لدقائق التراث والمهدد دائماً في حياته دون فتوى علنية من السلطة الديكتاتورية في بلده، والمتشرد رغماً عنه، والزاهد بشؤون الدنيا، والمعجب اشد الاعجاب بأبي العلاء المعري - وما أدراك ما أبو العلاء - لماذا يقف مفكر من هذا النوع مديناً رواية سلمان رشدي؟ ألأنه لم يقرأ الرواية ؟ ولماذا يتورط في حكم على رواية لم يقرأها؟ أم هو راغب أن يتحدث د. صادق العظم عن أحكام له سخيفة مستهترة؟ ثم أسأل السؤال التالي: هل من المعقول ان شخصاً كأحمد بهاء الدين بعد عمر طويل من الكتابة والقراءة، أعيته رواية سلمان رشدي فلم يُجد القراءة لانه لم يتأن ولم يتمعن فيها؟ أما كان عليه أن ينتظر قراءة صادق العظم لها حتى يتعلم كيف يقرأ كي لا ينحدر الى مستوى من الدرجة الثالثة أو الرابعة؟ الدكتور العزيز لا يريد ان يعمل فكره في فض ملابسات وشروط المواقف من الرواية، تلك المواقف التي يتخذها بعض الكتاب على اختلاف مشاريعهم الفكرية.

هادي العلوي والملوك

فهادي العلوي، صاحب كتاب «الاغتيال السياسي في الاسلام»، ينظر الى العلاقة بيننا وبين الغرب من زاوية الصراع السياسي والثقافي. انه يكره الغرب المستعمر المستبد المتعصب والشاعر بالتفوق، وفي الوقت نفسه يبني علاقة حميمة بتراثه الشرقي وخاصة بالرازي وابن عربي وابي العلاء وبمن هم على نحوهم. انه يحتقر المتنورين، ولا ينظر اليهم الا بوصفهم عدميين تجاه هويتهم الثقافية.

وهذا يفسر لنا لماذا اختار هادي العلوي الاقامة في دمشق ثم في الصين، في الوقت الذي اختار معظم المثقفين العراقيين أوروبا للاقامة في المرحلة الاخيرة. والعلوي رجل يتطابق عنده النظر والعمل الى حد غير طبيعي. فهو مثلاً يرفض رفضاً قاطعاً أن يأخذ أية مكافأة لقاء ما ينشره. وأذكر أننا في لقاء مع نايف حواتمة كان الدكتور صادق موجوداً معنا، وكان هادي العلوي يجلس الى جانبي. وبعد فترة طويلة من النقاش قدمت لنا بعض الفواكه، غير أن هادي لم يمد يده اطلاقاً لتناول ولو برتقالة فلفت ذلك نظري. فقدمت له جزءاً من الصحن الموجود امامنا فرفض العرض رفضاً شديداً. وعندما سألته عن السبب اجاب: أنا لا آكل على موائد الملوك. انه ماركسي ومنفتح على الفكر العالمي. وفي الوقت نفسه روحاني النزعة. انه لا يأكل اللحم اطلاقاً، ربما جرياً على طريقة أبي العلاء. أخذ على ابن سينا انه «لم يكن في سيرته كفاءةً لعلمه. وهو فيلسوف سيء السلوك كما نعرف من سيرته الشخصية.»[1] وفي ندوة «البريسترويكا عربياً»، قدم هادي العلوي بحثاً حول الماركسي الروسي لونا تشارسكي، كمثقف راق ذي سلوك محمود. فقرّبه من علي وأبي العلاء وقدمه بلغة مليئة بالمصطلحات الصوفية. ونشر في مجلة الحرية بعد حرب الخليج مقالة حول موقف المثقفين من الحرب. وكان هدفه أن يرصد الموقف من الغرب، فوجد ان المثقفين الذين انتقاهم درسوا في الغرب ولكنهم يقفون ضده، وقدم نماذج من كتاباتهم، معجباً غاية الاعجاب بهم. إذن هادي الماركسي الشرقي ذو السلوك الصوفي في حياته، المتبحر في قضايا التراث والمدافع عن الرازي وأبي العلاء المعري. هادي الذي ما زال مؤمناً بالاشتراكية، والمهاجر رغماً عنه ويسكنه هاجس الموت غدراً، لم ير في رواية سلمان رشدي سوى رواية آسيوي متأورب نال فيها من شخصيات اسلامية يكن لها العلوي كل الحب والاحترام. وكان حكمه مستنداً إلى ما يكفي مما شاع عنها من اكثر من مصدر اتفق على انه صحيح، ويُشكل فكرة الرواية الأساسية. ولهذا السبب ساوى العلوي بين سلمان رشدي والمستشرق لامانس، لا من حيث وحدة الموضوع كما ظن صادق العظم، بل من حيث وحدة الموقف من الشرق.

مناخ ارهابي

لا أريد ان أصدر حكماً تقويمياً على موقف هادي العلوي، أريد فقط أن أقول أن موقف هادي من «آيات شيطانية»، لم يصدر عن تسرع ولا عن «ديماغوجية»، كما يقول صادق سببها عدم قراءة الرواية، بل عن موقف من الغرب ومن التراث ذي أساس مرتبط بنمط حياة هادي ونظرته الى هذا الحياة. على هذا النحو يمكن النظر الى موقفي أحمد بهاء الدين ورجاء النقاش.. لنرَ ماذا يقول أحمد بهاء الدين: «ان الكتاب حقير صادر من نفس مريضة، رضيت لنفسها أن تغترب بأن تبيع روحها وتراثها». إن المدقق في هذه اللاالفاظ يدرك مباشرة أن الموقف ليس من رشدي، بل من التراث والهوية. لقد ساءه أن يجد آسيوياً مسلماً صار انكليزياً، ويتناول ما يعتقده أحمد بهاء الدين، مكوناً اساسياً من مكونات ثقافته القومية. فلماذا هذا الاستغراب من صادق؟ أليس هناك عدد كبير من المثقفين التنويريين يعتزون بشرقهم وبتراثهم كردة فعل طبيعية على الغرب. كذلك لا حاجة للألم يا صديق صادق من موقف ناقد أدنى من عيار رجاء النقاش. بصراحة لقد قلقت عليك لشدة ما أصابك من «الخوف» و «الألم» و «الدهشة» و «الاستغراب» و «الفجيعة» و «المصيبة»، فإن تَهجم هذه الأنماط من الشعور دفعةً واحدة على شخص ما، فإنها ستحدث له، ولا شك «حالة» سيئة دائمة، اذا لم يسعَ الى التخلص منها بسرعة. وأتمنى ان تكون قد تعافيت منها.

ان صادق جلال العظم، ببساطة، يريد ان يمارس النقد أولاً وأخيراً. وهو لهذا يضع القارىء في مناخ ارهابي جداً. فالقارىء يقرأ جملاً من مقالات صدرت (جملة أو جملتين، من كل مقال) هذه الجمل المنتزعة من سياقها لا يعرف القارىء في اي سياق جاءت، وما هي فكرة المقالة التي احتوتها بالاساس.

انا مثلاً قرأت مقالة هادي العلوي، واعرف فكرتها. لكني كقارىء لكتاب صادق العظم، فإنه لا يُعرفني الا على جملة من مقالة رجاء النقاش أو أحمد بهاء الدين، وبالتالي لا استطيع أن أثق بنقده لها. وهذا ما فعله معي بالذات. فالقارىء الذي لم يقرأ سيظن اني تناولت رواية سلمان رشدي بالتحليل واستنتجت انها كذا وكذا دون أن اقرأها. وتقديراً واحتراماً للقارىء العزيز سأضعه في أجواء ملابسات مقالتي «سلمان رشدي والضجة المفتعلة» التي نشرت في مجلة الهدف في ١٩٨٩/٤/٣ م.

الحاد ساذج

إن عنوان مقالتي يوحي مباشرة بالهدف الكامن وراء الضجة حول رواية سلمان رشدي والتي اعتبرت انها ضجة مفتعلة وليست حقيقية. ان وراءها أهدافاً سياسية لخصتها في حينه كما بدا لي، في أن السلطة في ايران تحتاج الى تكتيل الشارع الاسلامي حولها نتيجة لأزمة تعيشها، بالمقابل جعلت فتوى آية الله الخميني الغرب الرسمي، يبدو وكأنه المدافع عن حقوق الانسان. وبالتالي يجب التعامل معها (أي مع الرواية) كنص أدبي لا أكثر ولا أقل. وختمت المقالة بأن أحداً كائناً من كان، لا يملك الحق، في أن يصدر فتاوى بقتل الكاتب مهما كان موقفه. ولهذا فلقد أدنت فتوى آية الله الخميني. أما طريقة عرضي لهذا الموقف، فقد جاءت كما يلي: انني لم أقرأ الرواية بل قرأت نتفاً عنها، وهذا الذي اطلعت عليه فيه من السوقية والابتذال ما لا استسيغه. وفيها هجوم على شخصية الرسول الكريم، الذي نحن وَرَثته وورثة ابن رشد وسبينوزا وماركس ومحمد عبده، ولا يجوز أن يكون الرسول الكريم موضوع سخرية. ولاننا أمام نص أدبي، فلا يجب أن نعامله معاملة كتاب تاريخ عن حياة الرسول لواحد من العرب أو المستشرقين. وان من حق أي كاتب ان يتناول حياة الرسول بالتأريخ والتحليل. كما انني ضد الالحاد الساذج الذي لا يرى مشكلتنا الا في الدين. وهنا أتساءل، أما كان على صادق العظم أن يكلف نفسه عناء بسيطاً لتقديم روح النص الى القارىء؟ هل جاءتصرفه عن سؤنيّة؟ لا اعتقد ذلك، فأنا لا اعرف

يتوهم العظم أن القضية في الوطن العربي هي قضية صراع بين «العقل العلمي» و «العقل الغيبي»

عنه هذه الصفة. أم أنه لم يقرأ بتأن وامعان المقالة ـ كما حدث لأحمد بهاء الدين حين لم يقرأ بإمعان وترو رواية سلمان رشدي ـ أيضاً أشك في ذلك، لأن صادقاً قارىء ممتاز، أم انه يريد ان يوحي بأنني جاهل بقواعد النقد؟ لا طبعاً، هذه مناكفة من صادق لا تحتاج الى رد. كما ان مزاحه الثقيل الظل حول خوفه من أن اصير وزير ثقافة في الدولة الفلسطينية المنشودة، ليس مجاله الكتابة في صحافة رصينة كمجلة «الناقد». اذن لماذا اختار ثلاث جمل من النص فقط وغيبه عموماً؟ اعتقد ان ذلك يعود الى سبب واضح، هو أنه مولع بالنقد والنقد البسيط. فليس أسهل من تبيان تهافت جملة مسروقة من سياقها فصادق هو الذي يقول: «إن الناقد الذي يحترم نفسه وصنعته وجمهوره ملزم بأن يعرف جيداً ماذا ينقد وأن يوضح ذلك كله لقرائه و يعرفهم به» (ص ٣).

اصابة في المقتل

وصادق مولع بإيهام القارىء، انه يلتقط مشكلات او انه يلقي القبض على الكتاب متلبسين بالجهل، ليبدو وحيد عصره والعارف بكل شيء حتى في النقد الأدبي ونظرية الأدب. وإلا ما معنى قوله: «ومع أن الاتهامات الموجهة الى رشدي بالكذب والتشويه وما اليه لا تقول شيئاً جدياً عن روايته، فإنها تقول في اللحظة، ذاتها، اشياء جدية كثيرة عن اصحاب تلك الاتهامات، تقول شيئاً ما على قدر كبير من الأهمية، عن مفهومهم البدائي المتخلف لمعنى الأدب وعن خيالهم الفني المحدود بالبعد الواحد. وعن حسهم الجمالي المتبلد على الرغم من سعة اطلاع بعضهم ودراسة بعضهم الآخر للديالكتيك وتدريسهم له» (ص١٢). اذا كان المقصود سيد أشرف الذي لا يستطيع ان يتخيل سقوط شيء من طائرة ويصل الى الأرض سالماً في نص ادبي، فهذا شأن سيد اشرف. وكان من شأن صادق ان يضيق حدود نقده ليصيب من المدير العام للأكاديمية الاسلامية في كامبريدج مقتلاً. لكن صادقاً يجعل رأي سيد اشرف رأياً مضمراً في جميع الاتهامات الموجهة من جانب النقاد العرب الى رشدي. ويجعل المطلعين على الأدب ودارسي ومدرّسي الديالكتيك اناساً فاقدي الاحساس بالأدب وجاهلين بالواقعي والمتخيل. فمن يقصد صادق بهؤلاء الديالكتيكيين الجاهلين ذوي المفهوم البدائي للأدب العاجزين الخ الخ؟ هل يقصد رجاء النقاش مثلاً وهو يحلل مقطعاً من قصيدة البوت اغنية العاشق عندما تناول ديوان احمد عبد المعطي حجازي؟ هل يقصد قوله: «لنحذر التصوير الفوتوغرافي الذي لا يحمل رمزاً ولا دلالة؟»[1]. هل يقصد هادي العلوي الذي كتب رسالة الى الحلاج عن طريق مجلة الحرية؟ ام هو يقصدني؟ على أية حال اذا اردت أن اجعل من رأي صادق في الشعر والأدب قضية فباستطاعتي ان أظهر تخلفه في هذه النقطة، بناء على السطور التي كتبها.

الصدق والكذب؟

ان صادقاً ما زال في مرحلة رؤية الشعرية في العلاقة بين الصدق والكذب. ما زال واقعاً عند بلاغة القدماء. الوزن والعاطفة والاستعارة والكناية والقافية. . الخ وما زال صادق يعتقد أن الجميل هو الذي يحدد ماهية الشعر. ولهذا تراه يطرب لبيت المتنبي ولا يرى المتنبي الا من خلال الصورة الخارجية التي تتطابق مع الوقائع التاريخية:

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

ما معنى الصدق والكذب في هذين البيتين. . أهما جميلان لأنهما بعيدان عن الواقع؟ أم ان المتنبي اعاد بناء الكينونة القائمة على هذا الإخفاق الدائم في الحياة المرتبط بطموح جموح في عالم خرب؟ عندما أراد المتنبي أن يرثي أم سيف الدولة، فرثى نفسه. ان الموت ليس الا نصلاً يضاف الى نصال الدهر التي اصابته وهو يواجه العالم. وبالتالي نحن أمام شكوى حقيقية. نحن أمام نفس تتعذب. أرهقها الترحال بحثاً عن المشروع الدائم الذي لم ير النور.

فقد كان شاهد دفني قبل قولهم
جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لا يتحدد الشعر بأساليبه وصوره فحسب. فاللغة المحكية مليئة بهذه الاساليب. يقول الفلاح لابنه إن الريح اليوم مجنونة. وان فرسي كالعروس. الشعر قفزة في المجهول وصياغة جديدة للعالم. إنه تمرد ميتافيزيقي، تمرد على العالم. حين يستطيل ألم الشاعر ليغدو ألم كل واحد منا، فإنه يضعفنا في حضرة الانساني. ان صادقاً يعتقد أن الميزة الشعرية هي رسالة جمالية. لقد دحض هايدجر في وقته مثل هذه العلاقة المباشرة.

«أتدرين أي حزن يبعث المطر
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر
وكيف يشعر الغريب فيه بالضياع
بلا انتهاء
كالدم المراق كالجياع
كالحب كالاطفال كالموتى
هو المطر».

جرياً على رأي صادق العظم، فإن شعرية هذا المقطع للسياب قائمة على ما يلي:

المزاريب تنشج وهذا غير واقعي او المطر كالدم وهذا أيضاً غير واقعي.

عقل قديم

لا شك أن الصورة الفنية جزء من الشعرية. ولكن الشعرية هنا تكمن في هذا الاستفهام لذات متألمة تفرض على القارىء تواصلاً داخلياً مع الشاعر، وليس مجرد رؤية خارجية للغة. فالشاعر لا يريد أن يصف لنا المطر، فغاب المطر الحقيقي لقاء صورة غير واقعية له. وبدا جميلاً. ما زال صادق في مرحلة رؤية الشعر في الجميل. أما في ماهيته فهذا ما لم يهتم به بعد. فصادق يعرف على ما اعتقد أن الشعر أو الأدب لا يخضع لمبدأ التحقق وبالتالي فالتخيل ليس صادقاً وليس كاذباً. ومع ذلك ليس كل مُتخيل أدباً. لقد أراد الانسان البدائي ان يفسر الزلزال فاعتقد أن الأرض محمولة على قرني ثور، واذا ما تعب قرن الثور الأول، وضع الأرض على قرنه الثاني. وفي

لا يختلف صادق العظم عن المسلم المتشدد والمتعصب

اللحظة الفاصلة بين عملية تغيير وضع الأرض يحدث الزلزال، هل هذه الأسطورة هي أدب؟ طبعاً لا.

«لتكن كلمات الشاعر ضوءاً
ضوء الحامل عبء الأرض، ويبقى
في الجذر الأعمق في اقصر موج
لتكن سفراً
يترصد كل مهب
ويخالط نبض الكون، ويبقى
في الجذر الاعمق في اقصى موج
لتكن جسداً
لمحيط الهجس بوجه آخر
للانسان ـ بوجه آخر
للتكوين
شقاء أن تتفتح، أو ان تكبر أو أن تهجم نحو الضوء، وموت أن تبدع أو ان تحيا
في احوال ثمود». (أدونيس ـ كتاب القصائد الخمس، بيروت ص ٣٢ ـ ٣٣).

اجل هو ذا الشعر.

الا يحق لنا ان نتساءل عن مدى جدية نقد صادق العظم للديالكتيكيين، وتوهمه أنه يعرف ما لا يعرف غيره؟ الا يحق لنا ان نتساءل، ما معنى إلصاق تهم بأصحابها دون أي سند، ثم يظهر بأن المُتهم هو ذاك الذي ما زال يفكر بعقل قديم جداً. ما كان لصادق ان يقع فيما وقع فيه لولا انه غارق في معمعان النقد الذي لا يقول شيئاً يزيد معرفة القارىء. اليس جهلاً أن يساوي صادق العظم بين خيال شاعر او روائي او فنان ودور الاسطورة الرمزي في الأدب، وبين المعتقد بما هو خارق للطبيعة؟ يطلب صادق رأي «هذا الصنف من نقاد رشدي بفنتازيا الاسراء والمعراج مثلاً» (ص ١٤). ويقول ايضاً: «ما رأيهم بالمجلدات التراثية الضخمة التي كتبت بالوصف التفصيلي الدقيق والمطول لأحوال أهل الجنة والنار» (ص ٣). انه يطرح هذه الاسئلة الاستنكارية ليدافع عن سلمان رشدي وخياله، مع انه عملياً وفي هذه النقطة بالذات يعرّض دون أن يدري بسلمان رشدي، لأنه يساوي بين جهد ادبي، مؤلفه واع لما يريد، يستمد من التاريخ والاساطير لتحقيق غرضه، وبين من يعتقد بوقائع صحيحة يؤمن بها حتى لو نظرنا اليها على أنها نمط من الاساطير.

كل من قرأ رواية «آيات شيطانية» يجب أن يعجب بها؟!

السائح ذو الشال الأحمر!

فأغلب المسلمين لا يتعاملون مع الاسراء والمعراج على أنها حادث اسطوري، بل حادث وقع فعلاً. وقد يختلفون في الطريقة التي اسرى بها الرسول الكريم. حيث يعتقد الكثيرون انه أُسري بجسده وروحه معاً، بينما يعتقد بعضهم أنه أسري بروحه فقط. ولهذا فهم يحتفلون بيوم الاسراء والمعراج. ولا شك أن الخيال الشعبي قد اضاف الكثير الى هذه المسألة، لكنها تبقى بالنسبة الى المسلم حقيقة جاء بها نص قرآني صريح. ولأن الأمر كذلك، تصبح دراسة هذا المعتقد مختلفة بالتأكيد عن دراسة نص أدبي يعج بالخيال الضروري الهادف، الذي لا يمكن معاملته من حيث صدقه او كذبه.

كما أن المسيحي يعتقد أن واقعة قيام المسيح من بين الأموات هي واقعة حدثت فعلاً. ولأن المسيحيين يعتقدون بذلك، فقد انبرى الملحدون الأوروبيون لدحض هذه الواقعة وغيرها من المعتقدات التي تُعتبر حقائق بالنسبة الى المسيحي كولادته من روح الله، وردوها الى الخيال. بينما ما من أحد انبرى لأفلاطون ناقداً لأسطورة الكهف مثلاً. لأن للأسطورة هنا وظيفة قصد منها افلاطون البحث عن المعرفة الحقة.

لماذا انبرى صادق لدحض اسطورة ظهور العذراء مثلا؟ وبيّن تناقضها مع العلم وطبيعة النور! لقد اشار ماركس في وقته الى أن المسيح انتصر لأن اسبارتاكوس انهزم ولم يشغل نفسه بولادة المسيح من روح الله. لأنه ينطلق أصلاً من الأرض، مما هو واقعي. وقد وصل البحث في الاسباب الدنيوية للدين الى مرحلة بات معها من غير الطائل أن نناقش معتقدات الناس، بل السؤال الأهم تبدى على الشكل التالي: لماذا تستمر هذه المعتقدات في الواقع؟ وصادق المشتغل بالفلسفة يعرف جيداً نقد ماركس لفيورباخ الذي حصر الاغتراب بالاغتراب الديني. كما يعرف ان نقد الكتاب المقدس ومعجزاته عند سبينوزا قد اظهر التناقضات في التوراة، ورغم ذلك ما زال حاضراً في الشرق وفي الغرب. ان صادق لا يريد ان يطرح الاسئلة الصعبة، وما زالت اسئلته من النوع الطريف الذي يمكن المرء ان يجيب عليها بسهولة.

المشكلة مع الوعي الديني ليس في اظهار تناقض المعتقد مع العلم والطبيعة، فجامعاتنا مليئة بأولئك الطلاب والاساتذة الذين يعرفون آخر منجزات علم الفيزياء والبيولوجيا والفلك والجيولوجيا، ومع ذلك فإن حضور الدين في وعيهم كبير الى حد انهم يوظفون العلم في التدليل على صحة المعتقد. لقد ساح صادق في الأرض. ومشى في الشوارع والأزقة ولبس شالاً أحمر، لكن أحداً لم يره، فساءه ذلك. فقرر أن يصعد الى السماء كي يصارعها. فامتطى سلماً درجاته من خيوط العنكبوت. وهناك في السماء شاهده الجميع بين مستنكر لصراعه الدونكيشوتي وبين معجب بترسه وسيفه الخشبي. عندها استراح واطمأن إلى انه وصل إلى غايته. لكن طيب الاقامة في السماء جعله يتخذ منها بيتاً، وما زال هناك مستعرضاً عضلاته، صارخاً: لا، العذراء لم تظهر على قبة الكنيسة. ويأتيه الجواب: لا العذراء ظهرت، وسنجعل من يوم ظهورها مناسبة. وهكذا يريد صادق أن يرى المعركة مستعرة بين من هو مسلح بالعلم والعقل وبين من هو مسلح بالايمان والمعتقد. وكل من لا يشترك بمعركته فهو انتهازي يريد الهدوء والسكينة ولا يدافع عن الحقيقة. اجل يريد للمعركة ان تكون بين الكواكبي والافغاني ومحمد عبده والشهيد صبحي الصالح والشهيد عباس الموسوي من جهة، وبين العقلانيين والتنويريين والعلمانيين من جهة اخرى. يقودهم شخص ما زالت اسئلة التلمذة في الجامعة هي اسئلته وهو على وشك دخول العقد السابع من عمره: استاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة في كلية الآدب في جامعة دمشق، واستاذ زائر ـ حالياً ـ في جامعة برنستون في الولايات المتحدة الامريكية وزميل مركز ويلسون في واشنطن. هكذا عرفته مجلة «الناقد».

انتهازية

الانتهازية يا صديقي هي في الابتعاد عن المشكلات الحقيقية، أو الدوران حولها كما يدور قط حول مرق ساخن كما يقول لينين.

الانتهازية تكمن في استبدال الحوار الضروري حول مستقبلنا الغامض بالهجوم على الناس ونعتهم بالجهل والأمية والتخلف. ألم يكن سهلاً على مهدي عامل، الشهيد، وسمير امين والعروي أن يقدموا خطاباً مباشراً للناس حول أوهام المعتقد الديني؟ ولكنهم لم يفعلوا. لماذا؟ ألأنهم انتهازيون؟ أم لأنهم تصدوا لمشكلات كبرى ذات علاقة لا بالحاضر فحسب، بل وبالمستقبل؟

كان الشهيد مهدي عامل (استشهد مهدي عامل لأنه ماركسي - شيوعي، وليس لانه تنويري ساذج) يسعى الى فض بنية المجتمع العربي عبر الكشف عن المستويات: الاجتماعية - السياسية - الايديولوجية. واستشغل العروي بمسائل الايديولوجيا العربية المعاصرة وارتباطها بالتطور التاريخي للمشرق العربي. وكرس سمير أمين كتابته لفض العلاقة القائمة بين المركز والاطراف، وتحديد المفاهيم الضرورية لدراسة تطور الشرق الاقتصادي منذ نشوء الدولة الاسلامية وحتى الآن. بينما صادق ما زال يسأل عن الاسم الحقيقي للرسول العربي وعلاقته بالوحي وبالشيطان وبالنساء. لا بوصفه باحثاً أو مؤرخاً بل منطلق من اطروحة هشة ألا وهي : أن هناك علاقة سببية بين الدين والتخلف. بين الإيمان والمكانة الراهنة للعرب في العالم.

الم يتساءل صادق: لماذا انتشرت الماركسية والشيوعية في أوساط عديدة من الوطن العربي، بل وفي مجتمعات فلاحية وهي ايديولوجيا في النهاية أرضية مائة بالمائة؟ أليس هذا ما حصل في العراق والسودان ولبنان وسوريا؟ ولماذا انتشرت الحركة القومية العربية التي روادها هم بالأصل علمانيون، واستطاعت أن تلف حولها جماهير واسعة. هل حال ايمانها، دون الانخراط في هذه الحركة السياسية، حركة القوميين العرب، حركة البعث، الحركة الناصرية، حركة القوميين السوريين؟ ولماذا لم تستطع الحركة الكمالية العلمانية التنويرية نزع الاسلام من المجتمع التركي الذي ما زال في أغلب قراه مجتمعاً تقليدياً مسلماً؟ ولماذا لم تستطع تونس بورقيبة ان تنجح في القضاء على العادات والتقاليد الاسلامية رغم كل ما بذله الحبيب بورقيبة من جهد؟ لا شك أن تفسير ذلك يحتاج الى جهد كبير، تاريخي سياسي اجتماعي اقتصادي ثقافي. بل سأقول لصادق اكثر من ذلك: نحن نعرف ان الاسلام لا يؤمن بالأخذ بالثأر إذ «ولا تزر وازرة وزر أخرى». ولكن جميع القبائل المسلمة في البلدان العربية الفلاحية والبدوية ما زالت تمارس هذه العادة التي عمرها الآن اكثر من الفي عام. كما أن هناك بلداناً اسلامية لا يُورث فيها الرجال المسلمون المرأة على الرغم من النص الصريح للآية القرآنية. وشرب الخمر عادة منتشرة في معظم بلدان الوطن العربي الاسلامية. وهي عادة قديمة لم يستطع الاسلام اقتلاعها. وممارسة الربا سادت في القرية السورية ردحاً طويلاً من الزمن، وما زالت موجودة بأشكال مختلفة على الرغم من تحريم الربا الصريح. هلّا قال لنا صادق لماذا الأمر على هذا النحو. لماذا يحتفظ المجتمع بعادات تعود الى العصر الجاهلي؟ هل نفهم الهبّة الدينية الاسلامية الآن بوصفها ثمرة الاسلام ذاته؟ أم ثمرة شروط داخلية واقعية وعالمية؟ لماذا هي الآن قوية؟ ولماذا كانت غائبة في الخمسينات من هذا القرن؟. هل نفهم نشوء الديكتاتوريات في الوطن العربي بوصفها ثمرة تخلف في الوعي وسيطرة الاساطير والخرافات. هل هناك اختلاف في الجوهر بين الدولة الشمولية الاسلامية والدولة الشمولية العلمانية؟ اين نجد الاجابة عن استمرار التبعية بأشكالها المختلفة في ايمان الناس؟ أبتدخل الشيطان في آية من القرآن؟ أم في مستوى التطور البطيء للمنطقة الذي لم يستطع حتى الآن احداث تنمية تحرره من السلعة الغربية؟ ولماذا انشئت الدول القطرية العربية واستمرت؟ كيف نفسر اجهاض التجربة الديموقراطية بعد الاستقلال؟

المقيم في السماء!

هذه الاسئلة وغيرها، الاسئلة المرتبطة بحياة الناس ومستقبلهم وخبزهم وكرامتهم، ليست في ساحة وعي صادق العظم. انه يهرب منها. لانها تفرض على الباحث علاقة جدية ومسؤولة. فنراه يلوذ بالتافه من المسائل وبعنتريات سخيفة لا تحمّله أية مسؤولية امام نفسه وأمام قارئه وامام مجتمعه. وهو إن مسها فإنه يمسها مساً رقيقاً، ويدور حولها كي لا يبتعد عن اقامته في السماء التي استراح لها وفيها. هذه هي الانتهازية الرخيصة. ان صادقاً في حقيقة الأمر لا يختلف عن المسلم المتشرد والمتعصب. فالمسلم المتعصب الذي لا يعيش زمانه، يعتقد ان كل مصائبنا ناتجة عن الابتعاد عن الايمان الحق. فيرد عليه صادق: لا، إن مشكلاتنا ناتجة عن هذا الايمان. المنطق واحد. ذاك يقول لا بد من العودة الى المنبع، وصادق يقول لا بد من تهديم المنبع. بنية عقلية واحدة. كلاهما خارج العصر. ويريد أن نُجر الى معركته الدونكيشوتية والا فنحن جبناء وجهلة.

مساواة مردودة

ولأن صادقاً يريد أن يُقنع الاخرين بجدوى ما يقوم به، فإنه يتخيل تاريخاً للمواجهة يبدأ من كتاب طه حسين في الأدب الجاهلي مروراً بكتاب علي عبد الرازق وانتهاء بكتابه «نقد الفكر الديني» وكتاب العلايلي «أين الخطأ: تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد»، الخ الخ. ما وجه التشابه بين هذه الكتب؟ هل هي الضجة التي اثارتها، أو المتاعب الدينية «التي تعرض لها هؤلاء المفكرون؟». اذن هذا التشابه الخارجي في ردات الفعل يزيل الاختلاف بين صادق وعلي عبد الرازق، أو بينه وبين طه حسين. اذ ذاك يغدو كتاب «نقد الفكر الديني». مساوياً لكتاب «الاسلام وأصول الحكم» أو لكتاب «في الأدب الجاهلي». مرة اخرى نحن امام منطق شكلي عاجز عن رؤية الاختلاف. اختلاف الظروف والموضوع والغاية. «في الأدب الجاهلي» لطه حسين كتاب هو استمرار لمنهج في التفكير ظل صاحبه أميناً له حتى آخر حياته. مدافعاً عن مشروع بدأه من كتابه عن ابي العلاء وابن خلدون مروراً بالأدب الجاهلي وانتهاءً بمستقبل الثقافة في مصر. ينطلق تفكير طه حسين من مستوى الأدب وأساسه الاجتماعي الى تصوره للدولة وعلاقتها بالمجتمع. كل ذلك يتوسطه رأي في الدين والعلم والابداع والديموقراطية واللغة. [٣] ومشروع طه حسين هو المعادل الفكري لتطور مصر نحو البرجوازية وما رافقها من صراعات طبقية وسياسية وايديولوجية - ثقافية. ان وراء هاجسه الثقافي، هاجس سياسي. فخيار العقلانية عند طه حسين هو خيار الدولة الديموقراطية حرية تعليم، تحديث الخ. ولهذا فإن طه حسين هو ابن الطبقة الجديدة الصاعدة في مصر، ابن أحزاب الأمة والوفد والأحرار الدستوريين. ابن الجامعة المصرية والمؤسسات الديموقراطية «البرلمان» والانفتاح على الغرب.



طه حسين وحرية الأدب

على مستوى رأيه الشعر الجاهلي، لم يأت طه حسين بجديد، فالعرب في القرن الثاني الهجري وبعد ذلك، شككوا في صحة كثير من القصائد الجاهلية. والراوية حمّاد نفسه قد اعترف بأنه يؤلف قصائد وينسبها الى هذا الشاعر أو ذاك. وأغلب المستشرقين دللوا على عدم صحة نسبة الشعر الجاهلي الى «شعرائه المعروفين: امرىء القيس والنابغة وعنترة وزهير بن ابي سلمى» ولكن الجديد في منهجه الذي تبناه هو: «الأدب بحاجة الى الحرية، وهو في حاجة أن لا يُعتبر علماً دينياً ولا وسيلة دينية، هو في حاجة إلى ان يتحرر من التقديس. هو في حاجة الى أن يكون كغيره من العلوم قادراً على أن يخضع للبحث والنقد والتخيل والشك والرفض والانكسار. لأن هذه الاشياء كلها هي الاشياء الخصبة حقاً.. فلتكن قاعدتنا اذن ان الادب ليس علماً من علوم الوسائل يُدرس لفهم القرآن وتذوق الحديث فقط. وانما يُدرس لنفسه ويُقصد به قبل كل شيء الى تذوق الجمال الفني فيما يُؤثر من كلام». [4] ان طه حسين يؤسس لكل قراءة بتحريرها من الجانب الديني.

ابليس والعذراء والناس؟

ويكفي المرء النظر الى تطور النقد الادبي وتاريخ الأدب ليكشف عن الأثر الذي مارسه طه حسين. والى جانب طه حسين كان احمد امين هو الآخر يقوم بقراءة جديدة للمذاهب الكلامية والتيارات الدينية الاسلامية. في «فجر الاسلام» و«ضحى الاسلام». وكان قبلها لطفي السيد ينظر نظرة جديدة الى الاجتماع الانساني والاخلاق والمرأة والحرية والاستقلال والدستور ودور الصحافة الخ. في كل ما فعل طه حسين كان معارضاً لمؤسسة سيطرت على ثقافة مصر ردحاً من الزمن هي الأزهر. فكان من الطبيعي ان ينظر الأزهر الى طه حسين نظرة الاتهام بكل اشكال الخروج عن السياق الاسلامي.

يعرض صادق العظم بسلمان رشدي دون أن يدري

فكيف يمكن مساواة «في الأدب الجاهلي» بـ «نقد الفكر الديني». وهي فقاعة لا ندري ماذا أراد منها صادق، في مرحلة وصل فيها البشر الى وعي مهم بعالمهم، وكان اليسار الاشتراكي الشيوعي والقومي الناصري قد وصل فيها الى حد لم يعد يفكر بقضايا من قبيل القضايا التي تصدى لها صادق: ابليس والعذراء؟

اما كتاب علي عبد الرازق، وهو الثمرة الأخيرة للاصلاح الديني، فان مكانته آتية من كونه صادراً عن رجل أزهري مسلم، دلل بالنص وبالحديث على أن الاسلام دين وليس دولة. وبالتالي فإن الدولة مدنية من جميع الوجوه. هذا ما بدأه محمد عبده دون أن يعلنه بصراحة: ان تحالف الملك والأزهر ضد عبد الرازق لم يكن عملياً الا ضد سحب البساط الديني من أية دولة. بهذا المعنى لا يمكن عزل مشروع طه حسين عن مشروع علي عبد الرازق: الدفاع عن دولة مدنية ديمقراطية. لم يكن علي عبد الرازق الوحيد الذي دعا إلى فصل الدين عن الدولة. فقبله اعلن فرح انطون صراحة هذا المبدأ. ولكن أن يأتي هذا الفصل من أزهري وفقيه، فهذا ما جعل كتاب علي عبد الرازق في مصاف الكتب التي تشكل مفصلاً اساسياً في تطور الفكر السياسي العربي. طرح عبد الرازق مشكلة كبرى في عصره، مشكلة الدولة، لكن النتيجة المترتبة على قوله ان الدولة الاسلامية لم تكن تستند الى أي اساس اسلامي بسبب ان لا وجود لنظرية في الدولة الاسلامية، فالدولة شأن مدني، مما جعل الدين شأناً فردياً، ومعتقداً شأنه شأن أي معتقد آخر لا سلطة له في الاسلام.

والحقيقة أننا في أواخر القرن العشرين، انما نسعى لمجتمع يقوم على ضمان الحرية للجميع دون استثناء، عندها لا يغدو هناك أي معنى لفرض نمط من التفكير على كل افراد المجتمع. ومجتمع كهذا قادر على نقل المواجهة الى قضية الحرية المدنية. فهل من الحكمة أن يساوي صادق بين كتابه «نقد الفكر الديني» وكتاب علي عبد الرازق «الاسلام وأصول الحكم» لا لسبب الا لأن كلا الكتابين اثارا ضجة؟ الأول أثار ضجة السلطة والأزهر. والثاني اثار ضجة العامة فوجدت السلطة اللبنانية نفسها مدعوة لمحاكمة صادق وتبرئته من تهمة اثارة النعرة الطائفية. ان الوطن العربي منذ مرحلة النهضة وحتى الآن شهد وما زال يشهد اشكالاً مختلفة من زوايا الرؤيا المتعلقة بطريق التقدم الاجتماعي. شهد ويشهد أشكالاً مختلفة من ردات الفعل، سواء من قبل السلطة او من قبل الجمهور. كما شهد ويشهد حورات ونقاشات هادئة وعنيفة.

سياف واحد؟

لقد نفى الانكليز محمد عبده الى خارج مصر بسبب آرائه. وهرب عدد من النهضويين الى مصر هرباً من عسف الدولة العثمانية. وحوكم طه حسين وعلي عبد الرازق من قبل الدولة. واعدم سيد قطب وقتل شهدي عطية وفرج الله الحلو بيد سيّاف واحد. واغتيل مهدي عامل وحسين مروّة وصبحي الصالح. وعاش غالب هلسا الشطر الأكبر من حياته خارج الأردن وعبد الرحمن منيف لا يعرف موطنه منذ اكثر من ربع قرن. ولكن لا أحد من هؤلاء الا وواجه سلطة، اما دولة أو شبه دولة في الوقت الذي يتمتعون فيه بمكانة خاصة في وسط البشر. لا لشيء الا لأنهم انما يدافعون عن قضية تجمّع البشر حولهم. بعيداً عن العنتريات الزائفة والاستعلاء الذي لا مبرر له والضجيج الذي يسمعه ولكنه يصم الآذان. واصطناع الخصوم الذي لا يعني سوى البحث عن الفرادة. اجل، المشكلة مع صادق في دفاعه عن سلمان رشدي ولا في هجومه على نقاده، فهذه مشكلة جد زائفة. المشكلة في تفكير صادق بالذات. فمن أهم اشكال النقد التي وجهت الى الماركسية السوفياتية ومن خلالها الى ماركس، تأكيدها على أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يفسر ما يعتري المجتمع من تطورات، كما يفسر اشكال الوعي المختلفة بالعالم. وأنها أي الماركسية، لم تأخذ العوامل الاخرى بعين الاعتبار. فإن أحداً الآن لا يفكر في المجتمع أو الفكر خارج تعقيدهما والعناصر المتشابكة التي تجعل منها بنى تحتاج الى فض هذا التشابك. فالمجتمع، أو التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية بلغة

ماركس، تحتوي على عدد كبير من العناصر التي تدخل في شبكة من العلاقات السببية المتبادلة، وبحيث لم يعد باستطاعتنا أن نهمل أياً منها لدى تفسيرنا لجملة التحولات أو الثوابت الموجودة داخلها.

الايمان والبرهان

فالدين بوصفه عنصراً في بنية الثقافة الشرقية عامل مؤثر، ومن العوامل التي تحكم تطور وتغير الوعي ولكنه في الوقت نفسه عرضة لتأثير كبير من عوامل أخرى عالمية وداخلية اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية. ليس هذا فحسب بل انه يدخل في نسيج الوعي الاجتماعي الذي بدوره يؤثر ويتأثر يغير ويتغير. وبالتالي لا معنى اطلاقاً لعزله وتحويله الى سبب جوهري يفسر لنا عالماً معقداً كالعالم الشرقي. هذا في الوقت الذي ليس باستطاعتنا أن نتحدث الآن عن الاسلام بالاطلاق وكأنه جسم متجانس. بل لا بد وأن نأخذ بعين الاعتبار اشكال تعينه سواء في الوعي او في الثقافة او في النظرة الى العالم. فالايمان يدخل كجزء لا يتجزأ من بنية أي دين: الاسلام - المسيحية - اليهودية - البوذية الخ. والايمان شعور، لا يستند الى أي شكل من اشكال البرهان المنطقي أو العلمي. ولهذا تشكل المعجزة جزءاً من الايمان. المعجزة بوصفها شيئاً خارقاً للطبيعة، أو ظاهرة مناقضة لقوانينها، يمكن دحضها علمياً بسهولة كبيرة. هذا الجانب من وعي الناس هو اكثر الجوانب مناعة في سيرورة التغير الاجتماعي وتغير الوعي ايضاً. وبالتالي فتغيره بطيء جداً. فملايين الأوروبيين ما زالوا يستمعون الى خطبة البابا بملء جوارحهم مثلاً. وما زالت مؤسسات الدين المسيحي قائمة، بل وما زالت التوماثية المعاصرة فلسفة تستقي من توما الاكويني - الفيلسوف الملائكي أهم منطلقاتها. ناهيك بالفلسفة الروحية الفرنسية والشخصانية والوجودية المؤمنة عند مارسيل وياسبرز. والايمان باليوم الآخر كرغبة في الخلود ما زال يشكل قناعة لدى الملايين في آسيا وأوروبا وأميركا اللاتينية.

تنوير أم بورجوازية؟

ان انتصار البرجوازية الأوروبية الحاسم لم يقض على المعتقد الديني، بل نقله الى مستوى فردي والغى سلطة الكنيسة التي اقتنعت في النهاية بالابتعاد عن السياسة وان كانت قادرة على التدخل باسم الكنيسة بهذا الشكل او ذاك في الصراعات السياسية. ولقد كتب لي صادق العظم رسالة وهو في براغ يقول لي فيها: أن فكرته حول التشابه بين الظاهرة الخمينية وظاهرة ليش فاليسا في بولونيا قد لاقت استحساناً هنا. فالكاثوليكية في بولونيا ما زالت تلعب دوراً مهماً في حياة الناس. على الرغم من أن الطالب البولوني يدرس منذ المرحلة الاعدادية او الثانوية مقرراً يدعى الإلحاد العلمي. وكان يوجد في الاتحاد السوفياتي قسم خاص في كلية الفلسفة يدعى قسم الإلحاد العلمي ومتاحف تدعى متاحف الدين والالحاد. وفي آخر استفتاء بثه التلفزيون الروسي حول اليوم الاخر تبين ان ٧٥٪ من المستفتين يعتقدون به. فالجهد الذي بذلته المدرسة والجامعة والمكتبة والصحافة والدعاية لم يستطع ان يقتلع من الناس معتقداتهم الدينية. وعندما تداعى كبار ضباط الاتحاد السوفياتي السابق للاجتماع للدفاع عن وحدة دول الاتحاد استدعوا رجل دين مسيحياً لما له من تأثير عن العامة. ونحن نعرف أن كارتر وبوش قد لعبا على وتر المسيحية. وبمعزل عن الطبيعة الدعائية فما زال الدولار الاميركي يحتوي على عبارة: In God We Trust غير أن الذي حدد مصير المسيحية في الغرب وحولها الى مجرد ايمان وطقوس ضعيفة التأثير على عالم القيم والسلوك، ليس هو مجرد جملة من الافكار التنويرية، بل الانتصار الحاسم للبرجوازية وتطور المجتمع المدني الذي لم تبتلعه الدولة، وسيادة الفردية في شروط الديموقراطية والقانون.

لقد ساعد العلم ولا شك على زعزعة النظرة الدينية والأسطورية القروسطية للعالم. ولكن العلم هو الآخر ما كان له أن يستقل بنفسه الا بعد صراع طويل ليس بينه وبين الأساطير فقط، بل بين الطبقة الصاعدة التي وجدت في العلم أهم وسائل إحكام السيطرة وبين الطبقة الاقطاعية المتحالفة مع الكنيسة. واذا عزلنا العلم عن جملة أشكال التطور الأوروبي، فإننا لا نفهم لا العلم وتطوره المستقل، ولا العلم من حيث دوره في تكوين نظرة جديدة الى العالم. فالعلم ظاهرة عالمية الآن والانسان في كل مكان يعيش منجزات العلم في الحياة. وكل يعرف ان هناك مجتمعات عربية تتعامل مع آخر منجزات علوم الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة والفلك الخ. والانسان العادي يتعامل يومياً مع الثورة التكنو - الكترونية. وكمبيوتر صخر دعايته منتشرة. ولكن لِمَ لم يقم العلم بتحطيم النظرة الايمانية - الدينية الى العالم في هذه المجتمعات؟ من يقل ان النظرة القديمة تحارب منجزات العلم، لا يُجِبْ على السؤال أبداً. فعلى الرغم من أن السعودي يذهب إلى الطبيب اذا مرض، فإن اعتماده على الله في الشفاء هو الاساس بالنسبة له. وهذا حال الكثرة من المسلمين. اذاً هو يعيش في عالمين بآنٍ واحدٍ، عالم العلم وعالم الايمان. لماذا؟



جهل بالمشكلة الحقيقية

إن صادقاً يريد أن يحرره من عالمه الثاني، لا بأس من ذلك ولكن هذه الرغبة تخفي خلفها جهلاً بسيرورة التطور الشامل للمجتمع. ان العلم لا يفعل الا بوصفه جزءاً من نظام اجتماعي وليس مجرد تلق لمنجزاته. وهنا بالذات تكمن ميكانيكية صادق فيما يتعلق بدور العلم في تحطيم النظرة التقليدية الى المجتمع والتاريخ والطبيعة والوعي. ففي مجتمع ما زال قائماً على الاتحاد القبلي، ونزعة جماعية مسيطرة على تفكيره، تتحول دولة الاتوقراطية الى كابح لعملية التطور الشامل للمجتمع، وأيديولوجيا تبرر كل اشكال الاضطهاد. أما الوقوف أمام اكتساب المجتمع شخصية مستقلة تجاه الدولة، وغياب طبقة صاعدة تتحول الى ذات تاريخية تأخذ على عاتقها تحطيم البنى القديمة واستمرار الانسان بتلقي آخر منجزات التقنية دون الاشتراك في صناعتها، فلن يحول العلم الى فاعل في تحطيم النظرة القديمة الى العالم. انه ولا شك سيخلق نخبة مثقفة في المجتمع تعيش اغتراباً داخله. ولكن النخبة المثقفة ليس باستطاعتها أن تُحدث تحولاً خارج مجتمع يتميز بدينامية. من أين تأتي هذه الدينامية؟ أنها لا تأتي من مجرد اختراق تشكيلة اجتماعية متطورة لتشكيلة اجتماعية اقل تطوراً كما يعتقد صادق بل من فئات صاعدة اجتماعية ترى في تقدمها تقدم المجتمع ككل. وفي مجتمع يعبر فيه البشر عن مصالحهم وطموحاتهم بأشكال مختلفة خفية وعلنية، من الطبيعي أن ينصب جهد المثقفين بشكل مباشر وغير مباشر في أحد هذه الاشكال، لكن

المثقف ليس باستطاعته أن يخلق على هواه مشكلات ويرفعها الى مستوى المشكلات الحقيقية. إذ عندها سيكون جهده بلا طائل.

تصورات فقيرة

يتوهم صادق أن القضية في الوطن العربي هي قضية صراع بين «العقل العلمي» «والعقل الغيبي». ان هذا التصور لهو إفقار شديد جداً لاشكال الصراع الحقيقية واخراج أوساطٍ واسعةٍ جداً من دائرة النضال من اجل أهداف أرضية. ان الاختراق الرأسمالي الغربي وبناه المعرفية للعالم الثالث هو نفسه مشكلة تحتاج الى تناول جدي. بسبب الاشكال المختلفة التي يتخذها هذا الاختراق لمجتمعات ليست في مستوى واحد من القابلية. وبسبب ردات الفعل المختلفة على هذا الاختراق.

فصادق يعرف جيداً ان بداية الاختراق الرأسمالي الغربي للمشرق العربي ومصر قد بدأ في مرحلة مبكرة جداً. وهو الذي كان وراء اصلاحات الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر. فقد دخل الغرب عن طريق التنمية الاقتصادية: السلطة، والقنصل، والإرسالية والدراسة في الغرب ثم السلاح. ولم تكن النهضة العربية ثمرة لهذا الاختراق والرغبة في أوربة المشرق ومصر، عبر خيار العلم والديموقراطية فحسب، فنشأة الاصلاح الديني والفكر القومي الليبرالي ـ الديموقراطي العلماني يعود الى جملة تطورات داخلية أفرزت فئات مختلفة الجذور، لم تعد ترى في حال الدولة العثمانية أي تحقيق لمصالحها التي رفعتها الى مستوى مصالح المجتمع[5].

ثم أخذ هذا الاختراق صورة الاستعمار المباشر. فأخذت العلاقة شكل المواجهة المباشرة. لكن هذه المرة مع غاز مسلح بالتقنية المميتة والاستغلال المباشر للثروة مع ما يستتبعه ذلك من قتل ونفي وسرقة الخ. فالاستعمار الذي قضى على التطور الطبيعي للنهضة خلق كل اشكال ردات الفعل التي نشهد استطالاتها الآن. لقد تحالفت النخب المتأوربة مع الثورات الفلاحية ذات الايديولوجيات الدينية والعقلية العشائرية. واذا كانت هذه النخب من ذوي الأصول الاقطاعية البرجوازية قد حددت خيارها الديموقراطي التمثيلي العربي، مع ما يرافق ذلك من حس تنوير عقلاني، غير أنها لم تستطع أبداً أن تحدد مصيرها اللاحق على هواها بعد الاستقلال، ولا مصير أوطانها في مصر والشام. لقد جاءت ردة الفعل هذه المرة من فئات خلقتها هي. فكان الهجوم عليها هجوماً على الغرب في الوقت نفسه. حتى خيار الديموقراطية التمثيلية الدستورية لم ينجح الا فترة قصيرة من الزمن. من هنا يجب ان لا نستغرب الحماسة الشديدة من قبل الناس، بمختلف فئاتهم الفلاحية والوسطى لإلغاء الدستور والتعددية الخ باسم الاشتراكية والوطن والفئات المسحوقة. فالانتقال من الديموقراطية الى الديكتاتورية لم يتم الا في إطار ايديولوجيا هي الأخرى علمانية. ولم يتم بدافع ديني اطلاقاً. وهو في احد اوجهه ردة فعل على الاختراق الرأسمالي الامبريالي للشرق. ان تحطيم المجتمع المدني واقتلاعه من قبل الدولة التي اخذت على عاتقها وحدها مستقبل الوطن، قد أفقدا المجتمع تنوعه الضروري الذي هو وحده القادر على خلق صراع ثقافي في مناخ الاعتراف المتبادل بالحق المدني. لقد ضاقت السبل بالناس فلم يجدوا مخرجاً سوى الاسلام بوصفه الجانب الذي لا تستطيع الدولة قهره كثقافة متجذرة في قلب المجتمع.

صورة كاريكاتورية

ان صادقاً لا يريد أن يرى التناقضات المعقدة الحاصلة الآن، الا بوصفها تناقضات بين العقل العلمي الذي انتصر في اوروبا ويخترق (بوصفه تشكيلة معرفية كما يقول) العقل الغيبي الاسطوري. لنأخذ مشكلة الدولة التسلطية في العالم. كيف يفسر صادق العظم ظهور الدولة النازية الديكتاتورية في المانيا التي بزّت جميع دول اوروبا بعلمها وعقلها العلمي؟ لماذا ظهرت الفاشية في ايطاليا؟ لماذا استمرت الديكتاتورية ردحاً طويلاً من الزمن في اسبانيا واليونان والبرتغال؟ أليست الدولة السوفياتية الشمولية دولة علم وعقل علمي، ودافع منظروها عن الحقيقة التاريخية، وكتبوا آلاف الكتب لدحض الاساطير الدينية والغيبية؟ لو دفعنا تحليل صادق الى نتائجه النهائية المنطقية لحصلنا على صورة جد كاريكاتورية لواقع الحال، الصراع الآن بين عقل علمي وعقل غيبي. اوروبا انتصر فيها العقل العلمي، والشرق لم يزل يرسف في اصفاد الاسطورة. هناك صراع وتناقض بين الغرب وبين الشرق العربي، اذاً الصراع بين نمطين من العقل، أي بين نمطين من الحضارة. اذ ان المسألة مسألة صراع أفكار. لقد غابت وقائع التاريخ عن هذا الذي استطاب الاقامة في السماء ولم يعد يرى في اشكال الصراع الفكري والايديولوجي في الشرق سوى مظهر وحيد لعملية اختراق ما يسميه «التشكيلة المعرفية العلمية الحديثة للتشكيلات المعرفية السابقة» كما يقول هو ايضاً، عندها يغدو كل أدب جديد وكل تفكير مناهض للتفكير الغيبي ثمرة لهذه العلاقة التي يتصورها صادق بين «تشكيلة معرفية علمية حديثة غربية»... «وتشكيلة معرفية سابقة عليها».

ولهذا يستنتج صادق ما يلي: «حين أمعن النظر في النتائج البعيدة المتضمنة في مواقف رشدي الادبية وانتقاداته السياسية وسخريته الاجتماعية ومعارضته الدينية استنتج ان العالم الاسلامي بحاجة اليوم الى حداثة العقل والعلم والتقدم والثورة بدلاً من اصالة الشرع والتراث والرجعة»، (تصفيق حاد جداً)، هذا اكتشاف لم يسبقه اليه احد. عفواً إنه استنتاج ارخميدسي. وجدها صادق. أرعد أبو عمرو وأرغى فأزبد. لقد كنا نياماً فأيقظنا الثائر صادق من سباتنا. ويبدو ان صادقاً معجب بماري انطوانيت التي تساءلت بدهشة: لماذا لا يأكلون البسكويت بدل الخبز الذي يطالبون به. واعتقد ان مرض الملاريا المنتشر الآن في الصومال وعدن هو بسبب الماء الملوث، وخطأهم الكبير أنهم لا يشربون البيرة بدل الماء. وهل تعرف عزيزي القارىء أن سوء التغذية سببه عدم تناول الطعام المتعدد الغني بالبروتينات والفيتامينات، واذا اردت أيها البنغلادشي والهندي والصومالي أن تقضي على سوء التغذية هذه، فما عليك الا تناول كمية كافية من اللحم وبيض السمك والدجاج وتأكل الفواكة المتنوعة وخاصة تلك المليئة بفيتامين الثورة والعقل العلمي والتقدم والتحديث. ولا شك أن كتاب التداوي بالأعشاب قد يفيد بعضهم كافراد. مع أن هناك الآن كتباً للتداوي بالثورة والتقدم والعلم والحداثة لذلك ننصح الجميع بقراءة كتاب صادق «سلمان رشدي وحقيقية الأدب»، ففيه اكتشاف كبير. إنه لا يحتوي على اي شيء من «تحديث العقل العربي» لحسن صعب، ولا على أي فكرة من أفكار ماركس وخالد بكداش، وفيه فائض من المعلومات تتفوق على معلومات انطون سعادة والأرسوزي، وما به حرف من «الميثاق» لعبد الناصر، أو «المنطلقات النظرية» للبعث. ويتفوق بما لا يقاس عن

كل اطروحات زكي نجيب محمود. واين منه كتاب «النزعات المادية» لحسين مروة! وهو تجاوز لكتاب «في التناقض» لمهدي عامل، وهو اغنى بكثير من كتاب «العرب والفكر التاريخي» لعبد الله العروي. وكل مؤلفات لينين المترجمة الى اللغة العربية تبدو هشة أمامه. ناهيك بأنه يتفوق بما لا يقاس على كتاب أدونيس «فاتحة لنهايات القرن» وكتاب الجابي «عربي يفكر» وكتاب سمير أمين «أزمة المجتمع العربي».

فتوحات علمية

لكن الابتهاج باكتشاف صادق العظم، الذي اعتراني، سرعان ما سبب لي هماً حول الطريقة المثلى للثورة التي يدعو اليها. لأنه في حقيقة الأمر تركنا حيارى دون معرفة بها. فهل يريدها على طريقة الثورة الفرنسية؟ أم على طريقة الثورة البلشفية؟ ام الصينية؟ ام الثورة على نمط غيفارا؟ أم على شاكلة الثورة الايرانية؟ أم إنه يريدنا أن نثور ثورة جوانية على طريقة عثمان أمين؟ أم على طريقة ثورة الفاتح؟ على أية حال نحن بانتظار الجواب. وحتى لا نظلم الدكتور العزيز يجب ان نشير الى أن الاكتشاف السابق وان كان هو الاكتشاف الأهم لكنه ليس الاكتشاف الوحيد في هذا الجزء من الكتاب الذي نشرته «الناقد» فهناك اكتشافات أخرى ليست قليلة الأهمية. من هذه الاكتشافات على سبيل المثال لا الحصر: ان هناك صنفاً أدبياً يسمى بالانكليزية «Fiction».

«ان قوى اليمين الجديد هي السائدة والحاكمة في بلدان مثل الولايات المتحدة وبريطانيا». «وان عبد المطلب اراد أن يسمي محمداً حين ولد بـ قثم على اسم ابنه الذي مات». غريب حقاً كيف استطاع ان يقدم لنا كل هذه الاكتشافات في جزء من كتابه؟ ماذا لو اطلعنا على الكتاب كله!

قصة مخترعة

ولا يحسبن المرء ان الدكتور صادق جلال العظم هو مكتشف فحسب، بل هو مخترع أيضاً. لا لم يخترع آلة لقياس التحولات في الضغط الدموي في جسم القارىء حين يطّلع على اكتشافاته، بل اخترع هذه المرة واقعة كاملة. واليكم الواقعة التي اخترعها صادق العظم فكتب يقول: «في ربيع عام ١٩٨٩ رجعت الى دمشق بعد زيارة علمية الى اوروبا واميركا لأجد عدداً من الزملاء (في الجامعة) والكتاب والمثقفين قد اصابهم الارتباك والتلعثم والاحراج عند الحديث عن رواية سلمان رشدي «الآيات الشيطانية» وعن الحكم العابر للقارات الذي أصدره آية الله الخميني بقتل المؤلف الشاب مقابل جوائز مالية سخية لا تدفع الا بالدولار. اصابتني الدهشة لاني كنت قد مشيت بصحبة هؤلاء الزملاء والمثقفين وراء نعش الدكتور حسين مروة الذي اغتالته رصاصات التعصب الديني والتزمت الطائفي في بيروت في ربيع ١٩٨٧. وبعدها بأسابيع معدودات مشيت برفقتهم أيضاً وبحزن أعمق، وراء نعش شهيد آخر للفكر التقدمي هو الدكتور مهدي عامل الذي قتلته رصاصات من النوع ذاته. في الجنازتين دافع هؤلاء الزملاء والاصحاب بحرارة بالغة عن حق الكاتب في الحياة وعن حقه الأولي في الكتابة الحرة كما تكلموا بايجابية عالية عن حقوق الانسان (العربي وغير العربي) واستنكروا بأقوى العبارات عمليات اغتيال المفكرين والمثقفين والكتاب العزل التي أخذت تمارسها قوى الاستبداد السياسي ونزعات الانغلاق الديني وحركات التعبئة الايديولوجية الظلامية ـ القروسطية وقيادات الشحن الطائفي المذهبي الضيق في العالم الاسلامي عموماً وفي عالمنا العربي تحديداً. وزادت دهشتي حين تذكرت ان الجماعة ذاتها من الزملاء الأصحاب كانت قد بكت (وبكيت معها) رسام الكاريكاتور الكبير ناجي العلي ونددت بقتله واشادت بإقدامه وكرمت ذكرى جرأته النقدية ومواقفه الشجاعة وريشته الساخرة. دفعتني هذه المفارقة الى أن اطرح على نفسي مراراً السؤال التالي: كيف يمكن لمن فعل ما فعلوا وقال ما قالوا في الدفاع عن الكاتب الاعزل وعن حريته وحقه في الحياة وجاد بما جادوا به وقتها من هجاء لعمليات (الغاء الآخر) واستنكار لقمع وقتل المفكرين والفنانين الخ أن يتلعثم ويتردد ويرتبك امام محض رواية وأمام مصير كاتب مهدد جهاراً نهاراً وفي أية لحظة بالتصفية الجسدية؟ الجواب مطلوب منهم وليس مني لأن شجاعتهم الادبية على أقل تعديل هي الموضوعة على المحك اليوم وليس شجاعة، أي كاتب او مثقف آخر» (ص ٧). يؤسفني حقاً ان اعرّف القارىء ان هذه الواقعة مجرد ـ اختلاق ليس الا.

تهم باطلة

اجل لقد عاد صادق في بداية صيف ١٩٨٩ بعد اجازة بلا راتب لمدة عام قضاها في اميركا وأوروبا. واستقبلناه بكل ود كصديق عزيز. لكنه عاد والضجة حول سلمان رشدي قد هدأت. عاد صادق وكان المثقفون الذين مشى معهم لتشييع شهداء الفكر وكتبوا عنهم، قد أصدروا بياناً في دمشق يدافعون فيه عن حق الكاتب سلمان رشدي في الحياة ومنددين بفتوى آية الله الخميني بقتله. وأدرج اسم صادق في عداد الموقعين على البيان دون ان يكون حاضراً في دمشق. وعندما أصدرت السفارة الايرانية في دمشق بياناً تستغرب فيه ان يصدر عن بعض الكتاب «زملاء وأصدقاء صادق العظم» بياناً من هذا القبيل.

اذن من ذا الذي التقى به صادق ورآه متلعثماً متردداً مرتبكاً أمام مصير كاتب مهدد بالقتل. أهو نايف بلوز أم طيب تيزيني أم احمد برقاوي؟ وهو يعرف حق المعرفة موقف هؤلاء المُعبر عنه شفاهياً وكتابياً. ولم ينتظروا قدوم صادق ليعبروا عن موقفهم بالنسبة الى حياة سلمان رشدي. من يعنيهم صادق بأصحابه: فيصل دراج أم عبد الرحمن منيف أم سعد الله ونوس أم حنا مينة؟ ترى هل يمكن ان تقع الشبهة على احدهم بأنه يتلعثم أمام حق الكاتب في الحياة؟ والقارىء العربي يعرف أقلامهم الشجاعة في كل الأحوال! هل شجاعة جمال باروت وعبد الرزاق عيد ووليد اخلاصي هي الموضوعة على المحك؟ واسماء كثيرة غائبة من ذاكرتي الآن. (جميع الاسماء التي ذكرت تواقيعها موجودة على البيان). هل كان صادق العظم بحاجة لاختراع قصته الأنفة الذكر كي يجد مبرراً للكتابة ام أنه يريد ان يوحي للقارىء بأنه الشجاع امام رهط من الجبناء؟

أليس في هذه الطريقة إساءة للزملاء والاصدقاء لا مبرر لها إطلاقاً والحقيقة اننا امام أحد احتمالين: اما ان صادقاً اخترع هذه القصة عن وعي، وفي هذه النقطة، فإن ضميره الاخلاقي والعلمي هو الموضوع على المحك. أو أنه توهم هذه الواقعة ثم تعامل معها على انها واقعة فعلية حقيقية. وعليه ان يختار اقل الاحتمالين سوءاً لشخصه الكريم. □

نقد هجائي ينال من الأشخاص لا الأفكار

(١) هادي العلوي، الرازي فيلسوفاً ـ عدن ١٩٨٤، ص ٢١.

(٢) انظر: ديوان أحمد عبد المعطي حجازي، بيروت، ط ٢، المقدمة بقلم رجاء النقاش.

(٣) انظر: أحمد برقاوي، طه حسين والعقلانية، دار عيال، دمشق، ١٩٩٠.

(٤) في الأدب الجاهلي، ص ٦ ـ ٦٠.

(٥) انظر كتابنا: محاولة في قراءة عصر النهضة، بيروت، ١٩٨٨.

الصحوة المتأخرة

السيرة الحزبية كما تبدو من المنفى



عاصم الجندي

■ ترددت طويلاً قبل الخوض في موضوع كتاب هاني الفكيكي الأخير «أوكار الهزيمة»(*)، ولكنني عزمت في النهاية على ان «اخوض غمار المعمعة» خصوصاً وان الكتاب يعالج مرحلة مرَّ عليها الآن، ثلاثون من الاعوام طويلة. ولأنك، اذا كنت على شيء من الثقة، بدربة قلمك، تكتشف ان ليس من موضوع إلا وتستطيع معالجته... والكتاب أعادني، والكلمة لوجه الحق، الى ذلك الزمن البعيد، الذي كنا فيه، وفي الحياة الحزبية خصوصاً، نخوض في كل الموضوعات، نناقش كل الطروحات، ويكون هناك، صراع في الفكر والرأي والموقف... لقد اعادني الى أريحية النضال الفكري، في تلك الأيام الذهبية، التي كان فيها للكلمة موقعها ووقعها. وكان القلم امضى من السيف!

انتسبت الى الحزب في السابع من نيسان ١٩٤٩. اي ان ترتيبي يأتي في الجيل الثاني للمنتسبين في ذياك التاريخ. ولكني، للحقيقة، ما كنت في يوم ذلك الحزبي الشديد الانضباط. كنت دائم القلق، وكان هذا ينعكس على حياتي برمتها. هذا القلق الذي لم يفارقني حتى اليوم، مع انني بلغت من العمر عتياً، والذي ارجو له، بعد ان قاربت الشيخوخة، ان يكون مبدعاً، فالقلق، حين يكون كذلك، يكون له دفئه وحرارته وعطاءاته.

يبدو انني دخلت الى معترك السياسة، من باب الأدب فاختلطت الأمور، وظللت، وربما حتى الساعة اديباً في مجال السياسة وسياسياً في مجال الأدب.

من قال اننا نستطيع الفصل بين السياسة والأدب هذا إذا كانت السياسة تعني الحياة، حياة الناس ومصيرهم وحياة الأوطان، واذا لم تكن، بمعناها المتخلف الذي شاع في بلادنا طويلاً، شطارات شطار ولعباً على الحبال وانتهازية... أو على لغة المعري: «...وفي زمن سياسته خساسة»...

وماذا اعطتني كل هذه السنين؟

اربعة واربعون عاماً، من التشرد والعذابات والرحيل عبر المنافي البعيدة، ثم الضنك والأوجاع والنوائب. ولكن المأساة، ان المرء، اذا كان مخلصاً لنفسه على الأقل، لا يستطيع ان يهرب من ماضيه. ان يهرب من نفسه.

بمعنى آخر، انني لم أكن في يوم قيادياً، ولم يكن يستهويني النضال من اجل الوصول الى المؤتمرات الحزبية. رغم انني تسنمت، من حين لآخر، بعض المراكز الاعلامية أو الأدبية. وهذا، ربما لا يخولني مناقشة القياديين في الصورة التي يقدمونها للماضي، الذي امسى بعيداً الآن، رغم قدمي العتيد.

وانا تحديداً، منذ ستة عشر عاماً، متوقف عن كل نشاط حزبي، وربما مستقيل من السياسة، إلا حين تقترب من مطارح الادب والفن، والنقد هو واحد من الفنون، في معتقدي على الأقل...

اذكر هنا حادثة، ربما لمجرد الطرافة. ففي العام ١٩٧٠، وكنت يومها في افريقيا، زارني شابان حزبيان بقصد التعارف. سألاني: منذ متى انتسبت للحزب.

وحين ذكرت تاريخ انتسابي الذي أسلفت، اخذا وضعاً رسمياً يوحي بالمهابة والتقدير. ثم سألاني: وما هو ارفع مركز حزبي شغلته؟

اجبت: مسؤول فرقتين في العام ١٩٥٢. وتبسما، انما بشبه استخفاف. وعادا الى جلسة هي اقرب الى التبسط ورفع الكلفة!....

هذه الحادثة، قد تلخص اهميتي الحزبية في الماضي البعيد...

(*) أوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي - هاني الفكيكي - رياض الريس للكتب والنشر - لندن ١٩٩٣.



ومع ذلك، فان كتاب الفكيكي، سامحه الله، دفع بي شبه مرغم، الى قراءته، شدني اليه، وأثار شهيتي للنقد والحوار والمناقشة. وقد عزمت على ذلك، وانا أقول: «على نفسها جنت براقش»... ولن اتم المثل، فالعارفون بالأمثال، يدركون السبب في ذلك...

هل كنت قد تعرفت الى المؤلف سابقاً، هل التقيت به، وهل كان بيننا من أواصر، خارج الحزب أو داخله؟...

اجل، كان ثمة لقاء بعيد لجلسة وحيدة، ولكنها كانت غنية وحميم..

فحين غادر العراق، ولجأ الى لبنان، سكن لفترة قصيرة كما اذكر في قرية «قبيع» في الجبل، قرب بحمدون. يومها، مرّ بي الصديق رياض رعد ليلاً وحملني معه الى قبيع للقائه، واذكر ان محسن الشيخ راضي كان معه، وكان هناك ثالث، اظنه حمدي عبد المجيد. (الصديق رعد يستطيع ان يتذكر اكثر مني الآن وهو يستطيع ان يصوب كل خطأ في هذه الذكريات البعيدة اذا احب ذلك).

كان المؤلف ورفاقه، في تلك المرحلة، يمثلون ما نستطيع تسميته بدايات اليسار في الحزب. واظن انهم كانوا يطرحون في حينه، فكرة تنظيم جديد، وان يدخلوا الى تسميته كلمة اليساري أو الديموقراطي.

يومها كما اذكر، امتد النقاش طويلاً، وكنت أصر حينها، على وحدة الحزب. وعلى ان يكون التغيير، فكرياً وتنظيمياً، من داخل الحزب.

اريد ان اتذكر حكاية قديمة.

في العام ١٩٥٢ كنا نتظاهر في حمص، وكان على رأس المظاهرة، حزبي قديم اسمه عبد الاله بريجاوي (اذا لم اكن مخطئاً). وكان يهتف بشعار بريء يقول فيه: «كذب الدعي بما ادعى، البعث لن يتصدعا..». وكنا نردد من ورائه محمومين بحماسة الشباب الأول.

صورته ما تزال ماثلة امامي الآن. ترى اين هو؟. هل ما يزال على قيد الحياة؟ واين حملته دروب العمر والحدثان؟

انها مجرد ذكرى تبدو لي حزينة وعابرة الآن!!..

لنعد الى كتاب الفكيكي.

بادىء ذي بدء. اسلوب الكتاب شيق، وفيه نفس قصصي فاجأني. ترى لو لم يخض المؤلف معترك السياسة، بالعنف الذي خاضه فيه، وبالبعد الذي يخوضه الآن، أما كان لنا منه اديب مهم. كثيرون هم البعثيون القدماء الذين خسرناهم أدبياً وفي احيان كثيرة، لم نكسبهم حزبياً وسياسياً، وأول هؤلاء هو ميشيل عفلق. الذي كما اذكر، ربح جائزة القصة في بداية الأربعينات بالمشاركة مع عبد السلام العجيلي وشاكر مصطفى. وكنا نردد مقاطع من قصيدة له اسمها «العاصفة». وهي من الشعر الجيد والجميل. أما كان خيراً له ولنا وأبقى، لو ظل في مجال الأدب، ولم يحمّلنا كل هذا العنت؟!..

انني اتحدث، ودائماً من الذاكرة، لهذا يستطيع كل من هم اطيب ذاكرة مني، من الجيل «العتيق» تصحيح كل ما يرد في مقالتي، ولن يشكل ذلك اي إحراج لي.

ثمة ملاحظة لا بد منها. وهي ان الكتاب، من بدايته وحتى نهايته، يحمل هجوماً صاعقاً على ميشيل عفلق، وفي احيان كثيرة، بكثير من الجور. ترى، كم تعب أولئك «الشباب» مع الاستاذ ميشيل تلك الأيام، حتى يستطيع الواحد منهم، وبعد مرور ثلاثين عاماً من الزمن، الا ينسى قهره؟!

على صعيد شخصي، لم احب يوماً الاستاذ ميشيل. ولقاءاتي به كانت محدودة. وحين التقيته، في بداية الستينات في مقهى «الشي بول» في الروشة كنت متوتراً وحاداً، حتى اضطر أخي انعام الى قمعي بلطف، والتدخل اكثر من مرة لتغيير مجرى الحديث.

كذلك الاستاذ صلاح البيطار لم ألقه شخصياً، إلا في بيروت، في العام ١٩٧٥، وفي مقهى «الدولتشي فيتا» في الروشة ايضاً. وكانت لقاءاتنا حافلة بالعتاب حول اخطاء الماضي. ولكنه زودني بمعلومات قيمة، عن فترة ١٩٤٨ وذهاب كتيبة الحزب الى فلسطين مع جماعة الحزب العربي الاشتراكي. مازلت احتفظ بها حتى الآن، قد تكون مشروعاً لكتاب وثائقي، حين تنضج الظروف لذلك.

ثمة خطآن لميشيل عفلق اوردهما المؤلف لا احد يستطيع تبرئة ساحته منهما.

أولهما: اعتذاره لحسني الزعيم إبّان سجنه، بحجة الحرص على حياة الرفاق، وعدم تعريضهم لانتقام الزعيم. وهو تبرير غير حقيقي، وقد حاولت القيادة فرضه على القواعد بالف وسيلة ووسيلة، واذكر انني كنت من الرافضين له، المشاكسين، في الهجوم عليه.

اما الثاني، فهو حله للحزب مع بداية الوحدة.

وفيما عدا ذلك، بدا المؤلف كثير التحامل على الرجل، وقد اصبح الآن في «دار الحق»...

مما لا شك فيه، وكما اسلفت، انني لست المهيأ للخوض في تفاصيل الاجتماعات والمعارك التي كانت دائرة في الاوساط القيادية للحزب تلك الأيام. خصوصاً وان المؤلف، كان في يوم عضواً في مجلس قيادة الثورة في القطر العراقي وفي القيادة القطرية. وهذا يعني، انه عايش الأمور عن قرب، وشارك فيها بشكل مباشر وفاعل. ولا بد ان يتولى قراءة هذا الجانب والمناقشة فيه، شخص في مثل هذه السوية الحزبية. وآمل ممن عايشوا تلك الفترة، ومن هذا المستوى، ان يدلوا بدلائهم.

ولكن ثمة ملاحظات، لا بد من التوقف عندها في الكتاب. فالكاتب الذي يكون منصرفاً الى معالجة الوقائع، ملاحقاً لأدق الأمور والتفاصيل، نجده، فجأة يقوم بتجاوز بعض المفاصل الاساسية، وادوار بعض القياديين في ما يشبه العمد والقصد. فنتساءل لماذا؟

فهو يصور لنا مثلاً، ان سبب انقلاب عارف، كان نتيجة للصراع بين الحزب والعسكر. ونحن نعرف، انه إلى جانب هذا السبب، المباشر، كان ثمة سبب بدا غير مباشر، وان كان أساسياً، وهو ضرب الوحدة التي كان مزمعاً قيامها، بين سورية والعراق، أو على أساس ثلاثي مع مصر ايضاً. وقد كانت هناك مباحثات وحدوية شاقة وطويلة. ولكن المؤلف، لسبب لا نعرفه حتى الآن، مرّ بها مرور الكرام، ولم يركز عليها اطلاقاً.

نحن نعرف، ان الدول الكبرى، بشرقها وغربها، لا تقبل بقيام وحدة بين اجزاء الوطن العربي المتناثرة، لأن ذلك يشكل تهديداً لمصالحها. فان قامت الوحدة بين قطرين، متباعدين جغرافياً، كسورية ومصر، سارعت على الفور الى ضربها وتفتيتها. إلا ان ثمة ممنوعات أو ثوابت في المنطقة. تواضعت عليها الدول الكبرى. كالحديث عن ازالة وجود اسرائيل مثلاً (والذي لم يعد هناك من يتحدث عنه الآن) أو الحديث عن وحدة بين سورية والعراق

بعثيون قدماء خسرهم الأدب ولم تكسبهم السياسة

تحديداً. فما أن تلوح تباشير مثل هـذه الوحـدة، حتى يحدث في هـذا القطر أو ذاك، ما يحول دون تحقيقها.

اذن، السبب الاساس، هو الحؤول دون قيام وحدة بـين قطرين عـربيين. وكـان انقلاب عـارف، انقلابـاً على تلك الـوحـدة. واما الصراع بـين الحزب والعسكـر، فهو السبب الثـانوي، الـذي غلّبـه المؤلف على السبب الرئيس...

فـالمؤلف مثلاً، وبشيء من الاصرار، لم يشـأ التـطرق الى حـادثـة محاولة اغتيال قاسم. مع انها حادثـة ـ على كـرهنا لـلاغتيال الفـردي وشجبنـا له ـ كـان لها اثـر بعيد في كـل مسار الاحـداث فيها بعـد، خصـوصاً وانـه تم بموافقـة فؤاد الركـابي امين عـام الحزب في القـطر العراقي في حينه. فلم يا ترى لم يشأ الخوض في ذلـك، ولم يشأ ذكـر الذين حاولوا القيام بها، وبالاسم؟..

سؤال نتركه معلقاً، لعل في جعبة الكاتب جواباً له...

مـا يدفـع الى القهر والسخط وربمـا الضجـر أحيـانـاً، ان معـظم السيـاسيين، في الـوطن العربي قـاطبة، الـذين يكـون لهم مـوقـع في الحكم وحظوة ، ما ان يغـادروا الى المنفى، حتى يبدأوا بـالبكاء عـلى الديموقراطية والتفجع على الحريات، وايجاد اعذار لانفسهم في كل ما كان يحصل إبان المرحلة التي كانوا يتربعون فيهـا سعداء عـلى كراسي السلطة. لماذا صحوة الضمير هذه لا تجيئنا إلا في المنفى؟!...

يبكي الحاكم العربي الحرية والديموقراطية عندما يصبح خارج السلطة

مرة قرأت لأحدهم مجموعة شعرية جديدة، كلها حزن وفيها رثـاء للحريات وتفجـع على الـديموقـراطية ومـا يشبه البكـاء والنواح عـلى مـرحلة يعتبرهـا ذهبية. وحين فاجـأته بكلمـة مكتـوبـة، ثم بحـوار مبـاشر، وكنت في قبرص يـومـذاك، اسقط في يـده، ولم يجـد سـوى تبريرات باهتة. لأن تلك «المرحلة الذهبية» كانت نمـوذجاً يحتـذى في القمع والضغط على الحريات والغاء الديموقراطية...

ومرة جمعتني جلسة، مع احد المسؤولين السابقين، وكان قد تقلب في جميع مراكز السلطة اللهم إلا الرئاسة الأولى. فأسهب في الحديث ـ وهو محدث بـارع ولا ريب ـ عن الحريـات والديمـوقراطيـة وحريـة الفكر. ولم استطع صبراً. وفاجأته بالتساؤل التالي:

ـ وعلى ايامكم، هل كانت الدنيا تنعم بسمن الحرية وعسلها؟ الم يكن هناك سجون وتعذيب وزنازين؟..

وفـوجىء المسؤول السابق ايضـاً بالسؤال. وحـين حـاول تقـديم التبريرات المعتادة، وجد انني عنيـد وغير مستعـد للمساومـة فاجـاب بكثير ن الانكسار: معك حق. وتوقف عن «الكلام المباح»...

الاستاذ الفكيكي. بعد ان مرَّ على حديث ما فعله الشيوعيون أيام قاسم في الموصل وكركوك وبغداد وسواها من المدن العراقية. جاء الى حـديث « التجاوزات » فـلام نفـسه، في «صحـوة ضمـير» تصـورهـا تعفيه من المسؤولية، ان لم يكن كلياً، فجزئياً على اقل تقدير. وكانت تـبريراتـه، للأسف، بـاهتة (وليعـذرني عـلى التعبـير)، لا تقـدم ولا تؤخر، في مسؤوليته الكاملة، الى جانب الآخرين.

فحـين ترتكب كـل تلك التجاوزات وهـو في مجلس قيـادة الثـورة وعضو نافذ في القيادة القطرية، ويستمر في الحكم، فهذا يعني، انه، شـاء أم أبى، ضـالـع في الأمر ويتحمـل المسؤولية كـاملة ولو مـرّ دهر مديد على ذلك.

ويبـدو ان كلاً من الشيـوعيين والبعثيين في العـراق، لم يقصر في حق الآخر، سجناً وتعذيباً وسحلاً واعداماً على أعمـدة الكهربـاء في السنوات ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣. فلماذا كل ذلك العنف؟ ولماذا حين تلتقي شيـوعيين وبعثيين، من ذلك الـزمـان، في بعيـد منـافيهم، تجـدهم يتباكون عـلى الحريـة، وكل يحـاول تبريـر نفسه؟ تـرى من منهم كان الأفضل؟ كي لا نقول الأسوأ، في مجريات تلك المرحلة واحداثها؟

جاء في الصفحتين ٢٥٨ و ٢٥٩ ما يلي:

«كنا نتردد عـلى مراكـز اعتقال الشيـوعيين، وعـلى «قصر النهايـة» ومركز التحقيق الرئيسي، وكنا نعلم ان هذه الاعترافـات لم تكن فقط بسبب تعـاون هادي هـاشم وغيره معنـا، بل ايضـاً بسبب التعـذيب الذي كان يمـارس على المعتقلين. وبـرغم ان القيادة القـطرية لم تعط أمـراً بالتعـذيب (!)، إلا انها لم تعترض عليـه ولم تشجبه إلا في فـترة متأخرة.... وبعد ان تصاعدت الحملة محلياً وعربياً ودوليـاً ضدنـا. كان التعذيب يجري باكثر اشكاله بدائيـة وثأريـة، وفي بعض الأحيان لم يكن بقصد انتزاع مزيد من المعلومات، بقدر ما كان تكـراراً ثأريـاً للتعذيب الذي تعرضت له القوى القومية في ١٩٥٩.

وفي ذاك التعـذيب كانـوا يستخدمـون العصي والانابيب المـطاطية والتهديد بالقتل من طريق عصب عيني المتهم واخراجـه الى الساحـة لتنفيـذ حكم الاعـدام، ثم يـطلقـون في الهـواء بضعـة عيـارات نـارية.... وقـد سمعت قصصـاً (!) عن التعليق بـالمراوح السقفيـة وغـيرها من الأسـاليب التي ربما استخـدمت ولم نكن على بينـة منهـا، خاصة ان اعضـاء القيادة القـطرية، من دون استثنـاء، لم يمارسـوا أو يشاركوا في اي تعذيب».

كم هو عظيم هذا التبريـر الأخير! كـان لا ينقص إلا ان يمارسـوا التعذيب بأيديهم...

وجاء في الصفحة ٢٦٣ :

«ولكن قيادة الحزب في العراق، لم تكن قادرة عـلى بسط سيطرتهـا وسلطتهـا، وحـاولت ايقـاف مـوجـة العنف من غـير جـدوى. ومن الـواجب الاقـرار هنـا، ان القيـادة لم تشجب تلك الاستبـاحـات ولم تـدنها، علناً ورسميـاً، وكانت تحـاول التخفيف منهـا، أو اخفـاءهـا احياناً».

فهل يشفع هذا «التقريع» للنفس، للتخفيف من فداحة الذنب؟

في السياق نفسه، يقول الكاتب في الصفحة ٢٧٦ :

«وبرغم عدم مشـاركتي في تعذيب اي من المتهمـين أو المعتقلين، لا اذكـر انني استنكـرت التعـذيب أو ادنتـه (!) وكنت كغـيري من ثوريي ذلك الـزمان، أرى ان حمـاية الثـورة والحزب فـوق اي اعتبار آخـر. وان اذلال الخصم وابادتـه همـا من صميم العقيـدة واسـاليب الحزم الثوري»..

هل نشكر المؤلف على هذه الاعترافات؟ فاذا كان الأمـر كذلـك، فلماذا نلوم الآخرين اذن، وهم تلامذة نجباء للمـدرسة التي جـذرتم اصولها، ورسختم اساليبها منذ اكثر من ثلاثين عاماً.

أما الطريف فهو انه بعـد ان يعدد اسـماء مجموعـات من المعتقلين يعقب قائلاً:

«كنت ازودهم بـالسجائـر والأدويـة ومـا يـطلبـونـه كلما زرتهم في معتقل قصر النهاية»...

هذه سابقة لا بد وان يسجلها له التاريخ. ففي الوقت الذي كان المعتقلون يكتـوون بنار اساليب التعذيب التي ذكـر عينـات منهـا ولم يذكرها جميعاً، وفي الوقت الذي كـان يحتـل فيـه اعلى مـراكز السـلطة والقـرار، كان «يمنّ» عليهم بـالسجائـر وحتى ببعض الدواء لمعـالجـة

جراحهم. فتصوروا، كيف يذكر ذلك بشيء من الإدلال وما يشبه المباهاة التي ذكرتنا بالمثل السائر:

«كذباح الطيور له عليها
بكاء وهو يذبحها بحد». . .

الجريمة هي جريمة. فلماذا لا يكون لنا صدق الثوريين على الأقل، والاعتراف، دونما تبريرات باهتة، باننا شاركنا فيها، ونتحمل مسؤوليتها كاملة، ونترك للتاريخ ادانتها أو ادانتنا. وانه لايحق لنا إطلاقاً، والحال كذلك، ان نندب الحرية ونتأوه على الديموقراطية ونشكو من القمع والتعذيب.

ارجو الا يكون، فيما قدمت من «لوم» لصاحب «اوكار الهزيمة» ولكل من يتحمل مسؤولية، ولو يسيرة، في السكوت على القمع أو الترويج له، اية اساءة على صعيد شخصي، انه موقف، وانه لمبدأ، علينا ان نواجه به انفسنا والآخرين، دون مداراة او خجل أو حساب لما تتطلبه اللياقات. ونحن كعرب، ان لم ننتصر على القمع، المشرش في ذواتنا، وان لم ننتصر على الزنزانة فينا، لن تقوم بعد، لنا قائمة. وطالما ان الزنازين والسجون في الوطن العربي، ماتزال اكثر من المدارس والمستشفيات ورياض الأطفال، فلن نستطيع شيئاً، لن نحقق شيئاً ذا بال لشعوبنا.

الديموقراطية والحرية لا خلاف عليها، وكل محاولات تفسيرهما وايجاد صيغ وبدائل لمفهوميها الشائعين منذ ايام سقراط وحتى الساعة، هي نوع من التحايل والكذب لتبرير الجور. . . فلا ديموقراطية غربية، وأخرى شرقية. والحرية، تحديداً حرية الفكر، هي واحدة عبر التاريخ. فاذا كانت محاولة التفسيرات والتأويلات، تؤدي الى ان تقول كلمتك دون خوف على المصير، ودون ان تواجه الكلمة بالرصاصة، فأهلاً بها. والا كان كل حديث عن حرية مخصوصة وديموقراطية مخصوصة، مؤامرة مكشوفة لاغتيالها.

ومن دون ديموقراطية وحرية، في المطلق، لن يكون هناك وحدة عربية، ولن يكون تحرير لوطن محتل. . . وسنظل راسفين في اغلال تخلفنا الى ما شاء الله، سنظل عالماً ثالثاً، أو عاشراً، ولن تقوم بعد، لنا قائمة. . .

اكثر ما يحرجني هذه الأيام، برغم توقفي عملياً، وتحديداً منذ ستة عشر عاماً، عن اي نشاط حزبي أو سياسي، وبرغم اعلاني الأكثر علانية، عن «تقاعدي» عن مهمة «المناضل السابق» بعد ان بلغت الستين، فإن اكثر ما يحرجني، هو حين يوجه الي احدهم السؤال التالي:

ـ هل ما زلت بعثياً، ام لا؟. . .

وبين قولتي لا ونعم، تغيم بي الدنيا، واحار في رد الجواب. . . من يدري؟ لعلي لو سمعت بدعوة جديدة لعودة كل الحزبيين القدماء، وفتح صفحة جديدة من الحوار الفكري الحقيقي، لربما تحاملت على عكاز الستين، وذهبت لملاقاة الداعين الى مثل ذلك. لكن، الم يفت الوقت على مثل هذا الحديث، وهذا الحلم، وتلكم الآمال؟!. . .

وحين انظر الى الوراء، الى اربعة واربعين عاماً، اهرقتها على دروب العذابات والمنافي، هل يستطيع كل ما في العالم من أسى واحساس بالفجيعة، ان يعوضني عن كل تلك السنين. . . واي تعويض سيكون، بعد ان بلغنا ارذل العمر. . . وربما، على كل الأصعدة!!□

الشرق من «التنظيمات» الى «النهضة» الى «الاصلاح» الى :

عصر القوة

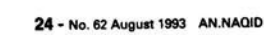
الدولة كممثل للحداثة والغرب

خالد زيادة



■ نحتاج الى جهد طويل وشاق لكي نثبت أن النهضة العربية الأولى في أواسط القرن التاسع عشر، قد تمت دون أي دور للغرب في انبثاقها. ولكننا نحتاج الى جهد أدنى لنشق طريق تحليل مغاير لما نجده عادة في أبحاث الدارسين، نصل بنتيجته الى القول بأن التغيرات التي كانت تعتمل داخل العالم الإسلامي، والعربي خاصة، قد استدعت استخداماً للعامل الأوروبي الذي كان يتلخص في لحظات محددة، بالنسبة للنخب الحاكمة، بالخبرة والتقنية والعلم والتنظيم.

ينبغي أن نضع واقعة احتلال بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ بين مزدوجين، وأن نعيد قراءتها، لأننا لا نستطيع أن نعتبر سلسلة الأحداث التي شهدتها مصر والمشرق العربي خلال القرن التاسع عشر، انما تبتدىء مع نزول الجنود الفرنسيين في أبي قير مع ما



يحملونه من مدافع وخرائط وكتب. يمكن لنا أن ننظر الى احتلال مصر من جانب بونابرت، والذي استمر لمدة ثلاث سنوات كحادث عرضي لم يترك عواقب. لأن سلسلة الأحداث التي وقعت لاحقاً كدخول الإنكليز ثم عودة السلطة العثمانية، والصراعات بين السلطة بين المماليك والعثمانيين، وتسمية محمد علي والياً على مصر، نجد مبرراتها وأصولها في سياق يبتدىء قبل وصول الفرنسيين بوقت غير قصير. ثم ان اندفاع محمد علي باشا في بناء الجيش واقامة المصانع وتشييد الجسور واتخاذ مجموعة من الاصلاحات في الإدارة والمالية والتعليم يمكن ان تُدرج في أفق أوسع. ويمكننا بعد استعراض المشهد الذي يضم الدولة العثمانية ومصر ان نميل الى القول بأن التطورات التي كانت تحدث في مصر تجد تفسيراتها أيضاً في الوقائع التي كانت استامبول مسرحاً لها في عهدي سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٧٩)، أكثر مما هي ترجيع للحملة الفرنسية.

تمنحنا التجربة العثمانية إمكانية لقراءة مختلفة، ففي الوقت الذي كانت مصر تشهد دخول الفرنسيين وخروجهم وعودة السلطة العثمانية ثم تسلم محمد علي لحكم مصر، كانت الدولة العثمانية في عهد سليم الثالث تشهد تجربة اصلاحية بارزة في الميدانين العسكري (النظام الجديد)، والمالي (ايراد جديد). ولا بد أن نذكر أيضاً بأن محمد علي قد جاء الى مصر اثر الحملة الفرنسية، بعد أن أرسله السلطان سليم الثالث على رأس فرقة عسكرية من جنود النظام الجديد التي شكلت في اطار الإصلاح العسكري.

ولكن تجربة سليم الثالث هي أيضاً نتيجة لسلسلة من محاولات الإصلاح على امتداد القرن الثامن عشر. بل ان الميول الى اصلاح الإدارة قد برزت منذ النصف الأول للقرن السابع عشر مع كتاب يعملون في خدمة السلاطين. واذ حدثت هزيمة عسكرية خسرت بسببها الدولة العثمانية أراضي شاسعة عام ١٦٩٩، فان السلطان الذي صعد الى العرش عام ١٧٠٣، أبدى محاولات لتحقيق بعض الإصلاحات، من أبرزها افتتاح مدرسة للمدفعية وإقامة أول مطبعة عام ١٧٢٨. وقد أوفد السلطان سفيراً الى فرنسا عام ١٧٢٠، ليكتب له تقريراً عن أحوال فرنسا، فوصف السفير في تقريره أحوال العمران والتنظيم العسكري ووصف القصور والمنشآت والمانيفكتورات. لقد وجد المؤرخون ربطاً بين هزيمة عام ١٦٩٩ وبين ايفاد السلطان أحمد الثالث للسفير محمد جلبي أفندي الى باريس، لأن الهزيمة أمام جيوش أوروبية دفعت السلطان الى محاولة التعرف الى أسباب قوة الدول الأوروبية، ربما يكون هذا الربط صحيحاً، ولكن التفسير التاريخي للوقائع يُهمل عناصر هامة نحن نرتب الأمور على النحو المذكور، ويُغفل ما كان يجري في عاصمة الدولة العثمانية، الأمر الذي نحتاج الى اعادة قراءته بسرعة هنا: من هو المسؤول عن الهزيمة، السلطان أم الانكشارية أم الأوروبيون أنفسهم؟ يضع السلطان اللوم على قواته العسكرية أي الانكشارية، وتقدم الهزيمة أمام جيوش أوروبية حجة للسلطان في صراعه الداخلي مع خصومه. فمنذ أن أقدم الانكشارية على قتل السلطان عثمان الثاني عام ١٦٢٢، أصبح واضحاً مقدار الضغط الذي تمارسه هذه القوات على السلطان، وبرز بذلك الصراع على النفوذ بين الطرفين.

حين أخذ السلطان أحمد الثالث باستدعاء الخبرة الأوروبية، كان بذلك يُدخل العامل الأوروبي في الصراعات الداخلية. فتحديث القوات العسكرية يهدف الى اخضاع العسكرية العثمانية لسلطة السلطان المباشرة والأجهزة العاملة في خدمته، الأمر الذي كان يرفضه آغوات (قادة) الانكشارية. من هنا ظهر السلاطين العثمانيون خلال القرن الثامن عشر بمظهر المصلحين والمحدثين، بينما ظهرت قوات الانكشارية بمظهر الفريق المحافظ، الذي يجد مؤازرة من جانب المؤسسة الدينية التي تضم العلماء والتي أظهرت الحذر ازاء كل اصلاح يطال مؤسسات التعليم.

أوفد السلطان أحمد الثالث السفير محمد جلبي أفندي الى باريس عام ١٧٢٠، ويعكس النص الذي كتبه (سفارة نامه فرنسا)، نزعة اكتشاف لهذا العالم شبه المجهول بالنسبة للمسلمين، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بالتقنيات والعلوم المستخدمة في العمارة أو الصناعة أو نظام الجيش وأسلحته. عدا عن ذلك فان محمد أفندي يلخص الموقف فيقول: «ان الفرنسي باختصار هو تركي يقف على رأسه»، يريد التعبير عن كون التناقض بين التركي والفرنسي يشمل كل المظاهر. ان اختلافاً في العادات والأفكار يصيب جميع النواحي، فنحن اذاً أمام عالمين متناقضين لا يلتقيان.

ان النص الذي كتبه الطهطاوي بعد أكثر من مئة عام، اثر عودته من بعثته الى باريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١)، هو اعادة اكتشاف للعالم الأوروبي من وجهة نظر عربية. يُسهب الطهطاوي في شرح أحوال التمدن الفرنسي من خلال استعراض التفاصيل، ويظهر تعاطفاً مع تلك الانجازات التي شاهدها. ان ما يهم الطهطاوي هو ما اهتم به السفير التركي سابقاً، أي الاستفادة من الخبرات والتقنيات والعلوم الأوروبية باعتبارها خبرات يمكن استيعابها واقتباسها بغض النظر عن منشئها. ولم تكن مطروحة بالنسبة للطهطاوي أو بالنسبة لعلي مبارك فيما بعد، مسألة النظام الثقافي الذي أنتج المدنية الأوروبية. واذا كانت الأجهزة التقليدية تبدي رفضاً للأخذ عن الغرب، فان الطهطاوي يتحدث عن «طلب العلم ولو في الصين». «وأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». وكان بإمكان خير الدين التونسي وهو الوزير المصلح أن يتحدث عن مبدأ «المصلحة» تبعاً لآراء بعض الفقهاء.

كان السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) والحاكم المصري محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) يريدان اكتساب التقنيات الأوروبية من أجل تعزيز قدراتهم وتحديث ادارتهم وتفعيل أجهزتهم وزيادة مواردهم المالية، أي الاستحواذ على عناصر القوة ومنح «الدولة» نفوذاً واسعاً. من الملفت للإنتباه هنا أن الدولة صارت بؤرة الإصلاحات أو التحديث، وصارت محور التفكير التحديثي. ومن الواضح أن التحديث في يد الدولة كان أداة لنفي أو إزالة أو السيطرة على القوى والتشكيلات والجماعات التي تشاطر الدولة نفوذها وسلطتها. لقد ألغى السلطان محمود الثاني قوات الانكشارية عام ١٨٢٦، ولكن العاهل المصري أمكنه أن يذهب أبعد مدى، فسحق قوات المماليك وضيق على الأجهزة العلمية في الأزهر وسيطر على الأصناف الحرفية، وأخضع الأرض لنفوذه وسلطته المباشرة. واذا كانت الأجهزة والجماعات التقليدية قد رفضت التحديثات بحجة عدم مطابقتها للشريعة، فان أجهزة الدولة كانت مهتمة بإعطاء اصلاحاتها الغطاء الإسلامي. فحين أراد السلطان محمود الثاني

احتلال مصر من جانب بونابرت حادث عرضي لم يترك عواقب

العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي هل نشأت في لحظات؟

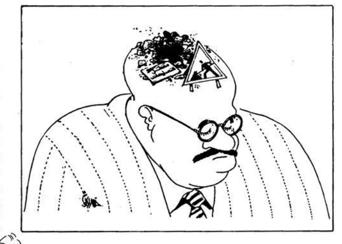
القضاء على الانكشارية جهد في اعطاء عمله طابعاً اسلامياً فاستصدر الفتاوي المناسبة، ثم أطلق اسم «الجنود المحمدية المنصورة» على قواته الجديدة، وادعى انه يفعل ما فعله المصريون من قبل، حتى لا يُتهم بأنه يقلد الأوروبيين. بالمقابل فإن محمد علي باشا حين دفع جيوشه باتجاه بلاد الشام لاحتلالها استخدم الدعاية الإسلامية ليبرر عمله، وادعى: «أن السلطان محمود خرج على طور أسلافه، وانه زاد في الظلم والبغي وانه أمر بتغيير زي الناس وملبوسهم ومساواة النصارى مع المسلمين في الزي. وان سبب ذلك سوء رأيه، ولذلك تغلب عليه أعداؤه من الفرنج حتى ملكوا معظم بلاد الإسلام». لم تكن تلك الحجج سوى ذرائع فالذين كانوا يأخذون بتقنيات الغرب وأساليبه كانوا مسلمين يحرصون على مراعاة المشاعر الإسلامية، ولكنهم في دفاعهم عن إجراءاتهم وتحديثاتهم كانوا يوقظون مواقف العداء للغرب ليظهروا أنفسهم بمظهر التقاة المؤمنين. وفي جميع الأحوال فان كلا من محمود الثاني ومحمد علي باشا ما كان يريد اقامة دولته على مبادىء دستورية أو على الفصل بين السلّطات، بل كان يهدف الى تعزيز سلطته ومد نفوذه على سائر الأراضي التي تخضع له واخضاع خصومه الداخليين. لكن هذه الإصلاحات التي تنفذ من موقع الحاجة، ومن موقع الضعف، كان لا بد أن تؤدي الى ما لم يكن بالحسبان، ومن هنا كان اضطرار السلطان العثماني الى اعلان سلسلة من الإصلاحات: في القانون على أساس اعلان المساواة بين المواطنين واصلاح الإدارة والقضاء، وهو ما عرف باسم «التنظيمات» التي صارت اسماً لعصر بأكمله.

ان العلاقة بين أوروبا من جهة والعالم الإسلامي من جهة أخرى، تبدو وكأنها نشأت لتوها في لحظات من القرن الثامن عشر، أو في مطلع القرن التاسع عشر، وهو أمر غير صحيح بطبيعة الحال، لأن العلاقات بين شعوب الإسلام ودوله من جهة، وشعوب أوروبا المسيحية وممالكها من جهة أخرى مرت بتطورات ونمت ببطء شديد منذ القرن الثامن الميلادي. وبقيت أوروبا جزءاً من المدى الاقتصادي لعالم الإسلامي الواسع في عصر الازدهار الذي بلغ قمته في القرن العاشر الميلادي. ولم تؤد الحروب الصليبية الى انقطاع في العلاقات الاقتصادية وتبادل السلع والمنتجات، بل ربما أدت الى عكس ذلك. والمسألة التي يجدر أن نلاحظها هي أن التوسع في العلاقات التجارية لم يؤد في الجانب الإسلامي الى تراكم في المعلومات حول الشعوب التي تقطن في هذا الجزء من العالم الذي عرف لاحقاً باسم أوروبا. لقد احتفظ المسلمون باسم «الفرنجة» الذي أطلقوه على شعوب أوروبا. وعلى مستوى الثقافة المتوسطة فان أوروبا بقيت مجهولة تماماً. وعلى مستوى الثقافة العالمة فان ابن خلدون الذي عاش في الطرف الغربي من العالم الإسلامي وتوفي في مطلع القرن الخامس عشر، لا يذكر في مقدمته سوى أسطر قليلة عن أوروبا. لم يكن ثمة تناسب بين ما يعرفه الأوروبيون عن الإسلام وعلومه وحضارته وبين تجاهل المسلمين لشعوب أوروبا.

دخلت العلاقات الإسلامية ـ الأوروبية طوراً جديداً مع بروز الدولة العثمانية، ذلك أن هذه الدولة الفتية توسعت في بداياتها على حساب الدولة البيزنطية، وعندما حلّ منتصف القرن الخامس عشر انهارت القسطنطينية وتلاشت الدولة البيزنطية. ان هذا الحدث احتل في الوعي الأوروبي موقعاً مركزياً، اذ اعتبرت هجرة العلماء البيزنطيين نقطة بداية للنهضة الأوروبية. لقد حدثت أبرز التطورات العالمية التي سيكون لها مغزاها المستقبلي خلال حقبة النصف الثاني من القرن الخامس عشر: انهيار الدولة البيزنطية، وانهيار الإسلام الأندلسي عام ١٤٩٢، في الوقت نفسه الذي تم لأوروبا فيه اكتشاف قارة جديدة. وقد أدى الأمر الى بروز قوتين جديدتين تقاسمتا شواطىء المتوسط والنزاع فيه: الدولة العثمانية التي مثلت الإسلام، وأوروبا الغربية التي صارت قوة جديدة وممثلة للعالم المسيحي.

لقد عاشت أوروبا الغربية الكاثوليكية، ذات المدى الجغرافي الضيق، معزولة ومهددة، وعانت رعب الاجتياح العثماني خلال قرنين من الزمن. ولكن أوروبا المعزولة والمهددة كانت آخذة في فك عزلتها، فسيطرت على مجالها الجغرافي، بمد نفوذها على كامل شبه الجزيرة الايبيرية، ثم افتتحت آفاق جديدة باكتشافها لقارة جديدة هي مصدر للربح والثروة كما هي منفذ لانقاذ ذاتها وثقافتها واثبات قوتها الصاعدة.

في غمرة التهديد العثماني لأوروبا الغربية الكاثوليكية، كان الإسلام العثماني لا زال محتفظاً بنظرة المسلمين التقليدية الى الغرب، وهي نظرة يمتزج فيها التجاهل بالاحتقار. لقد حدث تراكم في المعلومات حول ملوك وممالك أوروبا ومدنها وجغرافيتها وبعض عادات شعوبها، الا أن هذه المعلومات بقيت في حوزة النخب الضيقة من دبلوماسيين وكتّاب ادارة. ولم تصبح هذه المعطيات مادة شعبية. وفي الوقت الذي اكتشف فيه السلطان وأعوانه فعالية التقنيات الأوروبية وأرادوا الأخذ بها كعنصر من عناصر دعم سلطاتهم ضد خصومهم الداخليين والخارجيين أيضاً، لم يحدث تبدل فعلي في النظرة الى أوروبا، إلا على مستوى النخب المحيطة بالسلطة. على العكس من ذلك، فإن النظرة التقليدية المشبعة بالاحتقار صارت عنصراً من عناصر الصراع. ففي الوعي الشعبي ان أوروبا كافرة، وان من يقلدها ويأخذ بأساليبها هو كافر، ومن تشبه بقوم صار منهم.



يحدث في مصر الآن

حلف غير مقدس

نصر حامد أبو زيد
بين مطرقة الدين وسندان السلطة

■ تحولت مسألة ترقية (او عدم ترقية) الدكتور نصر حامد ابو زيد من استاذ مساعد إلى استاذ في جامعة القاهرة، إلى حرب كلامية واسعة، دوّت كالانفجار بين «الجماعات» الاسلامية و «الازهريين» من جهة وبين «العلمانيين» و «المثقفين» من جهة أخرى، وسط صمت رسمي كامل. ولم تنقض ٢٤ ساعة على قرار اللجنة الجامعية بعدم ترقية ابو زيد حتى كانت الصحف المصرية قد بدأت معاركها، كما بدأت الجهات المعنية بالامر، من احزاب وهيئات وتجمعات، خوض حرب/واسعة عبر منابرها وبياناتها مدافعة أو مهاجمة. ومنذ اوائل نيسان وحتى يوم كتابة هذه المقالة لم تزل القضية تتفاعل مبينة عن احتقان شديد وانقسام حاد في اوساط المجتمع المصري. والاحتقان هذا يتخذ الآن أبعاداً جديدة من الصراع حول السلطة والسياسة والمجتمع والقضاء وصولاً إلى المؤسسات التعليمية والانتاج الثقافي. ولان مصر تحتل موقعاً اساسياً في الحياة العربية، فليس من المغالاة في شيء القول ان هذا الصراع سيساهم إلى حد كبير في بلورة صورة العالم العربي مستقبلاً على صعيد انتشار «الاصولية» والتحديات السياسية والاخلاقية والثقافية التي تواجهه.

واذا كانت مسألة ثانوية، كمسألة ابو زيد هي السبب المباشر في اندلاع هذه المواجهة الكبيرة، فان المواجهة كانت كما يبدو محتومة، بعد تراكمات طويلة من الاحتكاكات الخلفية وشد الحبال الصامت وصولاً إلى الاغتيالات والتهديدات، اضافة إلى سياسة المنع والمصادرة المتعاظمة، وانكفاء الدور الثقافي التنويري إلى الهامش والعمل على حصره وخنقه، وبالتالي تعاظم دور «الجماعات» و «الازهر» في الحد من الفعالية الثقافية، يضاف الى ذلك سياسة الحكم القائمة على ارضاء واحتواء الجماعات عبر تقديم المثقفين والكتّاب والكتاب نفسه كأضاحٍ دائمة لهم، مما جعل جموع المثقفين والفعاليات الجامعية والفكرية يعانون من نارين: السياسات الحكومية من جهة وبرامج التحريم «الاصولية» من جهة ثانية. يضاف اليهما اصلاً شروط البترودولار العربي التي خرّبت وضربت استقلالية العمل الثقافي والابداعي وحريته.

> التكفير والالحاد بديلان عن التخوين والعمالة!

وقد كشفت هذه القضية عن ظاهرة آخذة بالانتشار تتمثل بمظلة قمع كبيرة يهدد تحت سقفها كل اجتهاد وتفكير وابداع، عبر رفع شعار «التكفير» و «الالحاد»، بديلاً عن شعار الانظمة «التخوين» و «العمالة». وفي شعار التكفير والالحاد هذا ينتظم كل كاتب ومفكر ومجتهد حر في صورة واحدة تجسّد «سلمان رشدي جديداً»، مما جعل كل مثقف مشروعاً لاغتيال «شرعي»، وكل كتاب موضوعاً لفتوى او لشبهة، وكل اطروحة جامعية احتمالاً لزندقة وارتداد.

* * *

ولان «الناقد» تعنى بابداع الكاتب وحرية الكتاب كما تؤمن بوحدة الثقافة العربية لغة ومصيراً، فانها تعتبر هذه القضية التي تهز الشارع المصري والمثقفين المصريين خصوصاً، من قبيل المؤشرات الخطيرة التي تطال مسار الثقافة العربية برمتها حاضراً ومستقبلاً، ومن هنا فإن «الناقد» تجد ضرورة كبيرة في نقل السجال الذي اتخذ في بعض جوانبه طابعاً عنفياً مذهلاً... مسجلة موقفاً مبدئياً يتضمن الايمان المطلق بحرية الاجتهاد والابداع والكتابة والقول والتعبير، وبحرية المثقف والكاتب والكتاب في الرأي والنشر من دون حدود وبلا اية رقابة مهما كان نوعها واسبابها ودوافعها.

* * *

«الناقد»



تقول المعلومات أن د. نصر حامد ابو زيد هو استاذ مساعد بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ـ القاهرة، وقد لمع اسمه في السنوات الاخيرة، منذ نشر كتابه «مفهوم النص ـ دراسة في علوم القرآن» ونشره بحوثاً ودراسات ومقالات اخرى في عدد من الدوريات والمجلات والصحف، داخل وخارج مصر، وهو مثقف ينتقد بحدة ـ في اغلب اعماله ـ الخطاب الديني بكافة انواعه ويحلل دعاواه وممارساته ومرجعياته الفكرية. وعندما خلت درجة استاذ بقسم اللغة العربية ـ الذي يعمل فيه ـ تقدم لنيلها، وطبقاً للوائح الجامعة كان عليه ان يتقدم بالبحوث والدراسات التي تؤهله لذلك، فقدم كتابين هما «نقد الخطاب الديني» و «الامام الشافعي وتأسيس الايديولوجية الوسطية» مع بحوث ودراسات منشورة باللغتين العربية والانكليزية. اما الدراسات التي تقدم بها فاهمها: «اهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني»، «سلطة النص في مواجهة العقل»، «محاولة قراءة المسكوت عنه في خطاب ابن عربي». «التأويل في كتاب سيبويه» الخ... وطبقاً للوائح الجامعة أحيل الطلب المقدم في ٩ أيار ١٩٩٢ إلى لجنة الترقيات التي شكلت بدورها لجنة علمية لفحص انتاج الباحث. واجتمعت اللجنة العلمية في ٢٨ ايار وجرى توزيع انتاج د. ابو زيد على لجنة القراءة والفحص التي تضم بين أعضائها د. عبد الصبور شاهين ود. عوني عبد الرؤوف و د. محمود علي مكي و د. سيد حامد نساج والدكاترة شوقي ضيف، احمد هيكل، رمضان عبد التواب، نبيلة ابراهيم، محمود حجازي، كمال بشر، مصطفى هدارة، عبد السلام عبد العزيز، محمود ذهني ومحمد مكي. وتم التوافق على اختيار ثلاثة اساتذة من اللجنة للنظر في انتاجه هم الدكاترة محمود علي مكي وعوني عبد الرؤوف وعبد الصبور شاهين.

وقامت اول مفارقة في هذه القضية حيث ان اللجنة قدمت تقريرها للجامعة في ٣ كانون الأول ١٩٩٢، اي بعد سبعة اشهر من تقدم د. ابو زيد بانتاجه، وهو ما يعد مخالفة صريحة لقواعد ولوائح عمل هذه اللجان التي تحدد: ان اقصى موعد لتقديم التقرير لا يزيد على شهرين فقط من تاريخ وصول الانتاج اليها وتزداد الفترة إلى ثلاثة اشهر في حالة ما اذا كان احد الفاحصين من خارج مصر او من خارج اللجنة (حسب المادة ٧٣ من قانون تنظيم الجامعات). خاصة وان اللجنة نفسها اجتمعت خلال الشهور السبعة ست مرات وافقت فيها على ترقية عدد من زملاء د. ابو زيد الذين تقدموا معه في الفترة نفسها.

اما المفارقة الثانية فقد قامت حين قدم د. محمود علي مكي و د. عوني عبد الرؤوف تقريرين منفصلين ايجابيين يزكيان فيهما طلب د. نصر حامد ابو زيد للترقية، بينما كتب د. عبد الصبور شاهين تقريراً سلبياً يرفض الترقية. وفي تصويت اللجنة العلمية الدائمة لاختيار التقرير المعبر عن رأيها الجماعي، انقسمت الاصوات بين سبعة تؤيد التقرير السلبي وستة ترفض هذا التقرير. وتتمثل المفارقة هنا بعدم وجود جواب منطقي على السؤال التالي: كيف صمد في التصويت التقرير السلبي الوحيد أمام التقريرين الايجابيين؟ هذا الوضع، غير الطبيعي، انعكس على توقيعات التقرير الذي اصبح جماعيا بمجرد فوزه في التصويت. ولقد اضطر الاستاذان صاحبا التقريرين الايجابيين الى ان يضعا توقيعيهما على تقرير مضاد لآرائهما الحقيقية والمكتوبة، في حين امتنع د. سيد حامد النساج وحده عن التوقيع على هذا القرار.



ويعد اطلاع اساتذة قسم اللغة العربية (كلية الآداب) في جامعة القاهرة على قرار اللجنة بتبني تقرير د. شاهين، عقدوا اجتماعاً وناقشوا التقرير مناقشة علمية مفصلة ومكتوبة، وبعد دراسة مستفيضة قرروا بالاجماع رفض التقرير والتشديد على أحقية ابو زيد بالترقية. وكان لا بد من ان يرفع هذا البيان وحيثياته إلى مجلس كلية الآداب، المكون من رؤساء جميع الاقسام وبعض الأساتذة ووكلاء الكليات المختلفة. وكانت المفاجأة ان المجلس وافق بالاجماع على بيان مجلس قسم اللغة العربية، ورفض تقرير د. عبد الصبور شاهين واقر احقية ابو زيد بالترقية. وحظي هذا الموقف بتأييد معظم المثقفين المصريين.

على ضوء هذه المستجدات اجتمع مجلس جامعة القاهرة لاتخاذ ما يراه بشأن المسألة التي تعددت بشأنها الاوراق والمفارقات والتوقيعات، وكان امامه ثلاثة تقارير اثنان منها يوافقان على احقية ابو زيد والثالث يرفض ذلك، ولكن الثالث هو الذي فاز بالاغلبية في اللجنة الدائمة. وكان امامه ايضاً بيان مجلس قسم اللغة العربية كذلك تقرير هو حصيلة المناقشات التي انتهى اليها مجلس كلية الآداب بقراره الموافقة الجماعية على احقية ابو زيد. وكان امام مجلس الجامعة إلى جانب هذه الملفات سوابق محددة آخرها ترقية الدكتورة عفاف المنوفي بالرغم من سلبية تقرير لجنة الترقيات. وكان من حق مجلس الجامعة ان يأخذ او لا يأخذ بعين الاعتبار ما تقرره هذه اللجنة، طالما انه كان هناك انقسام حاد في الرأي بين اعضائها حول قضية د. حامد ابو زيد، وطالما ان هذا الانقسام لم يقع في مجلس القسم او مجلس الكلية اللذين عارضا بالاجماع التقرير السلبي ووافقا على الترقية. ومع ذلك طلعت المفارقة الثالثة التي مهدت للانفجار حيث ان مجلس الجامعة ضرب عرض الحائط بتقرير مجلس الكلية وتقرير مجلس القسم والتقريرين الايجابيين في لجنة الترقيات واخذ بالتقرير الوحيد السلبي الذي كتبه د. عبد الصبور شاهين.

هنا خرجت القضية من اروقة الجامعة ومجالسها لتشغل المثقفين والاكاديميين وسواهم، ولتحتل مساحات واسعة في صحف القاهرة ومجلاتها، التي بدأت بنشر اخبار موجزة عن رفض الترقية (روز اليوسف ١٩٩٣/٣/٢٩). وفي يوم واحد (الاربعاء ١٩٩٣/٣/٣١) كانت مثارة في صحيفتي الاهرام (غالي شكري) والاخبار (عبلة الرويني وتعليق جمال الغيطاني) وفي «الاهالي» كتبت فريدة النقاش، وجرت تغطية اخبارية كبيرة في «المصور». وفي عددها التالي نشرت روز اليوسف مقالة طويلة لفاروق عبد القادر (١٩٩٣/٤/٥) وكتبت الدكتورة ليلى عنان في أسبوعية «الشعب» مناقشة غالي شكري، ثم نشرت «الأهالي» تحقيقاً طويلاً (١٩٩٣/٤/٧). وفي اليوم نفسه صدرت «الاهرام» وقد تناول اثنان من كتابها القضية نفسها متصرين لاجتهادات الدكتور ابو زيد (عبد المعطي حجازي ولطفي الخولي). وكتب رئيس تحرير «الوفد» جمال بدوي معترضاً على هذه الضجة المثارة. ويوم الجمعة (١٩٩٣/٤/٩) تطرق د. عبد الصبور شاهين لهذه المسألة عقب القائه خطبة الجمعة (فهو يلقيها كل اسبوع في اقدم مساجد القاهرة على الاطلاق: جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة). وفي اليوم نفسه عقدت في «أتيليه» القاهرة للكتاب والفنانين ندوة حول كتاب د. ابو زيد «نقد الخطاب الديني» تحدث فيها الدكتوران فؤاد زكريا وجابر عصفور، فاشادا بالكتاب وصاحبه

واحتشد جمهور كبير من الكتاب والمثقفين الذين اعلنوا وقوفهم إلى جانب الكتاب وصاحبه ورفضوا اتهامه في عقيدته، وارهابه باسم الدين. وما يزال الموضوع مطروحاً في الصحف وبين المثقفين خصوصاً بعد توسع الجدل وانتشاره عربياً.

لكن ما سر هذا التقرير الذي سبب اعنف ازمة جامعية وثقافية عرفتها القاهرة منذ ايام طه حسين وكتابه «في الشعر الجاهلي»؟

التقرير الذي اعده د. عبد الصبور شاهين لا يحلل او ينقد علمياً منهجية الباحث ولا يقوِّم سوية اجتهاده ولا يحاول استخلاص المقدرة العلمية لديه، كما انه لا يقدم ملاحظات معينة على النتائج النظرية التي توصل إليها الباحث.. اي باختصار، ليس للتقرير علاقة بعمل اللجنة، المخولة فقط النظر علمياً في نتاج د. ابو زيد، لكنه ينطوي على شيء آخر. فالدكتور شاهين يرى أن مؤلفات الباحث: «تدافع بحرارة عن الماركسية، الفكر الغارب، وتبرئها من تهمة الالحاد، وتساوي بين الازهر والتطرف وتصف علماء الدين بالكهنوت وتعمد إلى تشويه تاريخ القرآن». وما كتبه ابو زيد «يسيء الى القرآن ذاته» و انه «سماديرِ» (ما يراه المخمور ابان سكره المبين) و «لا يقول به كاتب مفيق وان محرراته جدلية في جدلية لتخرج بجدلية تلد جدلية تحمل في احشائها جنيناً جدلياً متجادلاً بذاته مع ذاته» ولم يكتف بهذا التهكم، بل تعرض لعقيدة الباحث في عبارات واضحة مثل «كأنه اعتراض على القرآن ذاته» و «تشويه تاريخ القرآن... بل قصد إلى هذا التشويه» و «يمثل اساءة إلى القرآن ذاته» و «فاعجاز القرآن بهذا المعنى اسطورة»، فهو «يتحدث بحسم عن اسطورة وجود القرآن في عالم الغيب» وهو «كلام اشبه بالالحاد». وهي عبارات واضحة تقطع بان الباحث مغموز في عقيدته، بل انها رمي صريح بالكفر والالحاد والمروق على الاسلام، ومن الاسف ان يصعّد د. شاهين اتهاماته بحق ابو زيد وصولاً إلى اتهامه أنه «ينتصر بحماس لرواية سلمان رشدي آيات شيطانية».

وفي مراجعة سريعة لنتاج هذا الباحث المتهم يتضح لنا ان د. ابو زيد يتعرض دوماً للخطاب الديني فقط (الفقه، التأويل، التفسير...) وليس للنص الديني. وهو اذ يناقش في مجمل اعماله التراث الاسلامي، لا يزيح عن «بديهية ان القرآن مصدره الهي مكتوب بلغة بشرية تتكلمها جماعة معينة من الناس» وليس هناك اي دفاع عن الماركسية او كلام ماركسي او حتى منهجية ماركسية واضحة (والاخيرة على كل منهجية عملية بحتة لا علاقة لها بنظام سياسي محدد)، وليس الباحث مجرد كاتب مزاجي مثلاً ليشوه «تاريخ القرآن» او يسيء اليه، بل ويخلص د. أبو زيد في كتابه «الخطاب الديني رؤية نقدية» (ص ٩) إلى القول: «لا خلاف على ان الدين - وليس الاسلام وحده - يجب ان يكون عنصراً أساسياً في اي مشروع للنهضة»... هذا الكلام اقل ما يقال فيه انه مضاد للكفر والالحاد كما انه مضاد للماركسية. بل ان الباحث اللبناني علي حرب اعتبر ابو زيد يقف على ارضية واحدة مع الاصولية من حيث ادخال الدين ونصه المقدس في صلب مشروع النهضة. وابو زيد نفسه يقول: «ان العلمانية في جوهرها ليست سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين» (السفير ٢٨/٥/١٩٩٣).

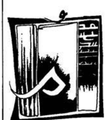
الا ان تهمة التكفير والخروج على اجماع الامة كانت اقوى وارهب من اي مناقشة هادئة او نظرة علمية سريعة، واشد قوة من اي تبرير منطقي، وتأثيرها العاطفي كان هو السباق والمؤثر. فمن يجرؤ على الدفاع عن «مارق» و «كافر»؟! وهل بوسع جامعة القاهرة المجاورة للازهر والمحاطة بالجماعات الأصولية ان «تدافع عن عمل عقلي»!؟

اذ ما ان رفعت فريدة النقاش صوتها دفاعاً عن حرية الاجتهاد: «لن تسمح قوى العقل والعلم والحرية والاستنارة للجهل ان يطبق انفاسه الكريهة علينا» (الاهالي) حتى قام د. شاهين بنفسه بالرد عليها وعلى جميع المدافعين في احد الجوامع: «ما بقاش ليهم شغلة غير شتيمة الاسلام والقرآن وسب الرسول والصحابة... أدي شغلتهم.. وهو ده اللي سقط.. نحن في بلد اسلامي ولا نقبل هذا» وفي تخصيصه للرد على النقاش يقول: «واحدة.. هه.. كاتبة الكلام ده في «الاهالي».. ايه الكلام ده.. ده.. انا اقول كده بالفم المليان.. لا احد يتكلم العربية الفصحى في العالم العربي كما اتكلمها. بيقولوا إيه؟ مش غرور والله يا اخواتي... والله استغفر الله.. استغفر الله.. بقول على كلام قيل انه بلغة عامية ركيكة... ركيكة ايه يا أُخَه...» (لا يجوز تفسير الكلمة الاخيرة لاسباب اخلاقية).

ازاء هذا الاحتدام علت الاصوات اكثر وتحولت القضية إلى صراع واسع استوقف الجميع للنظر في امر يطال النظام والجامعة والحياة العامة والثقافة. فها هو نجيب محفوظ يقول بتعجب: «عجيب امر هذه الجامعة فهي ترفض ترقية احد الباحثين المجتهدين وتصفه لجنة الترقيات الدائمة في تقريرها بانه «استاذ مساعد كافر» فتحرمه بذلك من لقب «استاذ كافر» وكأن الجامعة لا تقبل بين اعضاء هيئتها التدريسية الكفار بدرجة استاذ، وان كانت تقبل الكفار حتى درجة استاذ مساعد؟!» (العرب - لندن ٣٠/٤/١٩٩٣). إلا انه مقابل هذا التهكم كان بعض المتشددين في جامعة الازهر اكثر جدية في الرد على العلمانيين والمثقفين وعلى ابو زيد شخصياً اذ اقاموا دعوى قضائية تطالب بتفريق الدكتور ابو زيد عن زوجته (السفير ٢٨/٥/١٩٩٣). واذ استذكر بعضهم قضية طه حسين، ما لبث الامر أن طال الأخير أيضاً، إذ علق محمود شاكر قائلاً: «لقد أصبحت الأمور كلعب العيال بعدَ أن فعلها طه حسين. كان طه حسين بلا ضمير وكان يتستر تحت لافتة حرية الرأي والتعبير. ليس التقدم وليد حرية الرأي انما هو وليد اسباب اخرى. يجب ان نتعلم اصول الاشياء» (ادب ونقد ايار ١٩٩٣). وقد علق الكاتب خليل عبد الكريم مترحماً على د. ابو زيد: «القى نفسه بين فكي الرحى «التيار الديني» «والسلطة الحاكمة»، وفي رأيي انهما وجهان لعملة واحدة، فاطبقا عليه وحرماه من درجة الاستاذية» (ادب ونقد ايار ١٩٩٣).

واتخذت القضية منحى قضائياً ايضاً فكتب د. فتحي حموده في جريدة «الاخبار» (٥/٥/١٩٩٣): «ان قرار مجلس الجامعة قد قام على اسس قانونية صحيحة مستفادة من اصول ثابتة في الاوراق ومفضية منطقاً وقانوناً الى النتيجة التي انتهى اليها القرار باعتبار ان آراء سيادته (ابو زيد) تصادم قواعد النظام العام واحكام الدستور في البلاد... [وهذا القرار] يقوم على مبدأ صيانة النظام العام والمصلحة العامة واحترام العقائد الدينية وتوفير السلام والطمأنينة للجميع». ويستخلص حكمه على اعتبار ما نشر عن آراء الدكتور ابو زيد قائلاً: «يعتبر طعناً في صميم عقائد المسلمين وفي قرآنهم الكريم وبالتالي فهو يشكل جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات في المادة ١٦١ منه كما يشكل ذنباً ادارياً ووظيفياً جسيماً يستوجب احالة

ابتزاز ومزايدة والدين.. قراءة!



صاحبه إلى السلطة التأديبية».

هذه النبرة القانونية الحاسمة، عدا الهجوم الذي شنه د. شاهين ومؤيدوه، استدعى استغراباً أشبه باستغراب صادق جلال العظم في مسألة النقاد الذي هاجموا سلمان رشدي دون الاطلاع على روايته. اذ تقول ايمن بكر (ادب ونقد ايار ١٩٩٣): «اطروحات ابو زيد هي اجتهاد يكاد يقف منفرداً في مجال الدراسات الاسلامية لما يملكه الباحث من ادوات منهجية علمية ادت إلى دقة ملفتة في كثير من النتائج التي وصل اليها، حتى ليتساءل المرء في ظل ما يحدث عما اذا كان الذين يحاكمون الرجل قد استعانوا بكتبه؟». كما كتب د. سيد القمني: «الاكثر نكاية واثارة للفزع هو ان يكون التبرير المدون لذلك الرفض هو اتهام الرجل بالكفر بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه على نمط «لا تقربوا الصلاة..» اضافة إلى التلفيق في التأويل المتعسف، دون الرأي العلمي المفترض وحده... واذا كان هذا قد حدث مع د. نصر ابو زيد وهو مسلم فكيف به لو كان مسيحياً» (ادب ونقد ايار ١٩٩٣).

هذا الفزع اثار د. يحيى الرخاوي الذي كتب في المجلة نفسها: «قهرت خيالي آمراً ياه الا يتحرك إلا في حدود قيم ومعتقدات مثل هذه اللجان الموقرة.. وانا اقرأ هذا الذي كان بشأن ترقية زميل في كلية الآداب إلى وظيفة يقال لها «استاذ» رحت اربط بين حرية الفكر التي اتاحاها لنا الاستعمار ـ رغم انفه ـ وظلامة القهر التي يفرضها علينا الارهاب الرسمي والشعبي.. ولن يشرف هذا الاستاذ المساعد ان يصبح استاذاً في جامعة اتخذت هذا القرار هكذا سنة ١٩٩٣، اي قبل سبع سنوات لا غير على سنة ٢٠٠٠ (صدق او لا تصدق) ثم ادعو الله لنا ولهذا الباحث ان يتوب عليه وعلينا من هذه الجامعة وهذه اللجان».

لكن ما لبث الامر ان ادى الى فتح ملفات كثيرة تطال د. عبد الصبور شاهين، كما تطال موقف السلطة، وايضاً مسألة القمع والمنع بكاملها ودور الاحزاب والجامعة. اذ تبين اول ما تبين في هذه الحرب الجامعية والصحافية والثقافية ان د. شاهين هو امين لجنة الشؤون الدينية في الحزب الوطني الديموقراطي الحاكم. وليس عضواً في جماعة من الجماعات الاسلامية مثلاً ويحتل موقعاً رئيسياً في توجيه وصياغة الفكر الديني الذي يتبناه الحكم السياسي الذي يوصف بـ «المعتدل». كما انه من المعروف والثابت ان شاهين كان من اكثر رجال الدين ارتباطاً بشركات توظيف الاموال (الريان) واكثرهم نشاطاً وحماسة في خدمتهم (سبق ان نشرت الصحف على لسانه انه مستعد ان يبقى في السجن مقابل ان يطلق سراح الريان كي يعمل على رد اموال المودعين) وانه ما يزال عضواً في اللجنة الشرعية لاحد البنوك التي ترفع لافتة الاسلام، وعضواً في مجلس ادارة مستشفى استثماري الخ وانه قد اصاب من انشطته هذه ثراءً كبيراً. كما كان واحداً من بضع عشرات من رجال الدين والكتّاب الدينيين الذين سعوا لاجراء وساطة بين الحكومة والجماعات الارهابية.

وفي سياق رأي ابو زيد من «ان التيار الديني والنظام الحاكم لا يختلفان على مبدأ «الحاكمية» انما على مفهومه» توسعت حملة النقاش والردود فكتب د. علاء الاسواني في جريدة «الشعب» (١٩٩٣/٤/٢٣): «ان حرية البحث العلمي التي تدافعون عنها حرية اساسية، لكنها ـ للأسف ـ ليست الحرية الوحيدة المعطلة في مصر، ماذا عن حرية التعبير والاجتماع والتظاهر والاضراب السلمي، ماذا عن حرية تكوين الاحزاب واصدار الصحف. ان كل الحريات في مصر معطلة بقانون الطوارئ». وفي عملية تأكيد لما ذهب اليه د. الاسواني يعلق د. احمد صبحي منصور (ادب ونقد ايار ١٩٩٣): «لقد صودرت لي خمسة كتب داخل جامعة الازهر وحين تركتها صادرت كتابي «المسلم العاصي» وحين اصدرت «الاخبار» كتابي «مصر في القرآن» ضمن اعداد (كتاب اليوم) حاول خصومي في الازهر منع الكتاب قبيل طرحه في الاسواق وما زالوا به حتى جمعوه من بين ايدي الباعة بعد اسبوع واحد». ويستطرد: «القرآن لم يصادر حق الخصوم في ابداء الرأي ولولا القرآن ما عرفنا تلك الآراء بل ان آراء الخصوم اصبحت من آيات القرآن التي نتعبد بتلاوتها».

وفي معرض اتهام المعارضة للحكومة علق الكاتب نبيل متولي في مقالته المنشورة في «ادب ونقد» (ملف ايار ١٩٩٣) قائلاً عن الحكومة: «انها تسعى جاهدة للقضاء على الارهاب وفي الوقت نفسه تشجع الارهاب الفكري في الجامعات» و«سنسمع قريباً عن ان النظرية الهندسية او الاقتصادية لا تتوافق والحديث النبوي». كما كتبت في الملف نفسه د. هالة احمد فؤاد: «لا يقف الامر عند حد الحجر المعرفي والديني بل يصل إلى حد الوصاية السلوكية الفعلية».

وفي تحليل طويل يتعرض فيه لعلاقة السلطة بالارهاب الفكري والديني ولأوجه الشبه بين قمع السلطة من جهة وقمع الجماعات الدينية من جهة اخرى للمبدعين والمثقفين كتب طارق النعمان القاضي في ملف «ادب ونقد» (ايار ١٩٩٣): «في الوقت الذي تتوالى فيه الهجمات الارهابية المتطرفة من قبل جماعات العنف على حاضر المجتمع المصري وتاريخه ومستقبله وفي الوقت ذاته تراق فيه دماء الاجهزة الامنية للدولة يومياً مقاومة لهذا التهديد الداهم نجد ان العديد من اجهزة ومؤسسات الدولة يكرس التطرف ويحتضنه ويصدره فمن الشعراوي الذي يرفض الاختلاط بين الجنسين إلى الغزالي الذي يرفض نبذ التعصب في الدين لان هذا الكلام للعلمانيين الذين هم وفق تصوره كفرة وملاحدة، إلى جاد الحق الذي يصرح بكل فخر انه لا مكان للعلمانية على ارض مصر.. في مثل هذا المناخ المكتظ بالابتزاز والمزايدة يتحول الدين إلى فزاعة

أوسمة!

يذكر ان د. رمضان عبد التواب احد الموقعين على تقرير عبد الصبور شاهين، متهم بسرقات ادبية (ثبت الحكم في المحكمة عام ١٩٨٥، اثر سرقته لمصنف اللغة العربية وهو للمستشرق الالماني يوهان فك). كما ان محمد مصطفى هدارة متخصص في كتابة التقارير المباحثية ضد المثقفين (روز اليوسف ١٩٩٣/٤/١٥).

وكشف الدكتور مصطفى رجب الأستاذ المساعد بكلية التربية جامعة سوهاج ان د. عبد الصبور شاهين قام بالاستيلاء على جزء من المادة العلمية المنشورة في دائرة المعارف الاسلامية ونسبها إلى نفسه، في بحث قام بنشره ثلاث مرات في ثلاث مجلات خليجية. والمادة المقصودة تنطوي على اخطاء علمية لم يحاول د. شاهين التحقق حتى من صحتها (روز اليوسف ١٩٩٣/٥/٣١).

تستخدمها جماعات العنف الساعية للسلطة في تكفير وتستخدمها الدولة في نفي التهمة ويستخدمها الطرفان ازاء العقل». ويستغرب القاضي كيف ان «المدارس والجامعات تتحول إلى منابر اعلام واعلان لعمر عبد الكافي وعمر عبد الرحمن (امراء جماعات اسلامية متشددة) ولأشرطتهم والمضحك هو اشرطة هؤلاء المحرضين على الفتنة ليس عليها حظر بينما يوجد هذا الحظر على اعمال طه حسين ونجيب محفوظ ولويس عوض وغيرهم» وفي تعرضه لبعض وجوه النظام: «ها نحن منذ اشهر نجد استاذاً جامعياً (محمد مصطفى هدارة) يقدم دون اي شعور بالعار أو الخجل بلاغاً امنياً للسلطة السياسية ممثلة بأعلى صورها (رئيس الجمهورية شخصياً)، يتهم فيه بالكفر ثلاثة من اشهر مثقفي مصر ومبدعيها وهم الناقد جابر عصفور والكاتب غالي شكري (مسيحي) والشاعر احمد عبد المعطي حجازي». وتكمل فريدة النقاش في السياق نفسه قائلة: «ولا ننسَ ان ثروت اباظة رئيس اتحاد الكتاب ووكيل مجلس الشورى وهو اعلى المتحدثين باسم الحكم صوتاً، هو ايضاً الذي يوجه تهمة الكفر والالحاد لنصر ويدعو لاعادة النساء إلى البيت كحل لمسألة البطالة».

لكن المسألة لم تقف عند هذا الحد اذ بعد دفاع د. ابو زيد عن نفسه قائلاً: «لقد انتقلنا من مرحلة الخطاب الزائف إلى مرحلة الخطاب الذي يسعى إلى تزييف الوعي» (القاهرة - ايار ١٩٩٣)، انتقل الجدل إلى موقف الاحزاب والصحف نفسها ففي احدى الافتتاحيات (الاهالي ١٩٩٣/٤/٢٨) كُتب: «ان الليبراليين كمؤسسات كحزب الوفد وجمعية النداء الجديد وحزب الاحرار الاشتراكيين قد خانوا ليبراليتهم، فجريدة الوفد ناصرت الحملة على ابو زيد والاحرار الاشتراكيون اصدروا جريدتين دينيتين متعصبتين وقفتا على طول الخط في مواجهة حرية الفكر والبحث والاعتقاد ولم تسهم جمعية النداء الجديد في المعركة الدائرة باي صورة. ان الليبرالية - باستثناء مفكرين افراد - تخون تاريخها وتلقي بالجانب الوحيد المضيء فيها على قارعة الطريق وعند اول منعطف يلوح فيه خطر شرخ علاقاتها «الاقتصادية» بالسعودية».

ومن اصداء هذا الضجة في القاهرة كتبت مجلة «البلاد» في بيروت وهي تصدر عن «حزب الله» بتاريخ ١٩٩٣/٥/١ وباختصار شديد: «مقابل هجوم ابو زيد على الاسلام والقرآن فانه يدافع بحرارة عن الشيوعية ويعتبرها ملاذ البشر واساس خلاصهم من ازماتهم». اما في تونس فقد منح الرئيس التونسي زين العابدين بن علي وسام الثقافة التونسي للدكتور نصر حامد ابو زيد والشاعر ادونيس وللدكتورين عزيز العظمة وعبد الله العروي (روز اليوسف ١٩٩٣/٥/١٠).

وفي تطور بارز لقضية د. ابو زيد بدأت محكمة جنوبي الجيزة يوم ١٩٩٣/٦/١٠ النظر في القضية المرفوعة من المستشار حميدة عبد الصمد النائب السابق لرئيس مجلس الدولة ضد الدكتور نصر حامد ابو زيد، للتفريق بينه وبين زوجته باعتباره مرتداً عن الدين الاسلامي، الذي «اهانه وحرض على احتقار علماء الامة». وقد قسمت عريضة الدعوى الاتهامات الموجهة للدكتور ابو زيد إلى خمسة جاءت على التوالي:

الاتهام الاول كان عن نشره كتاب «الامام الشافعي وتأسيس الايديولوجية الوسطية» بعد الاستناد إلى تقرير استاذ الفقه واصوله، وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة د. محمد بلتاجي حسن، الذي يقول فيه «انه يحمل عداوة شديدة لنصوص القرآن والسنة، ويدعو إلى رفضها وتجاهل ما اتت به».

وفي سياق تحول اساتذة الجامعة إلى ما يشبه «محكمة تفتيش»، قام الاتهام الثاني على كتاب «مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن» الذي انطوى على كثير مما رآه العلماء كفراً يخرج صاحبه على الاسلام، وقد اعد لذلك د. اسماعيل سالم عبد العال استاذ الفقه المقارن المساعد بكلية دار العلوم بحثاً يوضح فيه بعض هذا الكفر.

اما الاتهام الثالث فيقوم ايضاً على ما وصفه كثير من الدارسين والكتّاب بالكفر الصريح على صفحات جرائد «الاهرام» و«الشعب» و«الحقيقة».

والاتهام الرابع جاء فيه: «ان المشار إليه قد ارتد على الاسلام طبقاً لما استقر عليه القضاء، واجمع عليه الفقهاء. ومن المعلوم ان الردة شرعاً هي اتيان المرء بما يخرج به على الاسلام اما نطقاً او اعتقاداً او شكاً».

يريدون تفريق ابو زيد عن زوجته باعتباره «مرتداً عن الدين الاسلامي»!

وبناء على ما تقدم، جاء في حيثيات الاتهام الخامس: «ان من آثار الردة المجمع عليها فقهاً وقضاء، ان الردة سبب من اسباب الفرقة بين الزوجين، ومن احكامها انه ليس لمرتد ان يتزوج اصلاً لا بمسلم ولا بغير مسلم، اذ الردة هي في معنى الموت وبمنزلته».

وجاء في عريضة الدعوى (السفير ١٩٩٣/٦/١٠) انه لا يصح التذرع في هذا الخصوص بالقول بان الدستور يكفل حرية العقيدة، ذلك ان هناك فرقاً بين حرية العقيدة وبين الاثارة التي تترتب على هذا الاعتقاد من الناحية القانونية!!

وفي اول ردة فعل على الدعوى (التي يبدو ان شخصيات سياسية رسمية تقف خلفها متعاونة). اصدرت المنظمة المصرية لحقوق الانسان بياناً رأت فيه ان هذا القرار «سابقة خطيرة في تاريخ الجامعات المصرية، واعتداء على حرية البحث العلمي في مصر، وبالتالي مخالفة صارخة للمواثيق الدولية لحقوق الانسان وللدستور المصري ولقانون الجامعات ولائحته التنفيذية».

هذا التطور الذي يطال قانونياً ودستورياً حق البحث والاجتهاد، ان دل على شيء، فبالتأكيد، يدل على رغبة في توجيه ضربة قوية لحصانة الفكر والعقل. واذا تكرس الامر فسيكون سابقة خطيرة في تثبيت حقوقي وقانوني للقمع الاصولي والرسمي، وبالتالي اغلاق كل باب امام اي اجتهاد علمي وبحث فكري. ولا غرابة ان تشمل هذه الموجة المتعاظمة في منع الكتب والمسرحيات والقصائد والابحاث اكثر من بلد عربي بعد اليوم. كما لا غرابة ان تتحول الجامعات إلى محرقة كبرى للبحوث وللباحثين، وتصبح الساحات العامة والمحاكم أمكنة لتصفية العقول.

وعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا ان الحرية مؤجلة في الابداع والاجتهاد والاعتقاد وفي كل وجوهها، وان النهضة مسألة مؤجلة جداً في نظر السلطات القائمة كما في نظر الجماعات «الاصولية» التي ولدت من رحم واقع تلك السلطات، وفي كل الاحوال ينعزل المثقفون والمبدعون قسراً، ويتحولون شيئاً فشيئاً إلى أهداف دائمة للقمعيين والارهابيين في زمن عربي أرداً مما نتصور، وضمن منطق لا يقبل العقل او الحوار، ليسود كلام رجل الدين ذاك الذي قال في احدى الاحتفالات في جنوب لبنان ما معناه: «سبحان من سخر لنا الغرب ليصنع لنا الطائرات والسيارات وينشغل في الامور المادية الدنيوية فنتفرغ نحن للشؤون الروحية وحدها وعبادة الله»!□



قصيدتان

حافظ خير
شاعر من السودان

أيها الطيرُ المُنصتُ، إنّها . .
امرأةٌ بمساميرَ صامتةٍ في كل حذاءْ
أخذتْ يديك للبحر كي تغتسلْ
وأنتَ منديلها، تردُّك عن وجهها
كلما جفّتِ الأرضُ، والمزاجُ اعتدَلْ. □

عادات

أيهذا الصديق . . يا موحشي بالغياب
أيُّ بلادٍ تلك التي علمتنا لُعبةَ الموت:
كوبانِ من الشاي، والكونُ يتسلّلُ أبخرةً في الضياءِ المُمِلْ
البنات ينهضن في سراب الطريقِ،
ترتجفُ الشرايينُ، والجرحُ لا يندملْ.

قال المصابون بالصوتِ:

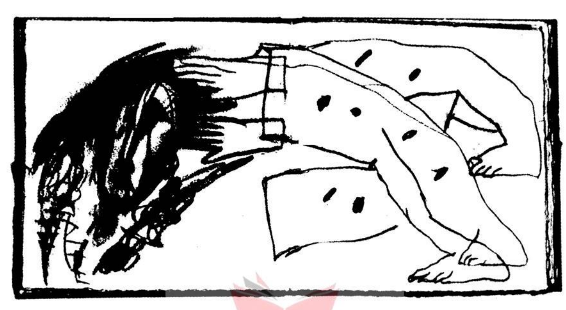
هـ با ء أ

قال الصمتُ: كل الحروف التي تتناسلُ أعرفها
أرختْ جدائلها في حديقتي المثمرةْ . .

آة . كلما انتصف الشوقُ وعزَّ اللقاءْ
تدحرج الوقتُ صاحياً في الليالي المقمِرةْ. □

الطيور

■ في البلاد البعيدهْ . . .
حيثُ تَرجُّ اللغات قليلا،
قبلَ أن تشرع في اكتشاف الكلامْ.
يتغير الطقسُ دوماً
وتختلفُ البناتُ كالمزاجات الهوائيةِ
تعتدلُ الطيورُ في مشيتها
حين تنسيَ جناحين كانا لها
خلف ظلِّ الجبلْ!



سيرة بغدادية يوم عاصفة الصحراء:

الليالي للصواريخ والرعب والفردوس للباسطرما والكلاب

■ في الصفحات التالية، تسجل خبيرة الآثار الاستاذة العراقية نهى الراضي يوميات الحرب في العراق. وكما يضيء الأدب جوانب الحياة المهملة والمتروكة من الوعي الرسمي، تجيء هذه اليوميات لتسلط، بدورها، الضوء على النسيان. فنلمح، في لقطات مكبرة، كائنات الحرب السرية وهي تحث الخطى خارجة من عتمة الظلام الى نهار الرواية.

هذه المذكرات يبدأ يومها الأول في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ وتنتهي في ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٩١□

نهى الراضي



■ في الليلة الأخيرة، قبل اندلاع الحرب، ذهبت إلى فندق الرشيد لاستلم الرسالة التي بعثها (شارلي) من قبرص بواسطة (بوب سمبسون). و بعث معها علبة تحوي بعض بذور الخضار الايطالية. وذلك يعتبر خرقاً صغيراً في حصار الحُلفاء علينا.. استلمت البذور وأنا أفكر في أنني سوف أزرعها عندما يجري الماء في أنابيبنا ثانية.

كانت الغرفة مليئة، حافلة بالصحافيين وهم يتحاورون دون انقطاع بانتظار اللحظة الأخيرة... وبكامل الثقة أخبرت (بوب) أن الحرب لن تقع... أجابني: «أتمنى لو استطيع تصديقك!».. لست أدري لِمَ كنت واثقة بأن الحرب لن تحدث!.. موقفي الواثق هذا جعل الأهل والأصدقاء يتابعون الاتصال عبر الهاتف لسماع كلماتي المطمئنة حتى اليوم الأخير.. ربما كانت ثقتي ناتجة عن انني لم أصدق أنه لا يزال هناك في هذا الزمن الذي نعيشه، قادة وزعماء على درجة من السذاجة يعتقدون بأن الحروب يمكنها أن تحل المشاكل أو القضايا المستعصية... لقد اخطأت تقدير غرائز الانسان الوحشية والمدمرة، كذلك كنت أجهل أن هناك خطة مبيتة ضدنا، خطة قوات التحالف.

لسنا بملائكة أبرار، ربما كنا نحن من ارتكب الخطأ الأول في البداية، ولكن الخطأ لا يمكن اصلاحه بارتكاب خطأ أكبر منه... هذا هو اعتقادي بعد أن شاهدت بعيني ثورات ثلاث في العراق، وحرب السويس في مصر وجزءاً من الحرب الأهلية في لبنان. جنون البشر لا حدود له... أما في حالتنا هذه فقد رفض الجميع التفاهم على الحل الوسط. وكما يقول المثل «اليد الواحدة لا تصفق».

في الشهور الستة، ما قبل الحرب، كانت الأيام كلها متشابهة، نهارات تعقبها ليالٍ، ولكن مع بدء الحرب اصبح كل شيء نهاراً واحداً طويلاً.

لا املك تقويماً (روزنامة) لسنة ١٩٩١، لذلك لا أتمكن حتى من تأشير مرور الأيام. كلها اصبحت واحداً.

اليوم هو اليوم الثالث للحرب... الآن فقط أدركت الواقعة! استغرق الأمر أياماً ثلاثة لكي أعي أن الحرب وقعت حقاً، وان ما يمر بنا ليس حلماً عابراً.

قررت كتابة مذكراتي لأسجل ما يحدث لنا.. ان احداثاً كهذه لا تقع كل يوم.

اليوم الأول

أيقظني في الساعة الثالثة صباحاً هدير القنابل المتفجرة المرعب.. أطلقت صيحة حزن عالية لا تزال ترن في مسمعي... لم أصدق ان الحرب بدأت... خرجت إلى الشرفة وشاهدت السماء مضاءة بأغرب العروض النارية، وكان الضجيج لا يوصف... كلبي (سلفادور دالي) كان ينبح بشدة وهو يدور حول الدارين (داري ودار أخي) ورأسه مرفوعة إلى السماء.

عبثاً حاولت الحصول على إجابة في التلفون من أمي (ما) أو من خالتي (نيدل)... اتصلت بـ(سهى) التي أجابت بصوت خافت من ملجئها تحت الدرج وأمرتني ان اطفىء النور... سألتها: «لماذا؟.. والشوارع كلها مضاءة؟».

(سهى) حريصة وكفوءة، لقد قامت بتأطير كافة النوافذ والأبواب في بيتها بالشريط اللاصق منعاً للتسرب النووي، وجعلت من غرفة خالية من النوافذ تحت الدرج ملجأ ملأته بالتجهيزات والمؤن الضرورية. أما أنا فقد رفضت اتخاذ هذه الاحتياطات ولكن (ما) أصرت عليها وأجرت مختلف التصاميم على شبابيكي وقصرت في الشبابيك الأخيرة لأن خزينها من الشريط اللاصق نفد.

جازفت بالخروج فيا بعد لأطفىء ضوء الكراج يتبعني الكلب وهو في أشد حالات الهياج. ولم يكن هناك داع لهذه المجازفة لأن التيار الكهربائي انقطع بعد فترة قصيرة جداً أعقبها انقطاع التلفون.

لقد انتهينا!... أي أمة في العصر الحديث يمكنها المقاومة بدون كهرباء أو اتصالات؟

شكراً للسماء على خزينتنا من علب الكبريت الباكستاني.. كم أفكر فيك يا (هاندي) وأنت مسمّرة إلى التلفزيون في (كراتشي) هل أنت معنا؟ لماذا نعاقب هكذا؟

تطايرت شبابيك (ما) و(نيدل) المواجهة للنهر مع سقوط القنبلة الأولى. لحسن الحظ كانت الستائر مسدلة والا لأصابهم الأذى الشديد من الشظايا.

كان جرو (بينغو) أول خسائرنا في الحرب، وقد قتله الزجاج المتطاير في الحديقة. (بينغو) هي أم سلفادور دالي. جاء (الهام) و(ميرا) والأولاد في الصباح. ذهبوا ثم عادوا ليلاً للمبيت معنا.

اليوم الثاني

(ميرا) و(الهام) والأولاد غادروا بغداد الى خانقين لاعتقادهم ان خانقين ستكون أكثر أماناً من بغداد.

(أمل) و(منير) فقدا كل زجاج البيت في الليلة الأولى، لأن دارهما أيضاً تقع في مواجهة النهر ولذلك انتقلا الى دارنا. (ما) و(سهى) تقضيان الليل معنا وفي النهار تغادران الى داريهما لفحص ما أصابهما. (نيدل) تفضل البقاء مع ولدها (منيّر). اما جاري الأقرب (م. ع. و) فيأتينا وقت العشاء لأن زوجته لا زالت في لندن.

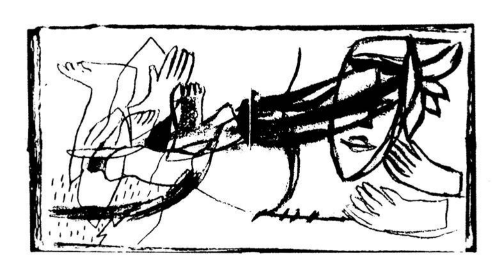
جاء (سعيد) وأخذنا أنا و(سهى) لتناول الغداء مع (طه).. (سعيد) يرفض اعطاءنا قطرة من البنزين رغم حيازته على خزين جيد منه... تمتعنا بالكباب والبيرة. يبدو أن الحوادث لم تهز (طه) و(سعيد). فهما يظنان ان الأمور تسير بنا جيداً. لا أفهم كلامهما هذا!

في طريق العودة لم تصادفنا أي غارة جوية.. (سلفادور) لا يزال يكثر النباح لدى سماع صفارة الانذار.

(*) الرسوم لضياء العزاوي

(*) كتب هذا النص بالانكليزية وترجمته سانحة أمين زكي.





اليوم طافت شاحنات حكومية في انحاء بغداد لتوزيع الخبز على الجماهير المحتشدة.

اليوم الثالث

قضيت هذا اليوم مع (سهى) نرسم في الاستوديو بمرح، والحرب يشتعل سعيرها في الخارج. يا ترى من أين يأتينا هذا الشعور بالانفصام بينما تصطك أسنان الآخرين من الرعب؟... شاهدنا عصر هذا اليوم صاروخ (سام) وهو ينفجر في الجو... وضبطت (منذر بك) خالي، متلبساً بركوب دراجة حفيده ذات الثلاث عجلات وقد تكور فوقها وركبتاه تكادان تلامسان ذقنه، وهو يتابع الدوران في الممشى، وقال لي انه يرفه عن نفسه وان فراق أحفاده أوحشه كثيراً ويشعر بأنه لن يراهم مرة ثانية!

في الليل شب حريق في البستان، ظننا في بداية الأمر انه من جراء القصف، ولكن فيما بعد اكتشفنا انه من جراء (فليح). لقد حاول (فليح) ان يحرق بعض الخشب الجاف قرب هيكل نخلة ميتة لكي يحصل على فحم. استعملنا كل خزين الماء في الدارين داري ودار أخي (دود) لكي نطفيء الحريق بالاضافة إلى مطفأة السيارة. والآن نحن بدون ماء و (فليح) بدون فحم...!!

اليوم الرابع

في الخامسة صباحاً أيقظتني غارة جوية! ذهبت ألى دار (زيد) لأترك لهم خبزاً ورأيت هناك عمتيه المسنتين. تبدوان بعمر يتجاوز المئة عام. كانت واحدة منطوية على الموقد والأخرى بجانبها لا تكف عن الثرثرة.. وبسبب الخوف من الغارات الجوية المتواصلة قررتا عدم الصعود إلى غرفة النوم ليلاً، بل فضلتا النوم بالملابس اليومية على أرائك في غرفة الجلوس، بدلاً من النوم على السرير والفراش والوسائد.

يبدو انهما لا تدركان ما يدور حولهما من احداث جسام. شغلهما الشاغل هو احتياجاتهما الآنية، وبرغم الشيخوخة والضعف فانهما مبعث تسلية وحيوية... تلفون العمتين لا يزال يعمل، لذلك حاولت الاتصال بـ (سهى) و (آسيا) لأن دارهما تقعان على النهر في الجهة المقابلة لمصفى (الدورة). ان الوضع تعيس في تلك المنطقة لأن السماء مغطاة بسحابة سوداء هائلة.. لم يجبني أحد على التلفون.



أخيراً تمكن (منذر بك) من تشغيل المحولة في بيته وهو يغذيها بالبنزين النادر والثمين. وقفنا نحن حوله، عشرة إشخاص بأفواه مفتوحة عجباً من رؤية ماكنة تشغيل والصوت الذي يصدر منها.. من كان يظن، انها أربعة أيام فقط مضت على بدء الحرب وها نحن نتعجب من رؤية آلة عصرية أو جهاز كهربائي يعمل، انها تبدو لنا كأشياء من المريخ... بدأت (سهى) تجربة عمل (الباسطرما) من اللحم المخزون لديها في المجمدة.

بدأ الجليد يذوب في المجمدات ولكن من حسن الحظ ان الجو لا يزال بارداً.

(سلفادور) يهاجم (م. ع. و) دائماً والثاني يغيظه بالتلويح بعصاه... علينا الآن مرافقة (م. ع. و) في كل مرة يدخل أو يخرج من البستان... عند المساء أطلقت معدة (م. ع. و) كركرة عالية ظننتها (ما) غارة جوية.

طبخت البطاطا في الموقد على الحطب حفاظاً على الغاز. تذوقنا في البطاطا طعم الدخان... اعترف ان البطاطا احترقت.

السماء في الليل لوحة ساحرة.. النجوم تشع بوضوح ما بين نيران

القصف وصوت الانفجارات المستمر. ارجو ان لا يشتد قلق أخي (دود) وأختي (سول) علينا. يجب ان يعرفا أننا من المتشبثين بالحياة وان لدينا القابلية للبقاء.

كان عشاؤنا سمكاً ورزاً بعد خليط الشراب الديناميتي من عصير البرتقال و (الاكوافيت) وغيره.

اليوم الخامس

أهداني (منير) تقويماً، انه اليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني/ يناير، اللوحة الزيتية التي أرسمها لـ(منذر بك) وعائلته قاربت ان تكتمل.

أخيراً أصلحوا دراجتي الهوائية، انها جديدة لم تستعمل من قبل ولكن اطاراتها مثقوبة، قلت للعامل المصلح أنها جديدة، فأجابني أن كل الدراجات الجديدة هكذا... هل هناك من يقوم بثقب الاطارات قبل ان تغادر الدراجات المعمل؟

انها دراجة عراقية الصنع تسمى (بغداد). لحسن الحظ لم يطلقوا عليها (عشتار) لأن هذا الاسم قد ابتذل. لقد أطلقوا اسم عشتار على ثلاجات ومجمدات ومدفآت وعيدان الثقاب وحتى الفنادق. أي شيء نذكره، نجد اسمه عشتار.. عشتار تلك الآلهة الشامخة المتكبرة أتراها توافق ان يكون اسمها مقروناً بهذه الأشياء الشائعة؟ يبدو أن خيالنا ضعيف لدى اختراع الأسماء.

معدة (م.ع.و) أطلقت كركرة عالية ظنتها (ما) غارة جوية

نحن الآن نستعمل البستان كمرحاض، وبهذا نسمّده، ونقتصد الماء الذي انقطع عن الجريان في الأنابيب أيضاً. (جانيت) تأتي الينا كل يوم. اخبرتنا ان الناس يهربون إلى القرى لخوفهم ولأنها آمن مكان في وقت الحرب. نظرت حولها ثم أردفت تقول: «ان بيتكم كأنه الريف... انه أحسن وأجمل مكان.. يا لحسن حظكم!».

كم كانت محقة في قولها! لن نغادر هذا الفردوس... انه فردوس بحق!!!

تفتش (جانيت) عن رفقة لها في الليل. انها خائفة... (باسل) مر علينا اليوم.. نصحته ان يتعلم طرق الزراعة البدائية لأننا عدنا إلى العصور المظلمة.. يجب ايجاد طريقة لسحب الماء من النهر.

(باسل) طبخ كل ما لديه من خزين في المجمدة ويطعمه للقطط. أما زوجته وبناته فقد فقدن الاهتمام بأي شيء.. الناس يتركون المدن فعلاً ويهاجرون إلى الأرياف حاملين معهم المجمدات المليئة بالطعام في ناقلات صغيرة، وفي الطريق يأكلون ما يذوب من الطعام بعد طبخه في العراء.

أي جنون هذا... مَن مِن البشر مثلنا؟ نهرب من القصف ومعنا المجمدات المليئة بالطيبات!

أهل العراق عرفوا عادة تخزين الأطعمة منذ القدم، خزن الطعام أصبح عادة وطنية، ولأننا لا ندري متى تتواجد الحاجات في السوق، نشتري كل ما يتوفر وبكميات كبيرة، أغلب الناس تدخل (الطابور) بصورة تلقائية حالما يتكون الصف دون معرفة ما هو موجود في النهاية الثانية للطابور، سواء كان صبغ أحذية أو صابوناً أو طماطم أو آلة أو



أداة عديمة الفائدة.

(نيدل) تعلن عن نفاد مخزونها من الدجاج عندما يصل عدده إلى العشرين في المجمدة.

اليوم السادس

استيقظت في الساعة الخامسة صباحا عند بدء القصف الصباحي الروتيني... انتهى القصف بعد ساعة واحدة، ذهبنا لشراء البنزين ووقفنا في الطابور واستلمنا عشرين لتراً... (أمل) التي تنسى نظارتها دائماً، رجعت بسيارتها إلى الوراء واصطدمت بجدار خلفها... خلال أيام قليلة انهار البلد وتحطم... يقال ان كل شيء خارج مدينة بغداد يبدو طبيعياً... يا ترى كم من الزمن سنتمكن من البقاء تحت قصف مستمر كهذا؟

في عصر هذا اليوم جاء (موفق) و(علاء) تصحبهم (هند) وهي تبكي وتصرخ بصورة هستيرية. لقد ظلّت (هند) طيلة هذه الأيام تبكي وتصرخ وكانت تلح لدى كل غارة على ان يصحبها الجميع وينزلوا إلى السرداب ويبقوا فيه. والآن تريد ان تسحب أفراد الأسرة جميعاً (الجدة والأم والأخ والخطيب) معها إلى خانقين. رفض الجميع الذهاب إلى مدينة خانقين وكان البديل المجيء الينا. (مآرب) المسكينة ليست على ما يرام وتشكو من عينيها ولا ترغب أن تفارق حمام بيتها. في الأيام الاعتيادية كانت تستحم خمس مرات في اليوم وتدهن جسدها بالكريم المرطب بعد كل مرة.

توجهت نحو سيارتهم، و(هند) لا تزال تصرخ. خاطبتها بحزم وصرامة وأخبرتها عن القانون الذي يسري في بيتنا الآن، وهو لا بكاء ولا صراخ لا تدخين ولا أسلحة نارية!

استمرت هند في صراخها: «أنا خائفة! لا أريد أن أموت!» ولم تتوقف عن البكاء. غادروا بيتنا بتردد... اليوم هو اليوم السادس، ارجو أن نحصل على الماء غداً.

اليوم السابع

حدث الأمر الجلل وشربنا البيرة دون تبريدها بالثلج! نظفت المجمدة وأخرجت ما بدا لي وكأنه طن من مختلف انواع الخبز. يبدو ان كل ما لدي في المجمدة هو الخبز والثلج والعظام لسلفادور... (أسماء) لديها الكثير من الدجاج بحيث انها أعطتنا بعضاً منه وأخذت تشوي الباقي بكميات كبيرة وصارت (نوفة) تمشي وبيدها قطعاً من الدجاج تأكلها بدلاً من قطع الشوكولاتة وتحتفظ بالشوكولاتة لأيام أشد.

(ما) اتبعت وصفة (سهى) لعمل الباسطرما وبدأت بتحضيرها. ورغم ان أحدنا لم يجرب صنع الباسطرما من قبل فإننا حسبنا أنها أحسن وسيلة لحفظ اللحم لدينا.

فرمنا اللحم النيء ومزجناه بأنواع مختلفة من التوابل والملح، وحشونا كل ذلك في جوارب نايلون بدلاً من الطريقة المتبعة، وهي حشوها في امعاء الخروف، لعدم توفر ذلك.

عادت ماكنة (سهى) اليدوية لفرم اللحم الى الحياة والعمل... استخدمنا بيت (دود) كمبردة كبيرة لوضع الباسطرما فيه. يا لها من إهانة لذلك البيت الجميل وكل المرمر الرائع الذي يحويه.. الخزي يغطي جميع المناضد والموائد والباسطرما معلقة تتدلى فوقه.

يجب أن نأكل كميات كبيرة من الطعام لئلا نرميه في الزبالة... ان ذلك يؤدي الى زيادة الإفراغ من الامعاء.. وكل ذلك يجري في الحديقة... نخاف استعمال الحمام لئلا تفيض المجاري التي عرفت الآن انها تشتغل بالكهرباء... كنا ننظر الى هذه الأشياء وكأنها بديهيات... موجودة دائماً.. يا ترى هل فكر الحلفاء في هذا كله لدى تخطيط القصف الجوي؟

لا أظننا سنرى الكهرباء ثانية الا بعد زمن طويل... بدأت اليوم أحرق النفايات في البستان لتنظيفه من كل المواد القذرة. (أمل) اشتركت في العمل وهي تنتعل حذاءها ذا الكعب العالي، تنتعله حتى أثناء جمع الأغصان كحطب.

الشائعات تقول أننا سنواجه ليلة رهيبة اليوم. انها الليلة السابعة... ماذا؟ أيظن (بوش) انه إلة آخر؟ لكن لحسن الحظ الغيوم غطت السماء... أهو (الله) في جانبنا هذه الليلة؟

سمعت ان بعض صواريخنا ما هي الا دمى لخداع العدو. حيلة تدريب روسية. أفرحني الخبر كثيراً.. هيا! فلنربك الأعداء بالدمى! سقط صاروخنا على (تل أبيب) اليوم. حبذا لو ضرب الأهداف العسكرية وليس المدنية، ولكن أتراني أطالب بالدقة التامة في القصف؟ انها الحرب.

وصلنا اليوم الماء في الأنابيب، ولكن الضغط كان ضعيفاً غير كاف لملء الخزان على سطح المنزل... لا بأس! من يشكو من ذلك؟ على الأقل يمكن ان نملأ الجرادل والسطول بالماء... يجب علينا ان نغلي ماء الشرب.

انتهيت من رسم لوحة (منذر) وأقمنا حفلة صغيرة لرفع الستار عنها.. أعجب بها الجميع وأعلنوا أني استحق جائزة عليها.. فتحنا زجاجة شامبانيا وأكلنا ملوخية والكثير من الأطعمة الأخرى... حبذا لو انتهى خزين الطعام لدينا لكي لا نأكل كثيراً.

غادرت أخت (م. ع. و) هاربة من منزلها هي وزوجها إلى دار أخيها. معنى ذلك زيادة عددنا اثنين في وقت العشاء. لقد تركت بيتها وهي ترتدي طقماً اخضر اللون وهو كل ما تملكه من ملابس الآن.. أثناء الغارات الجوية يجلسان متلاصقين معاً. انها لطيفة ولكنها تكاد لا تقول شيئاً، أما زوجها الذي لا يكف عن الكلام فانه أطرش لا يسمع شيئاً... أظنه من آخر من بقي من الشيوعيين في العراق.. في شبابه كان مشهوراً بإجادة غناء المقامات العراقية.. وقد طربنا لصوته الجميل وأغنياته التي تجعل رؤوسنا تتحرك معها وتبعث الوسن في العيون.

شكراً للسماء على علب الكبريت الباكستاني

اليوم الثامن

السكون سائد في الجو. انها الساعة السادسة صباحاً ولا غارة جوية هناك. في الليلة الماضية أكلت كثيراً ولم أتمكن من النوم بسبب شعور الحزن الذي يغمرني واعتقادي بأن العالم بأجمعه يكرهنا ويسره تدميرنا وخرابنا. أفكار مؤلمة حزينة انتابتني... يبدو اننا قد قضمنا لقمة أكبر من افواهنا... (ما) لديها نظرية الآن وهي ان العالم يحكم من قبل أصغر دولتين وهما الكويت بأموالها وبترولها واسرائيل بنفوذها وعقلها... يا له من عالم جائر! هل اننا وحدنا من ارتكب خطأ؟

أنحن فقط نرتكب الأخطاء؟... كم من الدول فعلت ذلك! روسيا وما فعلته بالافغان، تركيا وغزوها لقبرص، اسرائيل وغزو فلسطين ولبنان... لم يهاجمها أحد هجوماً قاصفاً مميتاً كما نقصف نحن الآن... بل إنها لم تتعرض حتى للعقوبات على ما ارتكبته.

مر العراق خلال تاريخه الطويل، بفترات صعود وهبوط.. ولن تكون هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة (سول) تقول ان تاريخنا مليء وحافل ومشحون. بغداد أصبحت على الخارطة الآن ولن احتاج ان افسر للناس الآخرين أين يقع مسقط رأسي.

لقد حلمت ليلاً مرتين قبل الحرب... رأيت جنوداً اميركان بملابس القتال وهم يهرولون في شارع (حيفا) في بغداد ثم يصطفون في الشوارع الجانبية بعضهم يقبل بعضاً فرحاً، وكانت تقودهم فتاة ترتدي ملابس حمراء وهي تعدو امامهم بسرعة فائقة، ثم تبدل المنظر فجأة... رأيتني أخرج من البيت وأجد أمامي كل شيء خالياً جافاً كالغبار. تحيطني الرمال وأنا وحيدة ولكنني قلت لنفسي: «لا بأس.



سأزرعها وأبنيها وأجعل منها أجمل حديقة!». بعد أن صحوت من النوم، أخافتني تلك الوحدة الموحشة في الحلم. ترى هل سأكون الوحيدة على قيد الحياة ويختفي الآخرون؟

اليوم التاسع

الشيء الغريب الذي حدث لي أنه لم يعد باستطاعتي قراءة كلمة واحدة منذ ابتداء الحرب، ولا حتى رواية بوليسية! ولكنني تمكنت من كتابة هذه المذكرات وذلك ما لا أفعله عادة. (ما) التي لا تتوقف عن الحياكة عادة، لا تستطيع ان تحوك الآن وعلى العكس من ذلك (سهى) و(أمل) وهما لا تملكان مهارة في هذا المضمار، بدأتا الحياكة.

اما (اسيا) التي تبدل ملابسها مرتين في اليوم، فقد اصبحت لا تبدلها إلا مرة كل يومين أو اكثر وفوق ذلك اصبحت تنام في ملابسها اليومية في الليل، كما خبأت جميع المقصات في بيتها خوفاً من أن يستعملها أحد لمهاجمتها. وعندما سألتها عما ستفعل بالسكاكين، كان جوابها الوحيد هو رفع كتفيها دون اهتمام. لقد وضعت مجوهراتها في علب مبطنة بأكياس النايلون ودفنتها في الحديقة، وهي واثقة من انها ستتذكر مكان البقعة فيما بعد.

كم هي مضحكة وغريبة استجابات الناس للمصائب! في الليلة الماضية أخرجت فستاني الأحمر لكي ألبسه، ثم ذهبت للغسيل بحصتي من إبريق الماء. خرجت من الحمام ولم أجد الفستان. لبست فستاناً آخر. وفي الصباح فتشت عن الفستان الأحمر مرة أخرى فلم أجده.

ماذا فعلت به يا ترى؟ لقد اختفى.

اليوم سألتني (أبلة جليلة) وهي جالسة بوقار عثماني أصيل وصفارات الانذار تعوي وتصرخ في الخارج: «لم لا نأخذ قطار طوروس السريع ونذهب إلى استامبول؟».

انها تظن ان القطارات تسير رغم ان كل شيء آخر قد توقف. لقد اعترى سمعها شيء من الصمم. ومنذ أن غادرت دارها وذهبت إلى دار (طلال) تبدو ساهية اكثر من عادتها. بيتها يقع على خط النار قرب دار (هنري). مسكين (هنري) لقد مررت عليه لكي اقنعه ان يترك بيته ويأتي معنا. فتح لي الباب وكان وجهه شاحباً كالأموات، ولكنه رفض مغادرة داره. وكان خوفه الأكبر ان تصيبه غارة جوية وهو بدون بنطلون. لذلك كان ينظم وقت ذهابه إلى الحمام.

خوف (هنري) الأكبر أن تصيبه غارة جوية وهو بدون بنطلون

(م. ع. و) ماهر جداً في الأعمال اليدوية وفي تصليح الأشياء المكسورة ولكي أجعله يستعمل وقته بصورة عملية بناءة، أعطيته ساعتي الجدارية لكي يصلحها، تذمر في بداية الأمر لكنه أصلحها وعادت تعمل. ان صبره مع الأدوات الميكانيكية لا نهاية له، ولكنه فاقد الصبر مع الحياة والناس... لقد وعدنا بأنه سيأكل ملعقة من الغائط احتفالاً اذا انتصرنا على اسرائيل. وفي كل مرة تختلف الكمية ما بين ملاعق قليلة و صحن كامل، حسب تأرجح الأنباء الحسنة والسيئة... اليوم أعلن انه سيأكل عشرة صحون اذا احتفظنا بالكويت!

أصبح وضع الماء اسوء من قبل وبدأ الناس الغسيل في النهر، رغم صعوبة ذلك بسبب الجريان السريع في هذا الوقت من السنة، وأيضاً انحدار الضفاف وارتفاعها العالي. قيل انهم احتلوا جزيرة في الخليج العربي لا تظهر الا عندما يكون البحر في حالة الجزر وتختفي في المد ولا نعرف حتى اسمها.

اليوم العاشر

(بوش) يقول: «اقرأوا شفتي».

(بوش) أين هي حربك السريعة المعقمة التي لن تستمر اكثر من أيام قليلة؟ هذا هو اليوم العاشر ولا نزال أحياء، ولكننا دمرنا تماماً. أظنني لن ادع قدمي تطأ الغرب بعد الآن. هذا شعوري أنا التي درست وتربيت في الغرب، فماذا سيكون يا ترى شعور الآخرين؟ ربما سأذهب إلى الهند فقط. لقد نشأنا وكبرنا في تلك البلاد وذلك يفسر تعلقي الوثيق بها. أو لعل السبب ان الهنود هم على درجة كبيرة من التسامح ولن يرفضوا معاشرتنا نحن أهل العراق.

(سهى) أصلحت دراجتها الهوائية اليوم. دارجتها جديدة واطاراتها مثقوبة أيضاً. ركبنا دراجتينا وانطلقنا في الشوارع وأحدثنا هزة مثيرة ولكنها ودية.. اقترب منا رجل يركب دراجة أيضاً وقال ان لديه في البيت سيارة مرسيدس... وهتف آخر قائلاً: «ما هذا؟ أنحن في باريس!». وعلق رجل غاضب: «ما عندنا بنات يركبن الدراجات». صحت بوجهه: «انك أحمق!». وأسرعنا في طريقنا..

(نوفة) تقول أنني أبدو وأنا على الدراجة كأنني «أي. تي» لأني ألتف بعدد كبير من لفافات العنق والأوشحة، وهي تتطاير في الهواء خلفي. أو ربما أبدو كالساحرة التي تطير على سعفة النخيل.

غداً يصبح عمري خمسين عاماً، أشعر بكآبة مريرة وحزن شديد لوجودنا في هذا الموقف المأسوي.. والناس يموتون من دون سبب.. كيف يمكنني ان احتفل وأفرح؟

(م. ع. و) يقول أن بامكاننا الحصول على القوة الكهربائية لو أجرينا الاتصال مع تركيا أو مع الأردن، لأن لدينا دائرة يمكن ربطها معها. والآن الشائعة السارية تقول أننا سنحصل على الكهرباء من





إيران. ولكن أي دائرة؟ وبماذا تربط الدائرة الكهربائية اذا كانت محطات الكهرباء قد قصفت؟

لا كلام للناس سوى الحديث عن الطعام، أثناء تناول الغداء نتحدث عما سنأكل في العشاء.. لقد بدأت الثلاجات تخلو من الطعام شيئاً فشيئاً... أثناء زيارتنا للأصدقاء يمنحنا بعضهم دجاجة مع بعض الخضار كالفاصوليا الخضراء، لنأخذها إلى البيت. لقد طبخنا جميع اللحم الموجود في بيوتنا المتعددة. أما الباسطرما التي علقناها في بيت (دود) فان رائحتها تغيرت وتفوح من البيت رائحة كريهة.

(هالة) وعدت ان تقدم لي سطلاً من الماء هدية ليوم مولدي!

اليوم الحادي عشر

كنت أرجو أن يتغير مزاجي بمناسبة يوم مولدي ولكن هيهات! الحزن والكآبة يسيطران عليّ... يوم مولدي يصادف اليوم نفسه لميلاد الموسيقار (موزارت)... دعونا عدداً كبيراً من الأصدقاء وقد حضروا جميعهم ومعهم آخرون أتوا دون دعوة.. المشروبات كانت تتدفق.. تبول شخص ما على أرضية الحمام. اني واثقة من انه ذلك الشخص الفظيع (مازن) وهو أحد الذين حضروا دون دعوة.

(فاضلة) قضت الليلة عندنا وطلبت من (يعسوب) ان يخرج معها الى البستان لقضاء الحاجة. ورغم سنوات الزواج الطويلة كان منظرهما رومانتيكياً لطيفاً وهما يسيران نحو الحديقة وذراعها متعلقة بذراعه، والبدر يبدو كبيراً و رائعاً.

انستنا بحكايات (فضل) عن المخبأ من الغارات الجوية قرب دارهم. انها تذهب الى المخبأ كل ليلة مع (ماري) الخادمة الهندية، من الساعة السادسة مساء حتى السابعة من الصباح التالي، إذ تفتح آنذاك الأبواب المقفلة. والملجأ يتألف من ثلاث طبقات، حسب أهمية ومقام الأشخاص. الكبار في الطبقة السفلى، وفي كل طبقة توجد ثلاثة صفوف من الأسرة. وأثناء القصف الجوي يصيب (فضل) القلق الشديد وهي مصابة بمرض السكري، يرتفع السكر في دمها وينتابها الخوف ويرتجف جسمها كله.

يبدو اننا سكان هذا البيت من ذوي الجلود السميكة كجلد وحيد القرن، إذ لا يوجد بيتنا من يخاف. وقد حاولنا صرف انتباهها عن القصف المدوي في الخارج، فالغارات كانت شديدة هذه الليلة، وهي اعتادت على السكون في ملجئها، حيث انه بعد اغلاق الأبواب تعود لا تسمع سوى اصوات غناء الجنود.

اليوم الثاني عشر

حصلنا اليوم على الماء من حنفية الحديقة، ولكن الضغط واطيء لا يصل إلى حنفية المطبخ. ملأنا جرادل وسطول كثيرة ورفعناها إلى خزان الماء في السطح. كنت املأ السطل و(منير) يسحبه بالحبل إلى السطح. سحبنا أكثر من ثمانين جردلاً. كان العمل منهكاً وقد بللت ملابسي تماماً. عدنا إلى العصر الحجري!

اليوم الثالث عشر

بدأت اطبع على الالة الكاتبة في ضوء الشمعة ولم أتمكن من رؤية الكتابة بوضوح. الأوراق هذه سوف يصعب قراءة كلماتها في الغد... اليوم ذهبت (ما) بصحبة (سهى) إلى السوق لشراء فوانيس، وداهمتها غارة جوية. استمر الناس في عملهم في السوق ولم يحاولوا العودة إلى بيوتهم بل ان الزحام كان شديداً إلى درجة ان (ما) و(سهى) ضيعتا بعضهما في السوق.. يبدو ان أهل العراق لا يخافون شيئاً!

لقد قصفوا الجسر في الباب الشرقي، وأدى الاهتزاز إلى انفتاح جميع ابواب الأبنية المجاورة وتحطيم الشبابيك، وغطى الزجاج المكسور كل مكان.. الفوضى شاملة!

محل (أمل) يقع قرب الجسر تماماً وقد أصيب من جراء القصف. وذلك يعني ان بيتها ومحلها تهدما من جراء القصف... انها قوية جلدة ولا تشكو ابداً.

ذهب (منذر بك) لكي يرى ما حصل لعمارتنا هناك... وقف امام العمارة وبكى.. لقد فكر في والده (جدي) وما الذي كان سيشعر به لو انه رأى هذا الأمر.

اليوم يصادف يوم ميلاد (سحب). ذهبنا جميعنا إلى دارهم للغداء. ولدى مرور السيارة فوق جسر الأعظمية كنا نشاهد أعمدة من الدخان ترتفع من كل الجهات. يبدو انهم يحرقون اطارات سيارات لتضليل العدو.. يا له من تضليل!... اخبرنا (سميح) ان أحد الصواريخ سقط في حديقة فندق (الرشيد) ولم ينفجر.. أدى ذلك إلى تزاحم الناس بصورة جنونية للحصول على قطع منه للذكرى! ثم وصلت قوة من الأمن لتحوطه وتمنع اقتراب الناس منه.

حضر (منذر بك) الدعوة في بيت (سحب)، بعد أن رأى عمارتنا المهدمة وآثار القصف الأخرى في الباب الشرقي وكان شديد الاضطراب والقلق يقول ويكرر مراراً: «لقد ضاعت بلادنا!». ثم يسأل (ما): «ما الذي سيحدث لنا الآن؟». (ما) كانت تهدىء شقيقها الأصغر بطريقتها الفلسفية الخاصة وتقول: «كل شيء سوف يعاد بناؤه وتشييده. كما دمّرت البلاد سوف تبنى ثانية!». وكان

حشونا الباسطرما في جوارب نايلون بدلاً من أمعاء الخروف

يجيبها: «ولكنني لن أرى ذلك!». هل نحن على أبواب حرب ذرية؟ انا لا أشعر بخطر الموت من ناحيتي على الأقل، وكأنني واثقة من اني سوف أنجو بطريقة ما.

سبع وعشرون ألف غارة جوية شُنت علينا لحد الآن، هل جن العالم؟ ألا يدرك الغرب ما يفعل؟.. اعتقد ان (بوش) رجل مجرم! لقد خربت بلادنا تماماً.. من أعطى للأميركان الحق بهذا القصف الرهيب؟ لِمَ يكرهوننا إلى هذه الدرجة؟ لو أن الكويت كانت تقوم بهذه الغارات ضدنا لفهمت ذلك، ولكن العالم كله؟ هل أجمعوا كلهم على كرهنا؟

ان حياة الفلاحين هذه التي نعيشها الان صعبة جداً، العمل لا ينتهي... أنا أول من يستيقظ صباحاً، أهبط من غرفتي في الطابق الأعلى لأنني أصررت على البقاء فيها. أنزل وأسمع شخير النيام وأرى (سهى) وهي تغادرنا كل صباح، لتذهب الى بيتها للغسيل فهي لا تحب طريقتنا البدائية في الغسيل.

نحرق اطارات المطاط والعدو يستعمل الكومبيوتر

لكل منا وظيفة يقوم بها الآن. وظيفتي هي جمع الحطب وتنظيف الموقد وتحضير الماء لصنع القهوة، ثم اشعال النار في الموقد عند المساء. كذلك أساعد في الكنس وتنظيف المطبخ حيث نتناول جميع وجبات الطعام.

أما طبخ الطعام فهو وظيفة (سهى) و(أمل) وأحياناً تشترك معهما (ما)، رغم ان وظيفة (ما) الأساسية هي عمل الخبز والكيك.. ومن جملة واجباتي أيضاً تحضير الشوربة والسلطة. أقوم بقطف مواد السلطة من البستان من خس وفجل وكرفس وكزبرة وغيرها، واستعمل أربعة جرادل ماء لغسلها ثم لا أرمي الماء الوسخ عبثاً، بل استعمله لسقي الحديقة والأشجار.

وجبة الغداء بسيطة وخفيفة عادة، ولكن وجبة العشاء هي الوجبة الرئيسية الوحيدة في اليوم نتناولها بين الساعة السابعة والثامنة مساء.. في بعض الأحيان يصحب عشاءنا القصف الجوي وأحياناً يسود السكون.

لقد تعلمت القيام بأعمال كثيرة في الظلام، ولكني لم أتعلم عادة النوم المبكر وذلك حالنا جميعاً. ساعات النوم عندنا قليلة جداً، ولعل سبب ذلك وجود مادة (الادرينالين) المنشطة في عروقنا التي تمنعنا من النوم الطويل.

الشخير في الليل يمكن تصنيفه إلى انواع مختلفة.. (ما) تنفخ نفخات صغيرة خافتة. (أمل) تشخر وكأنها ماكنة بخارية. وقبل أيام رأى (منير) في الحلم انه يعيش (حرب النجوم) بكل شدتها ثم استيقظ فجأة ليجد ان الأصوات في الحلم لم تكن سوى شخير النيام، لذلك عاد واستغرق في نومه مرة أخرى.

(سلفادور) اصبحت له صديقة جديدة مزعجة، وقد عض (سعيد) البارحة.

اليوم الرابع عشر

توفى (منذر بك) في نومه فجر هذا الصباح. الآن تبدو لنا الحرب كحادث بعيد جداً عنا... المصيبة الآنية تملأ حياتنا.. أما الأخبار وصفارات الانذار والصواريخ والقنابل فانها تأتي وتذهب ولا تهزنا، وكأنها حوادث تقع على كوكب آخر.

وبالرغم من ان (منذر بك) كان مصاباً بضعف القلب، وانه صعد يوم امس تسعة ادوار على الدرج لكي يفحص الأضرار التي لحقت عمارتنا، إلا أنه في الحقيقة مات حزناً... لم يستطع ان يفهم لماذا يريد العالم تدميرنا نحن وكل ما بنينا خلال نصف القرن الماضي.. يوم أمس، كان يسأل (ما) ويكرر السؤال: «لماذا يفعلون هذا بنا؟».

أثناء رسم صورته الزيتية، كان لدي شعور غريب طيلة الوقت بأن اللوحة لن تكون صورة اعتيادية عند تعليقها على الجدار. وبسبب هذا الشعور المخيف أنجزتها بسرعة واحتفلت برفع الستار عنها في بيتي قبل ان تجف. وهي لا تزال هنا عندي، انتظرها لكي تجف.

الموت لا يلائم أمثال (منذر بك)، منذر وحيويته الدافقة ونشاطه الجم وميله الكبير للضحك والجدال. كان يساعد الجميع.. سوف نفتقده كثيراً كثيراً.

اتفقنا على ان يطوف كل واحد منا على منطقة مختلفة من بغداد لكي نخبر الأهل والأصدقاء عن موعد الجنازة.

منطقة (المنصور) كانت من نصيبي، عبرت جسر (الأعظمية) أثناء غارة جوية شديدة، في العادة نتجنب عبور الجسور أثناء الغارات حتى تغادر الطائرات سماءنا، لأنهم يستهدفون الجسور دائماً في قصفهم، ولكن في هذه المرة لم انتظر انتهاء الغارة الجوية ولم تخفني اصوات صفارات الانذار ولا الصواريخ ولا القنابل المنهمرة، لم يهزني كل ذلك!

أخبرتنا (لبنى) أنها شاهدت طيارة تسقط في منطقة (الكرادة) ثم علمنا بعدئذ أن ما سقط كان صاروخ (كروز).

اخيراً أفلحت في إرسال رسائل إلى (دود) و(سول). لا بد انهما في أشد حالات القلق علينا.

العزلة التى نعيشها لا يمكن تصورها.

اليوم الخامس عشر

(أمل) ذهبت لكي تجمع الحطب بالقرب من الكراج، عادت ومعها احدى سرقات (سلفادور دالي) وهي فردة حذاء قديم اصفر اللون خبأه الكلب بين الحطب. لقد كان هدية لي من الحارس والبستاني الكردي (توفيق) الذي اشترى احذية كثيرة من منطقة (الكاظمية) وبضمنها هذا الفردة الواحدة من الحذاء الأصفر.. مسكين (توفيق) لقد استدعي للتجنيد في كانون الأول/ ديسمبر الماضي. ترى أين هو الآن؟

كيف اخطأت (أمل) فردة حذاء قديم ظنتها قطعة حطب للوقود؟ يبدو أن بصرها أضعف مما نظن، وفي ذلك خطر عليها اثناء قيادة السيارة.. لحسن حظها ان قيادة السيارات أصبحت نادرة.

لقد اختفى كل الماء الذي رفعناه أنا و(منير) يوم امس وسال من

خلال ثقب في الخزان وتسرب الى الحمام في الطابق الأسفل. يا لها من فاجعة!

المرحاض مشؤوم حقاً! لقد عشت في هذا البيت سنوات ثلاثاً، وقد ابدلته مرتين خلالها وأجرينا عليه التصليحات عدة مرات وأبدلنا المقبض مرتين ولا يزال ماؤه ينضح! ما أصعب حياتنا!

ذهبت كي اساعد (أمل) في تنظيف مخزنها، خاصة من الزجاج المكسور.. وضع اخوها الواحاً كبيرة من الخشب المضغوط وسد الجدران.

من هنا شاهدت جسر (الجمهورية) وفيه حفرتان كبيرتان يتدلى منها الكثير من الأجزاء والقطع الحديدية... حصلت على قطعة من قذيفة التقطتها من ضفة النهر.. حشود كبيرة من الناس على الجسر وعيونهم شاخصة إلى الحفرتين... انطلقت صفارات الانذار، ولكن لم يتحرك أحد من الناس.

اليوم السادس عشر

أقيم مجلس عزاء لوفاة (منذر بك) للنساء في دار (أسماء). ومجلس الفاتحة للرجال في دار (ما) و(نيدل). وكنت المسؤولة عن ادارة وتنظيم مجلس الفاتحة وذلك عكس التقاليد. وكنت ادخل وأكلم الرجال بين آونة وأخرى، ولكنني مع ذلك راعيت الأصول كلها.

انتشر خبر وفاة (منذر بك) في بغداد وتوافد الناس من كل الأطراف دون اهتمام بصرف البنزين المدخر، وكل يبكي ويندب ضياع (منذر). وقد أخبرني معظمهم بأنه كان قد زارهم في الأيام الأخيرة (يبدو انه في الأسبوع الأخير من حياته أخذ يطوف في انحاء بغداد بواسطة (الباص) يتفقدهم وكأنه يودعهم) يا ترى هل كان يعلم ان موته أصبح قريباً؟

شائعات تدور بأننا سنحصل على الكهرباء من مدينة (قصر شيرين) في ايران. لا أحد يعرف الأخبار الصحيحة.. الأخبار المحلية معدومة تماماً.. راديو بغداد يذيع لساعات قليلة يومياً ويخبرنا عن تفاصيل المعارك، وكم طائرة اسقطنا وماذا يفعل العدو بنا وكيف تقوم قواتنا بصده... دعايات كثيرة لرفع معنوياتنا.. لا أحد يعيرنا اهتماماً كبيراً.

نستمع إلى راديو (مونت كارلو) في الثامنة مساء، وهناك أيضاً الاذاعة البريطانية و(صوت امريكا)، ولقد اكتشفت ايضاً اذاعة النمسا وهي متعاطفة معنا ومع مصاعب شعبنا وويلاته.

يعيش الجميع حياة القرى والأرياف البدائية كل في منطقته من مدينة بغداد... البنزين شحيح ولا يستعمل إلا في حالات الطوارىء... الباصات قليلة ومزدحمة جداً والاتصال بين مناطق بغداد المختلفة، عسير وأحياناً مستحيل.

.. عدنا الى العصر الحجري!

يا لجنودنا المساكين في الجبهة... حالهم اسوأ من حالنا مليون مرة.. سمعنا من الاذاعة البريطانية، وهي وسيلتنا للاتصال بالخارج، عن المعركة التي دارت في (الخفجي) وذكرت أن احتلالنا (للخفجي) الذي دام يوماً واحداً كان ضئيل الأهمية... أين كان الحلفاء إذن آنذاك؟ كنت أظن انهم جاؤوا لحماية السعودية!

يبدو ان السبب الأصلي لهذه الحرب هو ان الغرب لا يتقبل وجود دولة عربية قوية، خاصة دولة مثل العراق لها سياستها المستقلة والمختلفة عن سياسة جيرانها. ما كان العراق يوماً دولة ذل واستسلام... والآن لقد تخلصوا منه تقريباً.. انه اليوم السادس عشر فقط، ولكن الحياة توقفت عندنا بشكل لا يصدق... لقد عانينا الكثير!

صديقة (سلفادور) الجديدة تدخل من فجوات جدران البستان.





وعبثاً أحاول سد هذه الفجوات والثقوب، لأنها سرعان ما تجد لها مداخل أخرى تنفذ منها.. عواء الكلاب ونباحهم ايقظني في الساعة الخامسة صباحاً. اضطررت ان أنهض لكي أطردهم بعيداً... نباح الكلاب والأزيز القادم من السماء كان فوق الاحتمال.

الفائدة الوحيدة لهذه الكلبة الجديدة، هي انها تشغل (سلفادور) وتنهك قواه بحيث يتركنا نذهب الى البستان لقضاء الحاجة بسلام، والا فانه في العادة يداعب ويهاجم ويخيف كل من يراه جالساً القرفصاء خلف شجرة.

(أمل) تعاني منه اكثر من الجميع، لأنه ينهش بنطلونها ويحاول ان يخلعه عنها ويظن ان ذلك لعبة ممتعة. والآن اعتادت (أمل) ان تعطيه عظماً في كل مرة تخرج الى البستان فتصرف انتباهه عنها.

اليوم السابع عشر

ليلة رهيبة!... القصف مستمر والصواريخ تنهمر... سمعنا أعلى صوت انفجار لحد الآن. لقد سمعه الجميع في ارجاء مدينة بغداد كلها ولا ندري ما هو... انه ليس انفجاراً ذرياً لأننا لا نزال أحياء... أفهم ان يكرهنا أهل الكويت، ولكن انت يا (جورج بوش) ماذا فعلنا لك لكي تكرهنا هذا الكره المسموم؟ هذا الكره الذي تدل عليه نبرات صوتك في الراديو، صوتك الذي حتى في أحسن حالاته هو ذو نبرة كريهة ومقيتة. أنكرهنا لأننا وقفنا في وجهك وقلنا: «كلا!».

الليلة سوف نستمع إلى شيء من الموسيقى. (أمل) لديها فونوغراف يدوي قديم و(م. ع. و) الذي يحتفظ بكل شيء، لديه الكثير من الاسطوانات القديمة (٧٨). من كان يظن ان سيأتينا يوم كهذا والناس جميعاً لديهم ديسك كاسيت؟

حضرت (وداد) اليوم وعلمتنا طريقة غريبة لصنع الشموع، وذلك بوضع فتيل في قنينة مليئة بالنفط، ثم يسد عنق القنينة بعجينة لينة من التمر ويترك رأس الفتيل قصيراً وبارزاً الى الخارج، لأن الفتيل الطويل يسبب الكثير من الدخان.

الآن، على الأقل بامكاننا صنع شيء ما... الشموع الاعتيادية لها بعض المساوىء فهي تضطرب وتقطر ويطول فتيلها اثناء الاشتعال وينبعث منها دخان اسود، وتوسخ المكان.

أما شمعة القنينة هذه فإنها تدوم فترة طويلة، وهي انظف واكثر اماناً من الشموع العادية.

جال في ذهني وأنا انظر الى الشمعة بأنها تشبه (كوكتيل مولوتوف). ولكن (وداد) أخبرتني ان قنابل (مولوتوف) تحوي على البنزين بينما هذه الشمعة نفطية. هذا الصباح كانت أرض الغرفة مغطاة بعدد كبير من الذباب الميت.. يا ترى هل مات خوفاً من صوت الانفجار الكبير؟ تخاصمت مع (سلفادور) خصاماً كبيراً. لقد كان يتغازل ويلعب مع صديقته ذات الفروة الغزيرة في أحد مشاتل الورد في الحديقة، لم اختار مشتل الورد ولديهما البستان بكامله كي يلعبا فيه؟ صممت على قتل كل هذه الكلاب السائبة! انها تحمل الأمراض. ثم ما هو هذا السحر في (سلفادور) لكي تتبعه كل هذه الاناث من الكلاب؟ لا يبدو عليه انه شديد الاهتمام بها، بل يفضل ان يلعب بوسادته المفضلة التي تثير معظم اهتمامه.

هنا في (الصليخ) نحن جماعة كبيرة من النساء دون رجال. حتى (م. ع. و) سيغادرنا ويعود الى داره، وقد استجاب الى الحاحنا لكي يبقى معنا فالمكان سيكون كئيباً بدونه.

اليوم الثامن عشر

(م. ع. و) يقول: «ان الحرب يجب ان تستمر لأنه اعتادها واعتاد أكل الطعام المحروق وعندما تنتهي هذه الحرب يجب ان نبدأ بحرب أخرى»!

نحن الآن نطبخ الطعام بالحطب اقتصاداً للغاز، نطبخه في المدفأة التي تدخن بشدة الآن.. ربما حدث شيء في المدخنة... كذلك اصبحنا نخبز الخبز بأيدينا وأفضل طريقة لعمل الخبز هي وضع عجين غير مختمر بصورة مسطحة مثل (البيتزا) على شبكة من الأسلاك الرفيعة ثم يخبز على مدفأة (علاء الدين) النفطية. لقد أثبتت هذه المدافىء جدارتها، انها من أحسن المدافىء والآن اضحت الأحسن لصنع الخبز، ويكاد لا يخلو منها بيت في العراق.

لقد اكتشفنا ان (م. ع. و) لديه لفافة كبيرة من شبكة الأسلاك الرفيعة (التيل). اصطف الجميع في طابور للحصول على حصة منه. (م. ع. و) قطعها ووزع القطع علينا وهو يتذمر.

في كل ليلة احلم بأشياء خيالية عجيبة، في الليلة الماضية رأيت أشخاصاً واقفين في الهواء خارج نوافذ الطابق الثالث لاحدى البنايات، وهم يتحدثون كما لو كانوا في حفلة كوكتيل.

(م.ع.و)
وعدنا أنه
سيأكل ملعقة
من الغائط اذا
انتصرنا على
اسرائيل!

الطيور، قاست اكثر من الجميع، انها مخلوقات حساسة لا تتحمل كل هذه الأصوات والانفجارات الرهيبة. لقد ماتت جميع (طيور الحب) في اقفاصها. أما طيور الجو فانها بدأت تقوم بحركات بهلوانية وتنقلب في الهواء رأساً على عقب بصورة جنونية. لقد تساقطت المئات، بل الألوف منها، ميتة في البستان. وما بقي على قيد الحياة، يطير بارتباك وحيرة في الجو.

السماء مغطاة بغيوم سوداء لأننا نحارب ونربك العدو بحرق الاطارات وهم يستعملون (الكومبيوتر) لمحاربتنا وقتلنا. لقد ذكر احد الطيارين وهو على متن مركبة فضائية أنه شاهد غيوماً سوداء كبيرة ونيراناً متأججة في المنطقة.. (سلفادور) تعود على أصوات القصف الجوي ولكن بعض الانفجارات القوية لا تزال تجعله يندفع راكضاً على غير هدى... يبدو أن الكلاب تشعر بالغارة الجوية قبل حدوثها، إذ يصيبها التوتر العصبي وتكثر النباح قبل ان يسمع أحدنا شيئاً.

لم لا يستعملون الكلاب بدلاً من (الرادار)؟

الكلاب السائبة تتجمع حول (سلفادور) اثناء الغارات الجوية الشديدة بهدف الطمأنينة، ربما لأن له بيتاً، (سلفادور) لديه أصحابه، نحن الذين يأمن اليهم، والكلاب الأخرى لديها (سلفادور) الذي تطمئن اليه... هناك كلاب تبكي اثناء الغارات بعويل محزن ورهيب.

مضى علينا اسبوع كامل دون ماء... يداي وأظافري تثير الأشمئزاز. وجوهنا جميعاً يغطيها هباب اسود، وليس فينا من يهمه النظر الى المرآة... (نيدل) هي الوحيدة بيننا التي تبدو نظيفة وأنيقة... (رعد) أخبرنا انهم في منطقة (الجادرية) فقدوا تعاقب الليل والنهار، لأن السماء سوداء دائماً بسبب الدخان المنبعث من مصفى (الدورة) وهو يحترق.. المصفى يحترق منذ اليوم الأول للحرب وما برح الى الآن.. مسكينتان (سهى) و(آسيا) كيف يمكنهما تحمل ذلك؟



اليوم التاسع عشر

سقط صاروخان في منطقة (المسبح). وقد سقط احدهما في حديقة (سلوان) و(أنس). وانهد قسم من الجدار الخارجي والكراج. لقد كانوا جميعاً في غرفة الجلوس آنذاك... لم يصابوا بأذى، ولكن اصيبوا بالصدمة والخوف. بيت (سهى) و(آسيا) مجاور لبيتهم وقد جاء مصور شبكة الـ CCN اليها وهما في غاية الغيظ والغضب، وسجل ذلك. اما الصاروخ الثاني فقد سقط على دار مقابل دار (بيكي وناجي) ودك تلك الدار دكاً. وتكسرت جميع نوافذ بيت (ناجي) وأصابت (ناجي) نفسه شظية زجاج أدت بمعجزة الى جرحه جرحاً صغيراً فقط. اما البيت الذي هدمه الصاروخ، فان اصحابه كانوا قد غادروه بسبب انقطاع الماء وذهبوا الى أحد الفنادق وبذلك نجوا وتلك معجزة أخرى! على الرغم من معرفتنا بأن الحرب شيء فظيع مدمر، الا انه لم يدر في خلدنا ان بغداد سوف تقصف وتدمر بهذا الشكل الوحشي. انهم يحاولون تحرير الكويت ولكنهم يدمرون بغداد بالقنابل... أهم بحاجة الى خارطة؟ يبدو أن الأمر كله كان مبيتاً للحصول على عذر لسحقنا نحن جيشاً وشعباً... لن يسمع احد عنا لسنوات وسنوات... هذا اذا خرجنا من هذه المحنة أحياء.. احياء! لقد مات (منذر بك)... انه أمر لا استطيع تصديقه.

في (الجادرية) فقدوا تعاقب الليل والنهار لأن السماء سوداء دائماً

أتت (لبنى) اليوم وأخبرتنا ان اللصوص قد سرقوا (المحولة) والبنزين الذي خبأه (محمود) ودفنه في الحديقة. لا بد أن هناك من يراقبهم مراقبة دقيقة.. السرقة أصبحت عادة شائعة... يجب وضع كل شيء تحت القفل والمفتاح.. المحولات تباع بآلاف الدنانير كذلك الدراجات الهوائية والسجائر تساوي ثروة، اما الفوانيس فانها تساوي ذهباً.

بالنسبة الى أصحاب الحوانيت، فان من يسكن قرب حانوته يبقيه مفتوحاً، ولكن اكثر البضاعة تباع على الرصيف من قبل جموع غريبة من باعة البطاريات والكبريت والفتيل وأي شيء يتوفر لديهم.

قبل أيام سرق اللصوص احد المنازل وعندما قدم أهل الدار شكواهم الى الشرطة اعتذرت الأخيرة إلى أصحاب الدار موضحة أنه لا بنزين هناك للقيام بجولة من اجل قضية خاصة وعلى أهل الدار الانتظار حتى يحين موعد اجراء دورة التفتيش التقليدية لتلك المنطقة.

اليوم العشرون

ها قد مرت علينا أسابيع ثلاثة: وأربع وأربعون ألف غارة جوية! يقول (بوش) انه يحارب من اجل السلام... هراء وسخف! أي



سلام تخريبي هدام هذا؟ أهذا هو ما يسمى النظام العالمي الجديد؟ أهي فوضى أم نظام؟... تسرب الماء من الأنابيب مرة أخرى، يجب فحص أنابيب البيت كلها.

اليوم الحادي والعشرون

مر أسبوع على وفاة (منذر بك)... يداي أصبحتا خشنتين كأيدي الفلاحات.. (ما) تقول انها تشعر وكأنها (سكارلت اوهارا) في قصة (ذهب مع الريح) ولكنها لا تشكو من المجاعة. عادوا الى قصف الجسور مرة أخرى. جسر (الجمهورية) قسم الى ثلاثة أجزاء... ضربوا اعداداً لا تحصى من المعامل ومصانع الأنسجة وطواحين الحنطة ومصانع الاسمنت... ماذا إذن كان القصد مما قالوه بأنهم لن يضربوا سوى الأهداف العسكرية؟ أهي مؤسسات عسكرية هذه التي تقصف! تبجحوا بأنهم لن يخطئوا في قصف الأهداف... من ينقذنا من هؤلاء المتنمرين الأقوياء؟ أإنهم يدمرون بلادنا لكي يوفروا الأعمال وفرص العمل لعمالهم العاطلين؟ ان اعادة بناء بلادنا وشراء المعدات الجديدة منهم سواء العسكرية أو غيرها سوف يكفل لهم الرفاه الاقتصادي لسنوات طويلة.

انقطع دجاج (ثامر) عن البيض وتوقف. في الماضي كان عدد البيض اليومي ٢٥ بيضة ثم اصبح بيضتين والآن لا شيء... وعلى العكس من ذلك دجاج (بات) اخذ يبيض اكثر من المعتاد.

في الليلة الماضية حلمت بأنني احمل بيدي شجرة ثمارها من الخبز وأنا أطوف بها وأقدم الثمار، وكانت الشجرة بلا جذور أو ان جذورها كانت في الهواء.. لا أدري، لكني كنت أطوف على الناس وأقدم الثمار بفرح وجذل.. انها الشجرة المعجزة.

اليوم الثاني والعشرون

بدأت الأيام تتشابه الآن، شاهدت جسر (الجمهورية) اليوم أيضاً. منظر محزن جداً. عمل اجرامي فظيع. فصام! انه يفصم الاتصال ما بين الضفتين. كان لمنظر الجسر المهشم تأثير غريب على المشاهدين الذين ازدحموا على الجانبين ليشاهدوا الحفر والفوهات المفتوحة في الجسر والحزن الشديد مرتسم على وجوههم وعيونهم تطفر بالدمع.

أما الاطفال الصغار فانهم لم ينعموا بمثل هذه الحرية من قبل، حرية اللعب في الشوارع وركوب الدراجات دون خشية من وجود السيارات. كان سرورهم كبيراً. أطلقوا عليّ اسم (بسكليتا) ولدى مروري قربهم يلوحون بأيديهم ويسألون عن صحتي، اجيبهم بأني جيدة أولاً، حسب مزاجي في ذلك اليوم.

كل الجيران الآن تعارفوا واختلطوا مع بعضهم كذلك الأطفال والكبار. أصبحت (الصليخ) قرية كبيرة واحدة، بل ان مدينة بغداد أصبحت مجموعة قرى صغيرة.

في الطريق صادفت (رياض) و(رباب). دخلت دارهما لتناول القهوة. واذا بـ(رباب) تفتح ضوء المطبخ، الكهربائي، بزهو.. وثلاجتهم الكهربائية تشتغل ايضاً!.. كل ذلك على محمولة جمعها (رياض) بنفسه... لقد بدأت مواهبه العلمية تظهر... (رباب) تردد بفخر: «ان كل بيت يجب ان يحوي على (رياض)». هواية (رياض) تصليح السيارات القديمة، ولديه الآن سيارة فرنسية من نوع نادر يعمل على تصليحها بالتدريج.. كراج بيتهم يحوي على حطام سيارات مختلفة في درجات متباينة من الصلاحية.. عرضوا علي ان أشاهد التلفزيون معهم في المساء إذ يمكنهم التقاط محطة تلفزيون إيران... حتى تلفزيون بغداد يمكن مشاهدته أحياناً لمدة نصف ساعة، وعدتهم ان أعود اليهم ذات مساء لمشاهدة تلفزيون بغداد ولكن الأمر يصعب علي لأنني أنا موقدة نار التدفئة ونور المصابيح لكل ضيوفي في البيت.

اليوم الثالث والعشرون

ذهبت الى بيت (ظافر) و(معتزة) لكي أعلمهما صنع شموع النفط. (معتزة) كسرت سنها يوم امس وقد اتصلوا بصديقهما طبيب الأسنان الذي يسكن بالقرب منهما. قال الطبيب انه لا يملك البنزين لكي يشغل محولته، لذلك أخذا حوالي خمسة ليترات من بنزين سيارتهما وذهبا الى عيادته. (ظافر) اغتنم الفرصة وأصلح حشوة في أسنانه أيضاً. وعندما أخبرت (ما) عن ذلك تأسفت لأنها لم تعلم بالأمر لكي ترافقهما هي أيضاً الى طبيب الأسنان.

(القوات المتحالفة) ألقت علينا ما يعادل خمس قنابل (هيروشيما) لحد الآن... وفي الليلة الماضية لم نتمكن من النوم وأصابنا القلق من جراء السكون، إذ لم تكن هناك غارات جوية، ولكن عند منتصف الليل داهمتنا غارة جوية كبيرة ذهب بعدها الجميع الى

الفراش لكي يناموا بهدوء. . . ان هذا الأمر غريب ولكنه حدث لنا في بيروت ايضاً إذ كنا ننام بارتياح على أصوات القصف المدوية ونستيقظ حال توقفها.

اليوم الرابع والخامس والعشرون

أصبحت الحرب روتيناً. وباتت الأيام متشابهة.

اليوم الخامس والثلاثون

انه صباح يوم الاثنين حسب ما أعلنه راديو (صوت أميركا) وما الفرق؟. . كانت ليلتنا الماضية اسوأ من جميع ما سبقها: وفي اللحظة التي دوت فيها صفارة زوال الخطر هرعنا لكي نتفقد الأهل والأصدقاء، وقد اصبحت لدينا طريقة روتينية نتبعها في كل مرة. . . تزاحمنا في سيارة (يحيى) الذي ضحى بالبنزين المدخر لزيارة خطيبته الساكنة بعيداً في (المنصور). وقفنا أولاً عند بيت (أسماء) ورأيناهم كلهم قرب المدخل فهو أسلم محل في البيت اثناء الغارات، وهم يقضون الليل معاً هناك ليكونوا برفقة بعضهم. . وفي الدار ايضا شبابيك عالية بارتفاع طابقين، وزجاجها ملون بألوان مختلفة تعكس سماء الحرب كما يعكسه جهاز (كاليدوسكوب) بأشكال هندسية ملونة عجيبة لا حصر لها. . والغريب ان الزجاج لم ينكسر!

ذهبنا بعد ذلك لنرى (محمد) في بيت (ما) و(نيدل) كانت الليلة شديدة الظلمة وكان من الصعب علينا رؤية النهر. حتى النجوم توارت عن الأنظار، اما (محمد) فانه أمضى وقت القصف نائماً. الكلاب لم تنبح تلك الليلة.

آخر وقفة لنا كانت في بيت (أديبة) فتحت لنا الباب وهي تبكي وتصرخ بصورة هستيرية وتكرر المرة بعد الأخرى: «يا ربي! اما ان تأخذ هذا الجسر أو تأخذ امانتك!». بيتها قريب جداً من جسر (الأعظمية) والقصف كان مركزاً على الجسر منذ يومين. وكانت اصوات الدوي والانفجار والاهتزاز فوق ما يحتمل، وبدلاً من إصابة الجسر لم يفلحوا سوى باصابة مجموعة كبيرة من بيوت السكن هناك. عجبت لعدم تمكنهم من إصابة الهدف!

(اديبة) كان منظرها رائعاً بملابسها الكثيرة الألوان على الطريقة الكردية.

غداً سوف نعلم ماذا اصابوا من الأهداف. . . لقد خربوا جسر (الشهداء) والجسر (المعلق). كم أشعر بحقد ومرارة تجاه الغرب!

اليوم السابع والعشرون

كانت الأصوات المخيفة التي سمعناها في الليلة الماضية هي اصوات الطائرات القاصفة B52. لقد كانت اصواتاً هائلة مروعة.

أصابت احدى القذائف الزجاج الأمامي لسيارة (مثنى) الواقفة في الشارع.

قرأت في مكان ما، هذه الجملة: «لكل رجل علم تخيلات وأفكار تخيفه وتقض مضجعه ولا يعرف الراحة حتى يجد لها حلاً!». «هل لديك مثل هذه الأفكار تقض مضجعك يا (قيس)؟». القطط السمينة في كل مكان، قطط كبيرة نائمة أو جالسة في مداخل البيوت وأبوابها، وأخرى تمشي عبر الشارع دون خوف الدهس بالسيارات. انها الحيوانات الوحيدة التي لم تتأثر بما يجري حولها. هذه القطط أكلت لنا الى حد التخمة من بقايا طعام المجمدات، كان اللحم والدجاج يرميان اليها بكثرة ولكنها وصلا إلى نهايتهما. على (سلفادور) ان يصبح نباتياً في القريب العاجل، اما (كيكو) فسوف يسعده ذلك.



بمناسبة الكلام عن المجمدات. . لقد عادت (شيخة) الى دارها بالأمس بعد أن امضت الأسابيع الأولى للحرب عند ابنتها، بسبب الحاح جيرانها الذين لم يتحملوا الرائحة المنبعثة من بيتها. لبست قناعاً على أنفها لشدة الرائحة، ثم أفرغت محتويات مجمدتها. كانت المجمدة تحوي خروفاً كاملاً (قوزي) يطفو على بحيرة من الماء الآسن وحوله أربع وعشرون دجاجة واعداد من افخاذ الخراف، وكلها على درجات مختلفة من التعفن. في المجمدة ايضاً خزنت أربعاً وعشرين شيش كباب وأكثر من خمسين كبة رز (كبة حلب)، وبضعة كيلوات من اللحم المفروم وسمكات ثلاثاً، وخبزاً وكيك ومعجنات، خزنتها (شيخة) احتساباً للأيام الصعبة القادمة، وانتهى الأمر الى رميها جميعاً في الزبالة. وبذلك كثر طعام الحيوانات السائبة التي أكلت ما لم تحلم به من قبل.

ان وصف المحتويات في مجمدة (شيخة) ينطبق على مجمدات جميع الناس الذين هم على شيء من الثراء في بغداد ما قبل الحرب، لا هم لهم الا خزن الأطعمة، ولم يدر بخلد أحد ان مولدات الكهرباء

سوف تقصف! والآن اصبحت المشكلة هل نغلق ابواب المجمدات والثلاجات أم نبقيها مفتوحة؟... لأنها اذا أغلقت احتفظت برائحتها واذا أبقيت مفتوحة يجف الاطار المطاطي فيها.

نفد البنزين عند اكثرية الناس ولا يبدو اننا سنحصل على شيء منه في المستقبل القريب... علينا إذن استعمال الدراجات الهوائية أو المشي أو ركوب الباص... الباصات لا تزال تسير ولكنها شديدة الإزدحام.. بعض الناس قاموا بخزن البنزين في الحديقة - وقد حصلت حوادث كثيرة نتيجة لذلك - (منير) صنع خزانات كبيرة في حديقة (نجول) ولكنه لم يفحصها جيداً ليتأكد من عدم وجود ثقوب فيها، والآن اكتشف أن البنزين قد اختفى كله... من يدري لعله باعه لـ (باسل) لقاء مبلغ باهظ!

البنزين نادر جداً وبعض الباعة يخلطونه بالماء، لذلك يجب شراؤه من مصادر موثوقة فقط، والتأكد من لونه أولاً، فاللون الأزرق الوردي هو احسن الأنواع.

قرر بعضنا قضاء الليل في احد الملاجىء.. ذهبت و(سهى) لفحص حالة الملجأ، ولكني كنت مصممة على عدم قضاء الليل هناك. ملجأ (الصليخ) أقيم في داخل بناية (كلية بغداد) وهي المدرسة الاميركية القديمة للبنين التي انشأها الآباء اليسوعيون على أرض كانت تحوي ديراً وحقلاً للكروم في القرن العاشر (وقد كان للرهبان شهرة كبيرة بسبب جودة نبيذهم في ذلك الدير) حبذا لو عاد المكان حقلاً للكروم وليس ملجأً للغارات الجوية!

حتى الحرب تصبح روتيناً رتيباً

الملجأ بناية كبيرة وبسيطة خالية من النوافذ... كل ملاجىء بغداد متشابهة وضع تصميمها مهندسون سويديون، بدا لي الملجأ وكأنه كابوس مغلق فيه ضوء كهربائي ضئيل لا يكفي للقراءة، سقفه عالٍ، قال الحارس انه باستطاعتنا تسجيل اسمائنا في الملجأ ولنا حرية الحضور أو التغيب، ولكن اذا اردنا الحضور فيجب ان نكون هناك في الساعة السادسة مساء، وهو موعد اغلاق الباب. الأبواب تبدو كجدران سميكة من المعدن.

جارتي وبناتها الثلاث ذهبن الى الملجأ في الليلتين الماضيتين. زوجها في (تونس). البنات يفضلن الذهاب الى الملجأ للأمان ويرقدن بهدوء داخله حيث ينقطعن عن اصوات وضجيج العالم الخارجي على الأقل.

عدت الى بيتي بعد ان مررت بدار (أسماء) لكي أخبرهم التفاصيل عن الملجأ، واذا بمدخل الدار مزدحم بالسيارات. لقد أغار على بيتي عشرة اشخاص آخرين تتراوح اعمارهم ما بين السنة الخامسة وسن الثمانين. لقد كانوا جميعاً في بيت واحد يقع قرب احدى محطات الراديو، وقد سمعوا في الاذاعة ان جميع محطات الراديو سوف تقصف هذه الليلة!... لم يخطر ببالهم الذهاب الى أي محل آخر، بل هرعوا جميعهم للبقاء معنا!

أطلقت على داري الآن اسم (اوتيل الفردوس) الذي يحوي اشخاصاً في كل شبر وزاوية منه.. في هذا الركن يلعب بعضهم الورق. وهناك جماعة متحلقة حول الراديو. وغيرهم يقتل الوقت في الحديث أو الشراب أوالنوم. لن أتحمل ذلك طويلاً! يجب عمل خطة لتوزيعهم بين بيتي وبيت (دود).

اليوم الثامن والعشرون

لم يدهشني شيء طيلة هذه المدة كما ادهشتني صلابة بناء منازلنا.. انها لاتزال متماسكة وقائمة، رغم الاهتزاز الذي يصيبها اثناء الغارات.. الليلة الماضية كانت فظيعة، بل من أفظع الليالي. شعرت وكأن كل حجر في البيت يهتز ويتحرك. مدينة بغداد بكاملها تهتز وتتأرجح... مرة أخرى كان هدفهم الجسر!... لم نتمكن من النوم الا قليلاً... ذهبنا الى دار (اديبة) قرب الجسر للسؤال عنها... انها لا تصدق كيف بقي دارها قائماً لحد الآن. مسكينة! انها سجينة في الدار مع زوجها الصعب ومع القصف الجوي. لا شك ان معاناتها تزيد على معاناتنا جميعاً.

لماذا يقصفون الاهداف نفسها المرة بعد الأخرى؟ كل صاروخ من هذه الصواريخ الجهنمية يكلف صنعه ربع مليون دولار أو أكثر!... ماذا لو صُرفت هذه المبالغ لإطعام جياع العالم بدلاً من صرفها على أسلحة الدمار؟

يبدو أن القتل هو أساس النظام العالمي الجديد... زارنا اليوم (مؤيد) و(دوني) من دائرة الآثار وقالا أن القصف قد شمل بعض المناطق الأثرية، تهدمت بعض الأقواس في منطقة (الحضر) ظهرت شقوق جديدة في (طاق كسرى) وتكسرت أبواب (المستنصرية) كذلك أحدثت شظايا القصف المتناثرة اضراراً في بناية المتحف العراقي بسبب قصف مركز الاتصالات الهاتفية القريب منه.

ولا يدري (مؤيد) ماذا حصل في المناطق الأثرية الأخرى، وليس لديه البنزين لكي يذهب ويتحقق من الأمر ولكن من اين يبدأ (مؤيد) والآثار في العراق منتشرة من الشمال الى الجنوب؟

(مؤيد) خائف على مئذنة (سامراء) لأن المعامل والبيوت القريبة منها أزالها القصف تماماً.

طاف (مؤيد ودوني) على كافة الأبنية الأثرية في منطقة بغداد وأرسلا من يقوم باصلاح النوافذ والأبواب المكسورة. وقد قام (دوني) بتصوير الأضرار التي لحقت بهذه الأبنية الأثرية لكي تكون أدلة وشواهد في المستقبل.

ان كل بناية يصيبها القصف الجوي وتتكسر ابوابها ونوافذها تتعرض لهجوم اللصوص بغية سرقة محتوياتها.

ويشكل منظر (مؤيد ودوني) مشهداً طريفاً... كرشان مندلعان الى الأمام بحرية واطمئنان دون اهتمام بقانون المحافظة على الوزن، الذي يقتضي اجراء الكشف على وزن موظفي الدولة مرة كل ستة أشهر... الوزن يحدد حسب طول الشخص وعمره واذا زاد عن ذلك تخفض درجة الموظف. الموظف الطموح يحافظ على وزنه الصحي ولكن الموظف الشره ومحب الطعام، لا يهمه الأمر فيستقيل أو تخفض درجته. وبسبب هذا القانون تحسن قوام الناس وهندامهم بصوة ملحوظة.



(سلفادور) وجد صديقة جديدة اكبر منه ولها جرو لونه أبيض وأسود يتبعها في كل مكان.. انه حصيلة الموسم السابق... عبثاً حاولت طردها.. هذه الكلبة الغبية تنظر الي وتهز ذيلها رغم اني أظهرت نفوري منها، لكنها تديم النظر اليّ من بين الأشجار عسى ان يتبدل شعوري نحوها... يبدو انها تشعر بضعفي تجاه الحيوانات، ولكنني أتصور كيف سيكون حال البستان اذا ازدحم بجراء (سلفادور) وهي تركض وتجري هنا وهناك.

اليوم التاسع والعشرون

أرسلت بعض الضيوف الى بيت (دود). وجدنا ان رائحة الباسطرما المتعفنة تملأ جو البيت. رميناها الى الخارج. لقد ارتكبنا خطأ اثناء التحضير، ربما كانت كمية الملح قليلة إذ لم نكن نعلم ان اللحم يحتاج الى كميات كبيرة جداً من الملح لحفظه. الماء موجود في بيت (دود) وقد رفض الضيوف استعمال البستان كمرحاض... امس غطيت نفايات الكلب برماد الموقد... يصعب التفريق بين نفايات البشر ونفايات الكلب... لقد أخذت صوراً رائعة للضيوف الذين ينامون في غرفة الجلوس.

أخذت الصور في ضوء الشموع... الظلال غريبة وجميلة كأنها صور زيتية (لكارافاجيو) أو (دي لا تور). ترى هل سيتغير ذلك في ضوء الكاميرا (الفلاش)؟ صورت (ما) و(سهى) و(نجول) وهن حول المائدة يتحادثن ويتحاورن وكأنهن ساحرات من الأساطير القديمة. ترى كيف استطاع الرسامون التصوير على ضوء الشموع في الماضي؟.. ضوء الشمعة لا ينير سوى منطقة صغيرة فقط... لعلهم كانوا يرسمون باقي التفاصيل من الذاكرة.

يصعب علينا تصديق الحصول على نور الكهرباء مرة أخرى.. هل سنتمكن حقاً من ان نطفىء ونضيء النور حسب ارادتنا؟ كم كنا نعتبر هذه الأمور بديهيات لا تستحق التفكير! الداران معاً ازدحمتا بالناس إلى درجة ان (سلفادور) صار لا يدري على أي منهم ينبح، مما اضطره الى ترك النباح!

أصبح عددنا ستة عشر شخصاً نجتمع وقت المساء قبل العشاء لتناول الكوكتيل، ثم نفترق للعشاء في احد البيتين ونجتمع مرة أخرى لشرب شاي (الأعشاب) بعد العشاء.

فترة تحول في سير الحرب!.. لقد قصفوا ملجأ (العامرية)! ظنوا انه مخبأ لكبار رجال الحزب ولكنه لم يكن يأوي سوى النساء واالأطفال. عائلات بأكملها قضي عليها وبقي الرجال الذين كانوا في البيوت يحرسونها... مجزرة فظيعة!... لا نعرف تفاصيلها الكاملة بعد. يقول الأميركان ان النساء والأطفال قد نقلوا الى هناك كتغطية وتمويه.. من يصدق ذلك؟ هل ظن الأميركان أن مركز القيادة عرف بنيتهم في قصف الملجأ ولذلك حشد فيه النساء والأطفال للتمويه؟.. يظن الأميركان انهم جبابرة لا يقهرون!.. ان تاريخهم القصير حافل بالحماقات والأخطاء... قبل يومين فقط ذهبت للكشف عن حالة الملجأ في منطقتنا واليوم قصفوا ملجأ (العامرية)... أهناك من يذهب الى الملاجىء الآن؟.. جارتي أخبرتني أنها وبناتها سوف يحتملن أهوال الضجيج والانفجارات ولن يذهبن الى الملجأ مرة أخرى!

الحديقة والبستان يهددهما الجفاف التدريجي، وأنا أرمي جميع مياه الغسيل في الحديقة لاروائها... حبذا سقوط المطر الآن!...

تناولت القهوة هذا الصباح في البستان مع (نجول) وتذكرت حلماً رأيته قبل الحرب. في الحلم كانت (نجول) تطلب مني أن أساعدها في تصميم حديقة بيتها الجديد. وفجأة اصبحنا في حديقة صحراوية جافة تحوي على نبات هائل الحجم يشبه نبات الصبير الصحراوي.. وقد قلت لها: «ان المكان جاف يابس كله ولكن لا بأس سوف نزرع حديقة جديدة أخرى!».

ها نحن الآن في بستان دون ماء. (نجول) وأنا نعيش هذه الحياة الغريبة الشاذة... أنحن الآن بانتظار جفاف الحديقة تماماً؟...

كانت ليلتنا هادئة. يبدو انهم توقفوا عن الضرب بعد حادث الملجأ... ربما قرروا توخي الحذر في المستقبل.

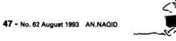
مدينة بغداد أصبحت مجموعة قرى صغيرة

اليوم الثلاثون

لقد مر شهر كامل علينا ولا نزال على قيد الحياة، دمّر بلدنا ولكننا لا نزال نملك القوة والارادة. يقول (بوش): «اقرأوا شفتي..» ولكن لا أحد يذكر ذلك الآن. سمعنا أصوات طلقات نارية كثيرة في الهواء ولم نعرف سببها. (منير) ظن بأن الغزو قد بدأ!.. ثم تبين لنا انها تحية الوداع للذين ماتوا في حادث قصف ملجأ (العامرية)... هذه الطلقات النارية كانت كأنها احتجاج على ما جرى.. وقد سمعنا أن مظاهرة كبيرة قامت في مدينة (الموصل).

كان من سوء التقدير عدم مغادرتنا الكويت يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني الماضي. ولو فعلنا لأصبح الحلفاء في مأزق فظيع.

حبذا لو أتمكن من رؤية المستقبل!... ماذا يخبىء لنا يا ترى؟..



اليوم الحادي والثلاثون

أفقنا صباح هذا اليوم والسماء داكنة سوداء ورائحة الزيت المحروق في كل مكان.. ترى ما الذي قصفوه؟.. كان الجو فظيعاً، رياح رملية تعصف والغبار يملأ الهواء... أيتها السماء امطري امطري قليلاً... كلنا نحتاج المطر... والأشجار والنبات في البستان عطشى ظامئة.

حصلنا على بعض الماء من الأنابيب وملأنا كل سطل وجردل وآنية موجودة وقمت بسقي البستان.

انتشرت بيننا شائعة اعلان السلام لمدة ساعتين، قام بعض الحمقى خلالها باطلاق النار في الهواء احتفالاً. أهكذا تقلب الأمور؟

أصبت بالتهاب المجاري التنفسية كلها: البلعوم والحنجرة والرئة حتى أنفي انغلق تماماً. يجب ان أذهب الى الطبيب. سألني الطبيب ان كنت ادخن فأجبته بأني ادخن دخان الموقد عندنا.. هذا الموقد الذي ينفث الدخان أحياناً بدرجة تحجب الرؤية لمسافة بضعة اقدام. كنا جميعاً نشعر بالاختناق ولم نعرف لماذا. ثم خطرت في بال (منير) ومضة ذهنية براقة وقال: «لعل المدخنة مسدودة!». وهكذا كانت... وهذا برهان على حالة الركود الذهني التي أصابتنا جميعاً. وقد كان اكتشافنا هذا بعد فوات الأوان، لأني كنت أسعل دون انقطاع لمدة اسبوع. أخبرني الطبيب ان المجاري التنفسية ملتهبة، اذا دامت هذه الحالة فسوف يصيبني عسر التنفس والربو ووصف لي ادوية عديدة.

> ماتت جميع (طيور الحب) في أقفاصها

عيادة الطبيب لم تكن مزدحمة بالمرضى... لا نستطيع ان نمرض الآن.. لدينا الكثير من الواجبات والأعمال ولا وقت للمرض!

بلغ عدد الغارات الجوية ستاً وسبعين ألف غارة مقابل سبع وستين صاروخاً عراقياً.

اليوم الثاني والثلاثون

في بيت (دود) أصبحت (نجول) كالدجاجة تحتضن افراخها تحت جناحيها.. وعندما تزأر صفارات الانذار تهرع (نجول) لتهدئة أحفادها ويتبعها الآخرون كالقطار تتبعه العربات المكونة من ابنتها وأختها وزوج اختها وزوج ابنتها. وقد احتلت (نجول) وعائلتها غرفة النوم الرئيسية في الطابق الأسفل.. اختها (مبجل) التي تعتمد على(نجول) في كل صغيرة وكبيرة أصرت على البقاء بالقرب منها، واحتلت غرفة الطعام المجاورة حيث تقضي وقتها وهي ترتجف خوفاً وبرداً... وفي الليل يقفز جرذ كبير من المرحاض ويجري هنا وهناك، فما كان من (مبجل) وزوجها وابنتها الا ان حملوا فراشهم وهربوا الى غرفة صغيرة في الطابق الأعلى.

دخل (سلفادور) في معركة مع بعض الكلاب اليوم، طردتها بعيداً ولكن ليس قبل ان تصيبه بجرح في رجله. وتورمت رجله تماماً وهو يبكي ويعوي. المسكين! أشعر بالندم عندما أطرد صديقتيه البيضاء والسوداء!.. كانت (ما) تخبز كيك البرتقال في الظلام. و(سهى) تحوم حولها لكي تتعلم طريقة صنع الكيك. (ما) تنوي ان تترك الكيك على الجمر الخامد طيلة الليلة وتعتقد ان ذلك سيكون كالفرن البطيء.. لقد خبزت لنا قبلاً انواعاً من الخبز وكان طعم بعضه لذيذاً.

(أمل) زلت قدمها وسقطت على الأرض وتخدش أنفها وخدها وانكسرت «عويناتها» وذلك يجعل فرصة تعرضها للخطر أكبر الآن. علاقة (أمل) و(منير) مع مفاتيحهما هي علاقة غريبة، فهما يبحثان عن المفاتيح دائماً، انها دائماً ضائعة وليس لديهما نسخة ثانية منها، ففي هذا الأمر يتشابهان تماماً كحبتي قمح.

توقف الناس عن احراق اطارات السيارات بعد تعليق الاذاعة البريطانية حول عبث هذا العمل... والآن اخترعنا طريقة جديدة للتمويه على العدو، وهي تغطية الجسور بأشجار الكاليبتوس الكبيرة. وذلك بقلع الشجرة من جذورها ووضعها على الجسر بين أكياس الرمل. وبذلك أصبحت جسورنا ممرات ذات اشجار ذابلة. والغاية من ذلك هي اهتزاز الأشجار الذي سوف يعرقل دقة تصويب القذائف ويشوش الكومبيوتر بأهداف متحركة.

ترى من الذي خطرت في رأسه هذه الفكرة؟

اليوم الثالث والثلاثون

لازمني السعال طيلة هذه الليلة.. وأخيراً امطرت السماء! ما أجمل المطر وما احلاه! ولكني لم اتمكن من النوم اكثر من نصف ساعة بسبب السعال والقصف الجوي وصفارة الانذار.. أصبحت مهدودة القوى.. اما كيك (ما) فقد كان محروقاً من الخارج ونيئاً من الداخل وله طعم الدخان.

اليوم الرابع والثلاثون

بعد نزول المطر اصبحت الشوارع سوداء نظيفة لامعة، تحوي بركاً كبيرة كأنها بقع من زيت. ومع المطر نزل علينا كل الدخان الأسود العالق في الهواء، أذلك هو بترول (الرميلة) عاد الينا؟

ذهب (طارق عزيز) الى موسكو. ما فائدة ذلك؟ (بوش) يشن علينا حرباً قذرة مثل الحرب التي شنها على (دوكاكيس) خصمه أثناء حملة الانتخابات. ولسوف يستمر في ضربنا الى النهاية دون ان يعبأ بعدد الذين يموتون في العراق. ان الغرب يقسم العرب ثلاثة أصناف فهم إما ارهابيون أو شيوخ نفط أثرياء أو نساء محجبات بالسواد من الرأس حتى القدم، وما عدا هؤلاء لا يوجد احد.

ترانا وصلنا الى النهاية أم ان هناك مصائب أخرى في الأفق؟ جاءنا اليوم (هشام) لتقديم التعازي بمناسبة وفاة (منذر)، لقد قضى الأسابيع الماضية في (السليمانية) مع الكثيرين الذين هربوا الى تلك المدينة تجنباً للقصف الجوي. ثم أتى (تيم لويللن) وهو أول أجنبي أراه منذ بداية الحرب...

لدينا في العائلة من تزوج من أجنبيات. ولكن بعد مرور الزمن أصبحنا لا نعتبرهن أجانب، لذلك، عندما رأيت (تيم) في نهاية

مدخل الدار وقف شعر رأسي غضباً وتقلصت عضلات جسمي كلها. ترى هل أحس بشعوري نحوه؟ ولحسن الحظ كان المشى طويلاً وخلال الفترة التي استغرقها للوصول الى باب الدار تمكنت من التغلب على شعور الغضب والعداء نحوه. هل لنا ان نلوم الأفراد على ما تفعل الحكومات؟ إذن فكلٌ يتحمل مسؤولية المأزق والفوضى اللتين لم يكن لنا يد فيهما.

(تيم) جاء محملاً برسائل (فاكس) من (سول) و(دود) و(شارلي)... هذه الرسائل هي أول اتصال لنا مع افراد العائلة والأصدقاء البعيدين... أو ثلمة في جدار عزلتنا الرهيبة.

يوجد الآن بالقرب من بيتنا مدفع ضد الطائرات قيل انه عيار ستة مليمتر أو شيء من هذا القبيل، لقد وضع قريباً جداً منا، وفي الليل تصدر منه اصوات انفجارات مخنوقة خافتة، تضاف الى اصوات الجوقة الموسيقية الليلية في الهواء الطلق. وكلها تشكل سمفونية عصرية بأصوات منسجمة رغم تباينها. في الليل يمكن للمرء أن يخدع نفسه بأنه يشاهد اوبرا مع استعراض الصوت والضوء، وذلك عندما تغطى السماء باللهيب والبريق الأبيض والأصفر أو الأحمر وتنطلق اصوات مدافعنا المحلية... هذه الأصوات لا تحتوي كلمات كما في استعراض الصوت والضوء ولكنها ستدخل التاريخ الفني حسبما اعتقد، يوماً ما! بالامكان استخدام ارض العراق كلها لتصوير مشاهد الصوت والضوء هذه الأيام.

يعترض الآخرون على أوصافي الموسيقية لما يجري حولنا من أمور رهيبة... عجباً لم أصبحت لا أطيق سماع الموسيقى الأصلية؟ وكم أكره صفارات الانذار! انها مخيفة ومزعجة في استمرارها، حتى الكلاب تخافها وتنبح رعباً حال سماعها.



(مستر بوش) رفض طلبات (طارق عزيز) واقتراحاته.!كأنني كنت أعلم أنه سيرفض لأنها تتعارض وأهدافه... يا له من رجل شجاع هذا (المستر بوش) يصدر الأحكام والأوامر ضدنا وهو يلعب (الغولف) بعيداً في واشنطن.. هل تسمى هذه شجاعة؟ يصعب عليّ تصديق فكرة تخلي الجميع عنا هكذا، ثم ما بال العرب؟ لِمَ لم يسعوا هم لمعالجة الأزمة بجدية للحيلولة دون وقوع الحرب؟

هذه الحرب ستكون نهاية الوحدة العربية، التي لم تكن قائمة حقيقة على أي حال. يا ترى، لو حدث لاسرائيل ما حدث لنا أما كان انبرى جميع يهود العالم لمساندتها حتى وان لم تكن على حق؟

لن ادعي العروبة بعد الآن! انا عراقية وسأختار إما أصلي السومري أو البابلي أو حتى الآشوري... أهل لبنان يدعون انهم فينيقيون وأهل مصر فراعنة، لنعمل مثلهم إذن! انا سومرية!

كان غداؤنا شواء لذيذاً هذا اليوم. النهار جميل ولكنه صاخب وأصوات الانفجارات استمرت حتى الآن، في منتصف الليل... لا أطيق سماع (صوت امريكا) وهي تذيع بأسى وحزن، عن تأثير هذه الحرب على أطفال امريكا... أما (مسز بوش) التي يقال أنها تملك عواطف انسانية، فانها اثناء كلامها مع اطفال المدارس دعتهم الى أن لا يخافوا الحرب، لأنها تحدث في بلاد بعيدة ولن تؤثر عليهم!

هل فكرت في أطفالنا هنا في العراق؟ يا للمقاييس المزدوجة! أين هي العدالة يا ترى؟

النخلات الفحول هي الفحول الوحيدة في دارنا!

اليوم الخامس والثلاثون

في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم جاء (تيم) مع فريق من الاذاعة البريطانية جاء يسجل اخبار الذين لم يقتلهم القصف وبقوا على قيد الحياة في بيوتهم.. تكلمت أنا معهم ولا أظنني أجدت الكلام. لم أقل لهم ما كنت أبغي قوله. قلت بعض الأقوال السخيفة التي ارجو ان تحذف.. بعد ذلك صوروا فيلماً لنا ونحن نسحب جرادل الماء الى سطح البيت... ثم ذهبوا الى بيت (دود) لتصوير(نجول) وجماعتها وزوجها (جودت) طريح الفراش.. ثم ودعتهم بعد أن أعطيتهم بعض البرتقال الذي قطفته من البستان... سيكون مثيراً ان ترانا (سول) و(دافيز) على التلفزيون. الاستعداد للحرب البرية على قدم وساق... ما الذي باستطاعتنا عمله الآن؟ هل ننتظر حدوث معجزات؟

اليوم السادس والثلاثون

جلست خارج الدار في الحديقة أطبع هذه المذكرات على الآلة الكاتبة... وكان اليوم باهر الجمال. كل شيء يبدو نظيفاً لامعاً بعد هطول المطر. حتى (بقع الزيت) اختفت من الشوارع.

كم كنت أود ان اكتب كتاباً يبدأ بهذه الجملة: «انني أسكن في بستان يحوي على ست وستين نخلة وثلاث نخلات فحول ومئة وواحدة وستين شجرة برتقال. النخلات الفحول صحية وقوية وهي بمواجهة شباك غرفتي كما وانها الفحول الوحيدة في دارنا.. ويفصل

بيننا وبين البستان المجاور جدار من طين». . وبينما انا منهمكة في الضرب على الآلة الكاتبة، لم انتبه الى ان هذه الأخيرة نزحت الى حيث وضعت فنجان القهوة، فاصطدمت به وأسقطته من فوق الكرسي الصغير. . بدا لي هذا الأمر وكأنه منظر هزلي في احد الأفلام الصامتة.

مرت هذا الليلة بسلام دون غارات جوية، يسود الجو سكون نسيناه ويبدو غريباً علينا.

انا لا أصدق أنني نسيت طعم الثلج والمرطبات الباردة. تعودت شربها دافئة، وماذا يهم ذلك الآن؟ انها على وشك النفاد!

أطلت رؤوس زهور (الشقائق) في الحديقة. لقد جلبت بذورها من امبركا في السنة الماضية وهي بيضاء اللون!. . أهي علامة السلام؟ على الرغم من ذلك فهناك بعض الأشياء الجميلة من الولايات المتحدة تنمو على أرضنا! يا للمفارقة!

اليوم السابع والثلاثون

امس سمعتني (بات) من الاذاعة البريطانية، اسبغوا علي لقب (المرأة الغاضبة). سرني جداً انهم لم يذكروا اسمي لأنهم لم يحذفوا الأقوال السخيفة التي نطقت بها وأنا في سورة الغضب، كقولي أن اميركا تغار لأننا نملك خلفية حضارية لا تمتلك هي مثلها ولهذا اقدمت على قصف مواقعنا الأثرية. . أهناك من يملك عقلاً سليماً ويغار منا؟. . (شارلي) كان يقول لـ(كيكو) عندما كان الأخير صغيراً: «انه سوء حظك ايها الصغير لأنك لم تولد عربياً فحسب وانما فوق ذلك ولدت عراقياً». ماذا سيقول (شارلي) الآن؟

> **لا وقت لدينا للمرض**

ذهب (م. ع. و) لتناول الغداء مع (خليل) وقد قدم له (خليل) ديكه المفضل ليأكله. لقد سبب ذلك سوء الهضم لدى (م. ع. و) لأن هذا الديك كان مع (خليل) لمدة سبعة اعوام. وفجأة أصابه الجنون وهجم على الدجاج والبط. عرضه (خليل) على الطبيب البيطري فأشار عليه ان يطبخه (تشريب). أيمكن ان يذبح المرء حيواناً مدللاً لمدة سنوات ثم يطبخه ويأكله؟. . كأنه يأكل لحم البشر!. . (خليل) يخاف على صحته إلى درجة انه يقفل الثلاجة لئلا يسعل أو يعطس فيها احد فتتلوث محتوياتها.

في الساعة التاسعة مساء كنا في المطبخ نغسل الأواني بعد العشاء تحت ضوء الشموع المرتجف. . وكانت تلك الليلة نوبتي للطبخ. طبخت لهم لوناً لذيذاً من المعجنات مع مرقة الفودكا. ولم تكن الوجبة من الأطعمة المسروقة من الكويت، بل كانت عجينة ايطالية اصلية ورثتها من عالم الآثار الايطالي الذي كان يسكن في دار (دود). وفجأة انبعث ضياء ساطع يصحبه صوت مخيف، بدأ النور يقترب منا شيئاً فشيئاً وكأنه الشمس تدخل علينا من نوافذ المطبخ ثم غمرنا ضوء ابيض مثل ضوء النهار اضاء كل شيء. . ثم اهتزت ارض المطبخ بشدة وظننا ان الدار سوف تسقط فوق رؤوسنا. . جلسنا القرفصاء على الأرض، وفجأة انفتح الباب ووجدنا انفسنا نحن الستة جميعاً خارج الدار في الحديقة. . رأينا كرة نارية هائلة الحجم، تحلق فوق رؤوسنا، وواطئة كأنها ستحرق رؤوس النخيل. . وفجأة تحركت هذه الكتلة النارية الجبارة الى أعلى واندفعت وهي تهدر نحو السماء المظلمة.

(سهى) ركعت على ركبتيها ورفعت ذراعيها وهي تصرخ: «لماذا هنا؟ لماذا بين البيوت وفي البساتين؟».

(سهى) هكذا، حتى في حالات الخطر والعالم يتفجر حولنا. . . علمنا بعدئذ من الاذاعة البريطانية أن ما شاهدنا كان صاروخ (سكود) وقد أطلق من قاعدة متحركة فسقط في البحرين. . ولكننا قبل ذلك لم نعلم ان كانت تلك الكتلة النارية، طائرة أم صاروخاً أم قذيفة. . بل لم ندر ان كانت ذاهبة أم آتية نحونا!. . لقد شعرت آنذاك ولأول مرة منذ بداية الحرب ان نهايتنا قد حانت. . انا واثقة من ان الصاروخ لو كان اوطأ بامتار قليلة لاحترقنا جميعاً. . كنا كمن يراقب صاروخاً اطلق من (كيب كانافرال) ولكن ما رأينا لم يكن على شاشة تلفزيون، كنا تحت اللهيب تماماً!. . والطريف، انه ونحن ما نزال في الحديقة بعد الحادث مباشرة، أخذتني (ما) جانبا وهمست في أذني بصوت أجش: «ان ذلك حدث بسبب اقوالك انت حيث قلت في المقابلة التلفزيونية ان الاميركان لا يملكون خلفية حضارية». داء الشك يجعل (ما) تتكلم كلام المعتوهين أحياناً! أما ما حدث في دار (دود) بجوارنا فهو التالي: رمت (نجول) نفسها على (زينب) الصغيرة لحمايتها وارتمت (سيسون) عليهما معاً، ثم ارتفع صوت (زينب) تريد النهوض و(نجول) تمانع خوفاً عليها عندئذ صرخت (زينب) الصغيرة قائلة: «إذن سأبلل ملابسي الداخلية!». وهكذا كانت الصغيرة، اثناء كل غارة جوية تهرع الى الحمام للتبول.

في الساعة الرابعة والنصف صباحاً دخلت (ما) الى غرفتي وبيدها شمعة، ايقظتني من النوم لكي استمع الى الراديو وهو يقول أننا وافقنا على مبادرة موسكو. . وكان ذلك بعد فوات الأوان لأن الهجوم البري بدأ في الرابعة صباحاً على ما أظن. . كنا في بيت (أسماء) وتراهن عشرة منا على قضية الانسحاب: هل سننسحب أم لا؟ النتيجة ثلاثة ضد سبعة وكنت واحدة من الثلاثة الذين راهنوا على اننا سوف ننسحب. وكم كنت أتمنى ان أكون على صواب في الرهان. على الأقل انقاذاً لحياة الجنود في الجبهة! وكالعادة خسرت الرهان وكنت مخطئة في ظني.

في الساعة الخامسة والنصف صباحاً نزلت الى المطبخ لعمل قهوة. . (أمل) كانت يقظة ايضاً تستمع إلى الراديو وشاركتنا في تناول القهوة.

اليوم الثامن والثلاثون

تسود الجميع حالة اكتئاب فظيعة. الأعصاب متوترة. (أمل) غادرت الغرفة دون فطور، عندما حمي وطيس الجدل بيننا حول ما يجري. . . ركضنا وراءها وعادت معنا غير راضية، والتزمت الصمت دون ان تنطق بكلمة. . . انها تبالغ في الغضب. لكل منا الحق في الافصاح عن رأيه بصراحة في البيت، اذا لم نتمكن من الكلام





بحرية في البيت فلندع التفكير اذن ونكف عنه.

دخلت (نيدل) محملة بكافة ادواتها ووراءها ولدها (منث) يحمل الفراش. لقد كانت معه في بيته ولكنها قررت الآن الانتقال الى بيتنا. استقبلتها (ما) بالصياح والاحتجاج فلم تأبه (نيدل) بذلك وقالت انها أتت من أجل هذا!

اليوم جميل ومعتدل والربيع في كل مكان، ويصعب تصديق وجود حرب رغم اننا عانينا من غارتين جويتين في الصباح الباكر.

(فضل) أتت وطبخت عدساً لذيذاً للغداء.

لا حديث للجميع سوى عن صاروخ الليلة الماضية. لقد شاهده جميع سكان منطقة (الصليخ). وكل منهم ظن انه فوق رأسه مباشرة لأنه اطلق من مكان ما قرب الجسر القريب منا. ولذلك بدا لنا على مسافة قريبة جداً وكأنه سيحرق رؤوس النخيل... كيف يطلق الصاروخ يا ترى؟ أهو يشعل؟ أم يُحرق؟ أي كلمة تستعمل من أجل ذلك؟ وهل من يطلق الصاروخ يقف وراءه؟ وعلى أية مسافة؟ يبدو ان الصواريخ تخطىء في اصابة اهدافها إلى درجة مخيفة.. الحروب!.. انني ارتجف رعباً وغيظاً من هولها! أذيعت الكلمة التي سجلتها من دار الاذاعة البريطانية باللغتين العربية والانكليزية.. (أمل) شعرت بالاستياء لأنهم لم يذيعوا كلامها، وقد كان احسن من كلامي انا، ولكن يبدو انهم فضلوا اذاعة كلمتي بصوتي الجهوري المختلف عن صوتها الخافت الناعم.. كانت الراهبات في المدرسة يطلقن على صوتي اسم (صوت البوق). لا أستطيع ان اتحمل كون (بوش) وذلك الرامبو الفظيع (شوارتزكوف) سوف يصبحان بطلين بعد ان ينتهي كل شيء.

لن يعترفا بمسؤولية الهدم وسفك الدماء.. انهما يتظاهران بالتقوى والعدالة، وذلك نفاق لا يطاق!

هل اننا وحدنا مذنبو هذا العالم؟ هل العراق وحده هو المذنب؟ ماذا عن الولايات المتحدة نفسها؟ ماذا عن المتشردين والمخدرات والجرائم التي ترتكب علناً وفي الشوارع؟ لماذا يتجاهلون مشاكلهم؟ أم أن تسلية العالم بأخبار الحروب البعيدة هي أسهل بكثير؟

انها الطريقة القديمة نفسها التي استعملها (الرومان) في الماضي لإلهاء الجماهير بالألعاب والاستعراضات الوحشية حين كانوا يرمون المسيحيين الأوائل الى ساحة الأسود. الأمر يجري الآن كذلك ولكن بشكل معكوس.

صفارات الانذار لا تدوي الا بعد أن تغادر الطائرات سماءنا.. الطائرات تأتي أولاً وكأنها شرائط بيضاء عبر السماء ثم نسمع اصوات انفجار القنابل. وبعد ذلك تنطلق اصوات الصفارات التي لا أرى لها داعياً ابداً... ولحسن الحظ لم تذكر محطات الاذاعة والأخبار هذه الحقيقة عن صفارات الانذار والا لصرنا موضع تندر. بدأت الغارة ونحن نتناول عشاءنا في الحقيقة، لم تكن لدينا الشهية للطعام، (نجول) وجماعتها اعتادوا الغارات متجاوزين الخوف وصاروا يشاركوننا العشاء في الحديقة.

> **مسز بوش تقول للأطفال في أميركا ان الحرب لن تؤثر عليهم؟!**

اليوم التاسع والثلاثون

بقدر ما كان جو البارحة لطيفاً تبدل اليوم وأصبح كئيباً بشعاً مليئاً الضباب والدخان والغارات... لا ندري ما الذي يحترق الآن... لقد قاموا بخمس غارات جوية والنهار لا يزال في منتصفه.

السعال لا يفارقني، الهواء الملوث يكاد يرى بالعين المجردة لأنه ثقيل ومفعم ورطب فكيف نستنشقه؟ ترى ما هو تأثير ذلك على جهازنا التنفسي؟

كم قنبلة (هيروشيما) ألقيت علينا لحد الان؟ يعتقد (تيم لويللن) ان أهل العراق قد استسلموا للقدر، وهذه هي الحقيقة، نعيش وننتظر مستسلمين، ولكن الى متى؟ أيام؟ أسابيع؟ الى متى؟ قال (بوش) انه على موعد لتناول الافطار في الكويت مع أميرها في الخامس والعشرين من هذا الشهر. وها هو اليوم قد جاء ومضى ولم يتمكنا من اللقاء في الكويت، في ذلك بعض العزاء لنا..

اليوم الأربعون ـ الواحد والأربعون

اصوات الانفجار والقصف مستمرة ليلاً نهاراً. لقد اصبح النوم مستحيلاً... ما هو مصيرنا؟ اربعون يوماً مضت، الأربعون رقم ديني، اربعون يوماً ونحن نتلقى القنابل وأفواهنا مفتوحة.. ما كان لنا رأي فيما حصل ولكننا ندفع الثمن.

اننا نعيش قصة كقصص الأفلام الهندية أو كفيلم بيتر سيلرز (الوليمة). كان على وشك الموت ولكنه يرفض ان يموت وينهض واقفاً المرة بعد الأخرى لكي ينفخ في البوق النفخة الأخيرة. كذلك نحن ننهض وقوفاً كلما جاءنا الصاروخ.. الأفلام الهندية لا نهاية لها ولا أظن ان حالتنا لها نهاية.

لو لم تكن حالتنا مأساة محزنة لأمكننا ان نصفها كمسرحية هزلية مضحكة.



(مبجل) تلعب لعبة (التاروت). نحن ضد جيوش الحلفاء، وفي كل مرة يصيبنا الهلاك والموت. ورقة واحدة فقط تبقى بحالة جيدة. ثم يلاقي الحلفاء المصير نفسه. (تيم) أتى لحمل بعض الرسائل معه. انه عائد الى قبرص. لقد فتش طويلاً لكي يجدني لأنني كنت في حديقة (نجول) اقلم الزهور وأقص الشتلات. العمل في الحديقة هو سلواي الوحيدة وعلاجي الشافي هذه الأيام.. العناية بالنبات تهدىء الأعصاب بصورة لا يماثلها شيء. أقوم بتقليم النبات لدى شعوري بالقلق أو الغضب، أما عندما أشعر بالأمل والرجاء فأقوم بزرع النبات.

اليوم الثاني والأربعون

في هذا اليوم توقفت الحرب. وفي النهاية يشعر المرء انه قد وصل الى القاع.. لقد استمر القصف طيلة الليلة الماضية لكي يخمدوا آخر أنفاسنا. كانت أفظع ليلة في الحرب كلها.. ليلة قاسية مستمرة لا تلين ولا تهجع، لم يغمض لنا جفن.

القصف لا يوصف، هزنا وخضنا ودحرجنا في كل ناحية... سادتنا حالة من الفوضى والهرج دون توقف... سمعنا ان الاميركان وصلوا إلى مدينة (الناصرية). ترى هل سيدخلون بغداد ويسيرون في شارع (حيفا) كما رأيتهم في الحلم.

> صفارات الانذار لا تدوي إلا بعد أن تغادر الطائرات سماءنا

الثالث من آذار

لقد توقفت الحرب منذ بضعة أيام، وكم دامت الحرب؟ لا أدري، مذكراتي تقول انها استمرت لمدة اثنين وأربعين يوماً، لقد اوقفوا الحرب، بل المجزرة خارج الكويت، تلك المجزرة التي تصعب رؤيتها حتى على شاشة التلفزيون. انها اسوأ دعاية مضادة وليست لصالحهم.

التقى (شوارتزكوف) مع عسكريين من جانبنا. وافقوا على كل ما طلبه منهم!.. غريب أمر الأميركان، بعد كل الجبروت الذي أظهروه ضدنا، ها هم الآن يعسكرون في (الناصرية) ليقتصر عملهم على فحص الهويات الشخصية للأفراد!.. ولكن اذاعتنا مستمرة في بث اخبار انتصارنا وصمودنا!

الاذاعة تكرر التأكيد على جانب واحد، وهو اننا حاربنا وقاتلنا ضد اثنين وثلاثين دولة ولا نزال أحياء... وهي الحقيقة.

الا أن العدو قد احتل بعض أراضينا.. ثم هناك قصص لا تنتهي عن الجنود وحتى الضباط من ذوي الرتب العالية الذين يعودون من الجنوب مشياً على الأقدام.. فوضى كاملة! تستغرق مسافة المشي ما بين الكويت وبغداد سبعة أو عشرة أيام، تلاحقهم الطائرات، خاصة طائرات (جاكوار) التي تقصف المشاة المشردين. (الجاكوار) طائرات بريطانية والبريطانيون يدّعون المدنية.. لكنهم يضربون جنوداً عزلاً من السلاح وهم في حالة التقهقر... لقد مات جميع الجرحى الذين لم يتمكنوا من الهرب، والآخرون ساروا دون طعام أو شراب الى بيوتهم لكي يتساقطوا من الاعياء..

جيش بكامله يتراجع دون خطة.

الشائعات تقول ان طائرات الحلفاء (الهليكوبتر) ترمي اوراقاً مالية مزيفة على مناطق الجنوب.. إنها طريقة أخرى للأذى والدمار.

السابع من آذار

الحياة تسير من سيء الى أسوأ ولا فرج هناك أو رجاء. فقدت الأمل تماماً... يوم امس ثارت عاصفة شديدة بدأت برياح عاتية وسماء داكنة وأمطار متقطعة، ثم ثارت عاصفة رملية برتقالية اللون واشتد المطر وما انفكت الرياح تصرخ وتعول.. أسقطت الرياح نخلتين في حديقة (نيدل) على جدار بستان دارنا وهدمته، فأصبح الآن منفذاً سهلاً يدخل منه قطيع الكلاب السائبة... قتلنا ستة من الكلاب السائبة ودفناها بالبستان... ثم منع استعمال الأسلحة النارية، حتى لو طلقة واحدة، لذلك يجب ان ننتظر قليلاً، قبل القيام بحملة أخرى للتخلص من الكلاب السائبة... أكره هذا العمل ولكن، الكلاب خطرة وتعيث فساداً في الحديقة والبستان.

بعض المناطق في بغداد حصلت على الكهرباء... يقال ان دورنا غداً، أتمنى ان أصدق ذلك.. يبدو ان التيار الكهربائي يأتي ليوم واحد ثم ينقطع. أظنهم يتنقلون بالمحولة الكهربائية من منطقة الى أخرى في بغداد لكي يحصل الجميع على شيء من النور، هل سيكون باستطاعتي الحصول على الضوء بالضغط على الزر فقط؟ لقد نسيت ذلك!

الثامن من آذار

عدت اليوم بعد تناول الغداء من سمك (السالمون) الذي كانت (لبنى) قد اعطتني بعضه قبل الحرب، وقد خزنته في مجمدة (عباس) الذي يملك محولة كهربائية. أخرجته وذهبت الى (ظافر) و(معتزة) فلديهما كهرباء. حصلت على أول قطعة ثلج منذ زمن طويل...



(معتزة) تنظف بيتها بهوس ودون انقطاع منذ عودة التيار الكهربائي، لأن الضوء كشف عن القذارة في البيوت... ارتعد لمجرد التفكير بحالة بيتي بعد كل ذلك الدخان الأسود من المدخنة... البيت مغطى بطبقة من الهباب.. من الأفضل ان نبقى في الظلمة. لقد أغلقت ستائر النوافذ الخشبية طيلة وقت الحرب لحماية زجاج الشبابيك ولذلك فان البيت يبقى معتماً حتى في النهار.

التاسع من آذار

داهمني كابوس في الليلة الماضية.. أتمنى على الله ان يحرق بآبار النفط المشتعلة كل من سبب لنا هذا المأزق الذي نحن فيه... يدعي السوفيات أنهم لم يتوقعوا ان نخوض حرباً ضد الولايات المتحدة، لذلك لم يبيعونا أحسن اسلحتهم أو احدثها. باعوا لنا أسلحة تصلح للحروب مع جيراننا من دول العالم الثالث... أفهذا هو السبب الحقيقي يا ترى؟ أم انه ذريعة لتغطية عدم قدرة سلاحهم على منافسة سلاح الغرب؟.. نفاق.. نفاق... كيف نعيش مع المنافقين!

العاشر من اذار

الساعة العاشرة والنصف مساء.. خمس شموع تضيء غرفتي... يا له من إسراف.. لكننا سنحصل على التيار الكهربائي قريباً... حياتنا اصبحت مملة... اثناء الغارات الجوية كانت هناك إثارة على الأقل، اما الآن فليس لدينا سوى السكون المطبق والحياة الرتيبة، ينقضي نهارنا بين ملء شموع الزجاج بالنفط، وتنظيف الفوانيس والموقد، وجمع البرتقال المتساقط على أرض البستان وكذلك حطب الوقود، وتنظيف البيت وقذف الحجارة على الكلاب السائبة... ليس لدينا بنزين أو كهرباء أو تلفون أو مياه في الأنابيب. (هالة) غاضبة وحزينة وتقول انها خسرت حياتها ومستقبلها وانها ستموت دون ان تجرب الحياة.. والحقيقة ان افقنا لا تلوح فيه سوى العتمة والكآبة، ولا أثر للحب والبهجة.. بيوتنا حافلة بالنساء وعدد الرجال قليل جداً في حياتنا.



(بوش) سوف يبيع اسلحته القديمة للسعوديين، رغم حظر بيع الأسلحة لبلدان الشرق الأوسط... ربما لكي يثبتوا لاسرائيل من هو السيد الحقيقي في المنطقة الآن... (بوش) سوف يصنف في التاريخ مع الهدامين والمخربين لأنه لم يسعَ للمفاوضات السلمية، بل لجأ الى حرب إبادة ضدنا، نحن دولة من دول العالم الثالث، ناهيك بالضرر الذي أصاب البيئة!

الحادي عشر من اذار

أصبح حالنا كحال المدفون حيا.. ما فائدة حياتنا هذه؟ العالم يقاطعنا. اخبارنا مجهولة. لا شيء سوى الشائعات في كل مكان. شائعات مخيفة ومحزنة.

تفتحت أولى زهور (السوسن) في الحديقة.

(ما) و(نيدل) جاءهما من أصلح زجاج النوافذ في بيتيهما. كلفهما ذلك أكثر من ثلاثمائة دينار كبدل لاصلاح ثلاث قطع من الزجاج. يا له من غلاء فاحش! لقد حطمنا ثمن الزجاج المحطم!

الهواء الملوث يكاد يرى بالعين المجردة

(أمل) المسكينة صرفت آلافاً من الدنانير كي تستبدل زجاج نوافذ بيتها وعمارتها، يجب ان نرسل قوائم التصليحات الى الرئيس الأمريكي الذي قال انه لا يحارب شعب العراق... عدت من دار (سهى) الى البيت في المساء وكانت الشوارع خالية ومظلمة لا ينيرها القمر... لا شيء سوى السكون والظلام.

الثاني عشر من اذار

الشائعات تقول ان الدبابات تتقدم نحو (الناصرية) هل اندلعت الحرب الأهلية؟.. (ما) و(نجول) تعاهدتا على ان ينتحرا معاً اذا ظلت الأمور على ما هي عليه.. ولكنها عدلتا عن ذلك بعدئذٍ.

(شيخة) غاضبة على وسائل الدعاية الغربية التي بالغت وضخمت في وصفنا وكأننا قوة جبارة عظمى وجيشنا هو رابع اكبر الجيوش في العالم، الى ان صدقنا ذلك نحن أنفسنا.. دخلنا الكويت بثقة كاملة في قدرة جيشنا على تحدي العالم.. لقد صدقنا الدعايات الغربية! ان نقطة ضعفنا الكبيرة هي سرعة تصديق الاطراء والثناء..

تدور في البلد الآن حكايات مضحكة ولكنها مروعة ايضاً. مثل قصة سائق التاكسي الذي عاد من الجبهة ومعه جثة جندي شهيد في تابوت ربطه فوق سطح السيارة. وأثناء بحثه عن منزل الجندي الميت نزل من السيارة ليسأل المارة، ولما عاد وجد ان سيارته قد سرقت ومعها الميت والتابوت، وليس هناك شرطة ليشكو لهم أمره.

وقصة أخرى عن سائق لوري يبيع اسطوانات غاز الوقود. فبعد ان انتهى من توزيع جميع الاسطوانات لم يتمكن من تحريك اللوري. لقد سرقوا البنزين من خزان اللوري!.. اصبحت السرقة

هي الهواية المفضلة لبعض الناس. ربما كان قول (شيخة) صحيحاً وهو أن الغرب لا يعرف عنا سوى قصة (حرامي بغداد).

جمعت (نوفة) اكثر من مئة اسطوانة غاز فارغة كدستها في الكراج، لأن بعضهم وعدها ان يستبدلها كلها مقابل لوري مليء باسطوانات مملوءة بالغاز. تقاطر الأولاد من الجيران الى كراجها وأخذوا يستحضرون نوعاً من البنزين من بقايا الغاز في الاسطوانات الفارغة. ومن كل خمس اسطوانات تمكنوا من استحضار ليتر واحد من البنزين. وقد عبق الكراج برائحة كريهة جعلت (أسماء) تكاد تفقد صوابها.

اما اللوري والاسطوانات المملوءة بالغاز فلم يتحقق منها شيء.

ذهبت الى مخزن البقال لأستلم حصتي الشهرية من المواد الغذائية. (تحسين) البقال استمع الى كلمتي في الراديو اثناء اذاعتها، بدأ يسألني عن بريطانيا التي لم يرها في حياته. قلت له انها بلاد ممطرة، ممطرة الى درجة تبتل معها العظام. لم يجد جواباً يرد به سوى قوله: «لكل بلد محاسن ومساوىء!». شاب مؤدب... أمه (خيرية) انتظمت في صف تعليم (الأميات) وكانت الأولى في الصف، ولكنها الآن لا تتمكن من قراءة كلمة واحدة لأنها نسيت ما تعلمته مع ذلك ترغب في متابعة الدراسة بعد الحرب. اما الشغالة في دار (ما) و(نيدل) فانها بعد ثلاث سنوات من الدوام في صفوف الأميات لم تتمكن حتى من قراءة أرقام الباصات... ولكن هناك الكثير ممن تعلموا في دورات مكافحة الأمية توصلوا الى اتقان القراءة والكتابة والحساب.

اصطدم (منير) بدراجته بعمود في الطريق وجرح وجهه وأنفه.

> لن أدعي العروبة بعد الآن أنا عراقية سومرية أو بابلية!

الثالث عشر من آذار

تلبدت السماء بغيوم سوداء وهطل المطر.. كل البيوت تلوثت باللون الأسود بسبب الماء الأسود الذي يقطر من سطوحها... انه لمنظر غريب منظر البيوت الآن. لم لا نجعل تلطيخ البيوت باللون الأسود من الخارج التقليعة الجديدة في صبغ بيوتنا؟

حياتنا لا تزال رتيبة جداً ولا نسمع سوى الشائعات التي لا ندري هل نصدقها أم لا.

اشتريت تنوراً وقام (ابو علي) ببنائه. غلفه بالطين أولاً ثم بالجص الذي كان لدينا في الكراج ثم رصف سطحه بآجر أزرق اللون من (كربلاء) وزين الجوانب بأحجار ملساء لامعة كانت قد اشترتها (ما) في الماضي من مصادر مختلفة بعضها من مدينة (كربلاء) وبعضها من (الكوفة) وأخرى من (الحمزة) و(ابو حنيفة). مجموعة من الحجارة تمثل المذاهب كلها. تنور مقدس!

أشعلنا فيه ناراً ضعيفة في اليوم الأول لكي تتشقق جدرانه، ووضعنا غطاء برميل على فوهته.

كم يبدو جميلاً!.. من الغد سوف نأكل الخبز والكيك من تنورنا الخاص.

الرابع عشر من آذار

ربما سوف نحصل على بنزين يوم الأحد القادم.. (بوش) أعلن انه قلق من جراء المأزق الذي أصبح فيه العراق... يا لشهامة (بوش)!... حبذا لو بدأت بكتابة هذه المذكرات منذ بداية الأزمة عندما قام بزيارة بلادنا عدد لا يحصى من الشخصيات المهمة، ابتداء من (فالدهايم) وانتهاء بـ(دي كويلار).. في تلك الأيام كان لدينا دائماً بعض الأمل، أما الآن وبعد الذي حدث، أصبحنا بلداً مغلوباً على أمره!

أكاد أجن من بعثرة الأفكار وتشوشها! وأخشى ان أقوم بعمل جنوني! ما العمل؟ ها [illegible]

السادس عشر من آذار

(سهى) حصلت على التيار الكهربائي امس. (م. ع. و) مر علينا ليخبرنا ان الجميع ذاهبون إلى هناك حتى (باسل).. هل سيكون وجه (باسل) هو أول وجه أراه في النور الكهربائي؟ قررت عدم الذهاب واذا (م. ع. و) يغير رأيه ايضاً ويبقى معنا. لعبنا وإياه الورق. انه يشكو مني دائماً ويتهمني بأني أغش أثناء لعب الورق واسترق النظر الى أوراقه.

ولكن أهو ذنبي انا ان كان يحمل أوراقه ويضعها أمام وجهي تماماً، لأنه لا يرى جيداً على ضوء الشموع والفانوس. وهو لا يدري أن ذلك لن يفيدني لأني لا أتذكر ما أرى من الورق ابداً.

تفتحت أزهار أخرى من السوسن.

رأيت (خليل) وسألته عن ديكه المفضل الذي أكله، وأخبرته ان ذلك يعتبر كأكل لحوم البشر. أخبرني أنه نادم جداً وأن الأحلام المخيفة طاردته لمدة أيام.

السابع عشر من اذار

هناك شائعات فظيعة عن مدن البصرة وكركوك والكوفة، شائعات لا تصدق..

الثامن عشر من آذار

توافد عدد لا يحصى من الزوار على الاستوديو دون انقطاع ومنهم (آسيا) و(سهى)، ووصفوا القصف الشديد الذي أصاب منطقتهم مقابل المصفى، وقالوا انهم قضوا فترات القصف متلاصقين على أرضية غرفة الغسيل، لأنها الغرفة الوحيدة التي لا تحوي نوافذ للخارج.. وقالوا ان كل نوافذ البيت تكسرت وكذلك في كل البيوت المطلة على النهر مقابل مصفى (الدورة).. جاء (سعيد. ش.) على دراجته الهوائية وهو يرتدي طقماً من الملابس ناصع البياض، وفي جيبه قنينة من عصير الليمون وفي الجيب الآخر



(فودكا) مع قدح. منظر غريب في بغداد منظر (سعيد. ش.) هذا... ألقى علينا محاضرة حول فوائد غلق ابواب الثلاجات والمجمدات سواء كان هناك تيار كهربائي أم لا. وقال ان فتح الباب يؤدي الى تشقق وجفاف مطاط الأبواب.

نفد بنزين جماعة (المنصور) منذ اسبوع، ولذلك انقطعوا عن زيارتنا، ذهبنا نحن لكي نزورهم. سمعنا القصص الكثيرة عن السرقات في منطقتهم وان اللصوص يفضلون سرقة الثريات الكهربائية بصورة خاصة. يبدو ان هناك مخازن لبيع الثريات تسعى الى المزيد منها. هل يفكر بعض اللصوص بفتح مخزن جديد يبيعون فيه الثريات؟

التاسع عشر من آذار

لا علامة في الأفق تشير إلى تحسن في أحوالنا التعيسة.

العشرون من آذار

كنت على دراجتي الهوائية ذاهبة لشراء الخبز حين ظهرت سيارة بيضاء اللون وبوقها يدوي بجنون. انها سيارة (ميرا والهام) لقد قدما الى بغداد قبل مدة قصيرة من الحرب، ولم أرهما منذ اليوم الأول لها. أخبرتني (ميرا) ان والدها توفي يوم المطر الأسود ولم يعلم بوفاته لا الأهل ولا الأصدقاء. ولقد قاسوا الأمرين لدى الدفن، كايجاد (قس) للصلاة عليه وإجراء المراسيم الأخيرة. وتاكسي الذهاب الى المقبرة وحتى حفار القبور... قصة محزنة ومخيفة مررنا بمثلها لدى وفاة (منذر)... سطت عصابة على دار (امبرتو) وسرقت من المخزن ألف صندوق بيرة تعود الى شركته، وسرقوا مع البيرة ملابسه كلها ولم يسرقوا أشياء أخرى. ان ثمن البيرة المسروقة وحدها ثمانون ألف دينار.. ثروة.. الأشياء التي تسرق بكثرة الآن هي: البيرة والبنزين والسجائر وكلها تباع بالاسعار نفسها.. فاللصوص لا يسرقون من الأدوات الكهربائية الآن إلا الثريات لأن سوقها رائج.

في أول شهر (حزيران) القادم سوف يسمح لنا بالسفر الى الخارج. ان حق السفر هو أحد حقوق الانسان.

الثامن والعشرون من آذار

توقفت عن الكتابة هذه الأيام بسبب الكآبة التي أصابتني. اكرر القول أن الأمور لا يمكن أن تصبح أسوأ مما هي عليه، ولكنها تستمر في التدهور. الى أي درك سوف نهبط يا ترى؟

رافقت (نوفة) في الذهاب الى (سلمان باك) لتتفقد شؤون البساتين هناك.. كان هناك حقل تغطيه ازهار الهندباء البرية التي تبدو كالكرات المنفوخة... عندما كنا صغاراً كنا ننفخ عليها ونطلب مراداً نتمناه... حاولت ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة كان مطلبي

معرفة متى ينتهي شقاؤنا. وفي كل مرة تبقى بعض الوريقات عالقة في مكانها. أحصيت عددها وكان المجموع سبع عشرة وريقة. ماذا يعني ذلك؟ سبعة عشر من الأيام أم الأسابيع ام الشهور ام السنوات؟... ربما سبعة عشر شهراً، أو لعلها سنوات!... لا سمح الله! لا يا الهي!..

في البستان علي الآن ان أقوم بحرب جديدة على القواقع التي هاجمتنا ملايين منها... ولكني استعمل الرقم الذي نسمعه حول كل شيء أقول بلايين منها. كل يستعمل هذا الرقم الآن. لم لا استعمله في وصف اعداد القواقع (الزلنطح) الهائلة؟ انها تلتهم كل شيء اخضر أمامها، حتى شجرة (الماكنوليا) الصغيرة التي أتيت بها من حديقة (أسماء). (أسماء) قالت ان المصاعب تحدث في حديقتي فقط. القواقع لم تظهر في حديقتها. تضاعف عدد الكلاب السائبة وأصبح (سلفادور) المسكين يتبول طيلة الوقت لكي يرسم حدود منطقته الخاصة، بحيث ان رجله اصبحت مرفوعة الى أعلى طيلة الوقت. انه يبدو منهوك القوى ولعله أصيب بالجفاف. عدنا الليلة الى البيت مشياً على الأقدام ندفع دراجتينا امامنا وكان البدر على وشك التمام ينير لنا الطريق. (ياكي) زف البشرى الى (نايلة) أنه رأى أخاها على شاشة التلفزيون في لندن مع غيره من الأسرى في المملكة العربية السعودية. انه حي يرزق كما تقول شبكة C. N. N التي عرضت صور الأسرى.

اللصوص يسرقون البيرة والبنزين والثريات

الثاني من نيسان

قررت ان ابدأ بناء حوض سباحة في الحديقة وأخبرت (ابو علي) بذلك، وعدني بالبحث عن عمال لهذا الغرض.

الخامس من نيسان

جاء (ابو علي) اليوم ومعه اربعة من الشباب الأشداء الطوال القامة، وكل يحمل مسحاة بيده، رسموا خطوط الحوض بالطبشور الأبيض على أرض الحديقة، في المنطقة بين الدارين، وابتدأوا بالحفر حالاً بقوة ونشاط ودون توقف بصورة لم أر مثلها في عمالنا من قبل.

العاشر من نيسان

اصبح طول الحفرة ثمانية أمتار وعرضها أربعة أمتار مع عمق يتدرج من متر واحد الى مترين. تراكمت على الجوانب جبال من رمال. أعلن العمال ان إزالة الرمال ليست ضمن مسؤوليتهم. ولكني أنا المزهوة بأني المالكة لهذه الحفرة في الحديقة غاب عني أمر واحد هو ان الاسمنت مفقود ولا يمكن الحصول عليه. ان الاسمنت مخصص للاستعمال في المشاريع الحكومية فقط، مشاريع اعادة البناء. يبدو اننا سرعان ما نسينا أن معظم المصانع والمعامل قد أصابها القصف الجوي ومن ضمنها معامل الاسمنت... بريدنا الخاص تحسن عما كان عليه. (فريكو) العزيزة أصبحت وكيلتنا ورسولتنا في الأردن.

وهي تؤدي خدمة ممتازة يقوم بها سواق التاكسي ما بين عمان وبغداد وبالعكس. فهي ترسل لنا الرسائل والفاكس والجرائد وبعض الأطعمة اللذيذة. الجرائد هي كل ما أتمكن من قراءته الآن.. لا زلت غير قادرة على الاستماع الى الموسيقى ولكني عدت الى الرسم مرة أخرى.. لا أدري لمَ لم أتمكن من الرسم أثناء الحرب. (سينا) استمر في الرسم والاستماع الى الموسيقى طيلة أيام الحرب. لقد حدث معي الشيء نفسه أثناء الحرب الأهلية في بيروت، وكان ذلك ما دفعني الى مغادرة لبنان. ان قابلياتي الفنية تنضب وتجف أثناء الحروب. لا شيء يقتل الروح والخيال مثل الهدم والتخريب.

الخامس عشر من نيسان

فاجعة حلت بي!.. بدأت أشك بوجود خلل في فيلم الكاميرا الذي بدا لي وكأنه لن ينتهي! فتحت الكاميرا في الظلام، ولم يكن في داخلها فيلم. كانت خالية.. يا للحزن ويا للأسف! من أين لي حرب أخرى لكي أصورها؟

وهكذا ضاعت وذهبت تلك الصور الفريدة، وفقدنا الدليل المصور على ما مر بنا من حوادث.

هنا تنتهي المذكرات. الا ان هناك بعض الأشياء يتوجب عليّ ان أضيفها ولا أدري كيف فاتني ان أكتبها في حينها. بعد أن انتهت الحرب استمر الحلفاء بالطيران ليلاً نهاراً فوق رؤوسنا بسرعة تكسر حاجز الصوت. في حربهم مع (نوريجا) في (بنما)، التجأ (نوريجا) الى سفارة (الفاتيكان)، ولمدة خمسة عشر يوما أمر (بوش) باستخدام الموسيقى العالية المستمرة (الروك) فأصيب (نوريجا) والسفير بالصمم من تلك الموسيقى الصاخبة.

أما تعذيبنا نحن فقد استمر اشهراً، ولعشرين أو ثلاثين مرة في الليل والنهار تطير فوق رؤوسنا طائرات (الجت) بسرعة تفوق سرعة الصوت وتحدث جلبة مخيفة تصم الآذان. تهبط هذه الطائرات علينا وتمرغ أنوفنا في التراب.

في بيروت كانت طائرات اسرائيل تطير فوقنا في النهار فقط، تطير يومياً ولمدة سنوات.

في السادس والعشرين من نيسان فتحت (سول) باب (ما) و(نيدل) فجأة ودخلت في وقت القيلولة وكل منهما مضطجعة في كرسيها... أما أنا فلم أرها الا بعد خمس ساعات. لقد قلت دوما ان (سول) ستكون أول من يجرؤ على العودة الى بغداد بعد الحرب. وبمجيئها بدأنا نتصل بالعالم الخارجي مرة أخرى.

(بوش) يعلن انه ليس ضد الشعب العراقي. ألا يعلم أو يدرك أن الشعب العراقي هو الذي قاسى الويلات؟ نحن ابناء الشعب الذين قاسينا حياة الشظف القاسية دون ماء ودون كهرباء!... لقد نجح الغرب في تخريب الشرق الأوسط وتمكن من ذلك بواسطة أموال العرب أنفسهم.

هذه الحرب كانت بسبب البترول وليست من أجل الديموقراطية... هل ستتجاوز الكويت ذلك؟ ثم ماذا عن المبالغ

الطائلة من المال الاحتياطي التي اضاعتها الكويت والسعودية؟ وماذا عن المال الذي كانت مصر تصبو اليه. اما الأردن المسكين فلا يزال يعاني الويلات بسبب موقفه مع العراق وكذلك اليمن حيث طرد اكثر من مليون ونصف المليون يمني خارج السعودية حالاً.

وقد ساءت حالة الفلسطينيين أكثر مما كانت عليه، بل انني لست واثقة من ان طرفاً عربياً أو اقليمياً قد كسب الحرب؟

ان المنطقة كلها خسرت بسبب هذه الحرب يا مستر (بوش) حسبك كل هذا!

سأرسل هذه الكلمات الى أختي (سول) في نيويورك لكي تكتب النهاية.

بغداد - حزيران / يونيو ١٩٩١

لاحقاً آب/ أغسطس ١٩٩١ (فرنجمتن بي. ماين. الولايات المتحدة) أرسلت نسختين من هذه المذكرات الى (سول) ضاعتا في البريد. لحسن الحظ ان (ما) تملك نسخة ثالثة منها. في المحاولة الثالثة وصلت الأوراق بسلام في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢. لا أدري لِمَ ضاعت النسختان الأوليان، أهو البريد الاميركي السيء؟ أم انني كتبت الرمز البريدي خطأ؟..

لقد أقسمت أنني لن أسافر الى الغرب ثانية، (سول) ناقشتني بحدة وكان رأيها ان الحياة يجب ان تستمر. من يعرف (سول) يعلم مدى عنادها وثباتها. لذلك كتبت الرسائل وحصلت على (الفيزات) المطلوبة. أرى ان الجميع يرفضنا. هل أصبحنا في هذا الدرك الذليل؟

اخيراً وصلت الى لندن.. شعرت بالحزن والكآبة وأنا أرى ان لا أحد هنا يهتم بوضعنا المأسوي. الجرائد لا تكتب سوى عن الأكراد أو حول مفتشي الأمم المتحدة.

والآن أنا في ولاية (ماين) مع (سول) والدكتور (قيس) ومعنا (ما) و (كيكو). اجتماع عائلي لا ينقصه سوى (دود) وعائلته. بدأنا بتنقيح المذكرات. (سول) أصبحت رئيسة التحرير بيننا.

أما في العراق، فان اعادة بناء ما تهدم كانت مفاجئة ومثيرة. معظم الأبنية والجسور أعيد بناؤها ببراعة وإبداع عراقيين، رغم ان ذلك كان بمستوى العالم الثالث من ناحية المتانة فها بني شيدناه بسواعد ابنائنا دون مساعدة من الخارج. المجتمع يقاسي الآن من الغلاء والتضخم المالي والنقود المزيفة والفقر والجوع. هناك نقص كبير في الأدوية والخدمات الاجتماعية والطعام والأدوات الاحتياطية، وليس بالاستطاعة الحصول على هذه الأشياء الا بأسعار عالية. الخدمات الاجتماعية فوضى والسرقات منتشرة وبغداد التي كانت بلد السلام والأمن المستتب فقدت أمنها وسلامها، ان حالتها محزنة.

سوف اعود الى بغداد في ايلول/ سبتمبر القادم والذكرى الثانية لأزمة الكويت قد مرت ولكن طبول الحرب تقرع من جديد. الصورة نفسها تتكرر. □

نهى الراضي



■ ولدت في بغداد ١٩٤١. تدربت في مدرسة بابيمشو للفنون - لندن وتشلسي بونزي - لندن بين عام ١٩٦١ - ١٩٦٣. درّست في الجامعة الامريكية - بيروت بين عام ١٩٧١ - ١٩٧٥.

أقامت ١٧ معرضاً شخصياً للسيراميك في بغداد، وبيروت والكويت وأبو ظبي وعمّان ولندن وواشنطن. كما ساهمت في العديد من المعارض الجماعية في بغداد، وبرلين ولندن □





ثمرة ناضجة

يوسف بزي

أوراق الغائب
شعر
بول شاوول
دار الجديد - بيروت ١٩٩٢

■ برز بول شاوول في السبعينات كواحد من القلائل الذين اجتهدوا وحاولوا في اللغة الشعرية بعيداً عن السائد حينذاك من احتفالية ومنبرية وخطابية في القصيدة العربية. واتخذ منذ ذلك الحين مساراً اتسم باشتغال فني وتقني وبمحاورة لأوجه اللغة وقدراتها، في احتفاء مشهود بكل ما هو داخلي وحميم. وفي تناول خاص للعناصر وللعالم.

وبمعنى آخر برز بول شاوول كواحد من التجريبيين الفعليين حيث تجاور الهاجس التنظيري النقدي عنده مع الكتابة الشعرية، تجاوراً لصيقاً، فمن العبارة الواحدة نفسها إلى جسم القصيدة ككل، كان شاوول دوماً يستطلع امكانيات جديدة لها. ولهذا كان كل نتاج شعري له يمهد لطرح نقدي يدافع عنه، بحيث لوحظ دائماً وعلى منوال متكرر ان شاوول يحاول بلورة تيار نقدي وشعري يوازي التيارات الأخرى التي كان لها نصيب أوفر في الإنتشار، كما في الأفول سريعاً على نحو مثير للذهول. في حين كان ما يحاوله شاوول رغم ضيق حيزه، يتثبت أنه احدى المحاولات القليلة التي تتسم بمقدار كبير من العمق والأصالة في تجديد الخطاب الشعري، ولو صعب علينا التعامل معه كتيار أساسي في الشعر العربي.

إذ ان ما يشغل بول شاوول هو اقامة كلام شعري في لغة لا تتوالد من البيان العربي وإرثه المديد. انه تأليف شعري يبتعد جذرياً في اسلوبيته وبنائيته عن الأسلوبية والبنائية «العربية». وهو شغل ان كان يدعيه ويعمل عليه الكثيرون من شعراء الحداثة العربية، فان شاوول برز بينهم كأشدهم حساً وايغالاً فيه. انه يكتب كمن يصفّي بشكل محموم كل التقاليد البلاغية والغنائية، ابتداء من تركيب الجملة نفسها وايقاعها، وصولاً إلى هيكلية القصيدة ومحتواها. انه ثوري (بالمعنى العميق للكلمة) في تحسسه للغة وفي تجديد رونق العبارة بحيث أن سعيه الدؤوب للتنقية والتشفيف والتكثيف والدقة على مستوى حرفة الكتابة، لا يحد من اطلاق التخييل الشعري لديه، بل ربما يشحذه ليطلقه بفعالية أكبر وطاقة أوفر. وربما نستطيع القول أن في هذا السعي توسيعاً لحقل الدلالة والإيحاء، واعادة اعتبار للعبارة بعد إزالة كل ما ترسّب عليها:

قصيدة ضئيلة متبقية من نص هائل

«الشموع حولي سوادها كثير» (ص ٥١).

«طفل من دمعه مرآته. يعد أصابعه بعينيه. وكلما عد أصابعه بعينيه بكى.

من دمعه مرآته. برتقالة تتدحرج من رأسه إلى صوته ولا أسمعها.

عصفور يطفر من وجهه ويسقط هامداً في عينيّ» (ص ١٢).

«لم تصدقي أن الهواء بلا ميراث» (ص ٧٦).

نسوق هذه الشواهد العشوائية لنقول أن الكتابة الشعرية، التي يتنكبها شاوول، أول ما تتصف به، أنه كلما أوغل في وصف الخارج كلما تكشفت لنا داخليته. وكلما تكررت العبارة أو اللفظة تجددت وتوسعت دلالتها ونما إيحاؤها على نحو ملموس وأكيد. والصفات هذه قد تلقى على كتابة أخرى، إلا أنها هناك طافية وهنا راسخة.

ففي كيفية تحريك واستخدام الكلمات، سعي لإقامة تحولات حقيقية يخرج المفردة والتعبير عن معناهما القاموسي الاصطلاحي. هذه الكيفية تقصد الإحتفال الداخلي والرهيف بالكلمة كما تقصد اكتشاف شاعرية علائقها غير التقليدية والمبتكرة على نحو خالص. فمثلاً اذ يستعمل الشاعر عبارة ما عدة مرات في القصيدة الواحدة (وفي عدة قصائد أيضاً) فإن معاني العبارة تتبدل تبدلاً كبيراً وتتغير وظيفتها الإيحائية تغيراً كاملاً:

«أمشي منذ أيام. أعد بصوت منخفض الأشجار. القبعات. الشوارع. بصوت منخفض. أمشي بصوت منخفض منذ عدة أشجار. وقبعات، وشوارع. منذ عدة أعوام أمشي بصوت منخفض. منذ عدة أصوات منخفضة في الأشجار. والقبعات. والجدران.

منذ عدة أموات» (ص ٧٤).

كأن قصيدته محض اشارات متقنة الصنع والتشذيب. فهو يعمد إلى الإيحاء باقتصاد

شديد في المفردات. فتبرز القصيدة خارج جسمها اللغوي، كأن مراميها لا تؤطرها ألفاظها بل توحي بها إيحاء خجولاً وبذكاء خالص، بحيث تتبدى شعرية القصيدة في خارجها، في الصمت الذي يليها، في البياض الذي يجاورها.. هذه الروح التجريدية لا تبغي قطع الكلام وبتره، ولا تبحث عن امكانيات لتقليص انشائيتها، بل هي تبحث فحسب، عن المظاهر الحيوية للتعبير بحيث يتجاوز اللفظية إلى طاقة اللفظ، إلى شعر صاف، مقطّر. واذا كان أحياناً يبين، في الانطباع الأول، عن حذلقة لغوية، إلا أننا سرعان ما نكتشف ايحاء ذهنياً وحتى عاطفياً في صلب هذا اللعب اللغوي المجرد. وعلى كل، فهذا الأمر لا ينفي جنوح الشاعر إلى الغموض والابهام والمعنى المغلق، فهو يجد الشعر «النخبوي» على الأرجح، وفي تفسيرنا هذا قدر من الالتباس لا بأس به لا نسعى لنكرانه. وقد ينطبق تفسيرنا هذا على نتاجه السابق أكثر مما ينطبق على ديوانه هذا.

ان «النقاء» الشعري هو الطموح الأول في كتابته، في صياغاته، في تبصره الشديد الحذر لاختيار أدواته وتعابيره وصوره التي لا تخلو من الابتكار والثراء. ولعل «أوراق الغائب» ـ بالنسبة للشاعر أولاً ـ مغامرة حسية من الدرجة الأولى، يحفزها البحث عن مسالك جديدة على مستوى امكانيات جمالية تنسق ما بين الذهني والحلمي على نحو دقيق وشفاف. وتعيد للغة تألقها وتدل في جوهرها على أصولية، بمعنى من المعاني، وذلك في تطلبها للإيقاع وللتقارب الكيميائي بين الكلمات.

وقد نتساءل بحق عن هذا الانطباع الذي يتكون حين نتابع مجمل نتاج شاوول الشعري: هل هذا الشاعر، منذ أول مجموعة وصولاً إلى «أوراق الغائب»، يكتب بوعي منهجي؟ وإذ نميل إلى الإيجاب نرى أن شاوول يبدو شاعراً منهجياً نموذجياً حيث ترتبط أول قصيدة نشرها بآخر قصيدة برباط وشيج في الصنعة الشعرية وفي التخييل وفي وحدة المسار وطبيعة التطور، فنرى مجمل الفروقات بينها ـ الشاسعة أحياناً ـ لا تلغي وحدة نبرتها وحوافزها الداخلية، وبرغم كثرة تجاربه وتعددها واتساعها، بل وتطرفاتها المتناقضة، لا نقدر على وصفها بالتبعثر أو القفزات أو الإنقلاب والتغير، بقدر ما هي تنوعات للصوت الواحد.

وقد يكون بول شاوول حالياً، الثمرة الأكثر نضجاً للمدرسة اللبنانية في الشعر العربي التي يشكل سعيد عقل وأمين نخلة والياس أبو شبكة وصلاح لبكي وآخرون، الجيل الأول فيها. كما يشكل شوقي أبي شقرا وأنسي الحاج جيلها الثاني. واذا كانت تجربة بول شاوول الشعرية وبشكل نموذجي تجد مرجعيتها وضميرها في مشروع مجلة «شعر» وطروحاتها وإرثها الثقافي المؤثر والطليعي، فمما لا شك فيه أن اخلاصه لهذا الإرث لا يتناقض بتاتاً مع افتراقه افتراقاً لا بأس به عن ممارساتها ونماذجها الشعرية. ومبعث هذه المقارنة كون الشاعر هو أحد الواعين لتجربة «شعر» والذين لم يرتكسوا أو يتنكروا لطروحاتها الطليعية والتجريبية التي بثتها في روح القصيدة العربية، ولا بأس أن نذكر أن عباس بيضون (أحد مجايلي شاوول) هو الآن الصوت المضاد في مسار هذه التجربة/المدرسة.

وفي حديثنا عن تنوع وتعدد تجارب شاوول، كما في حديثنا عن «المدرسة اللبنانية» في الشعر العربي، نستطيع أن نقول أن الشاعر في أعمال معينة هو أقرب إلى تجريبية أبي شقرا من وجهة تتصف بكسر البلاغة والتقاط الجوهري من المعنى، وفي أعمال أخرى، خاصة الأخير، يبدو أقرب إلى جورج شحادة (هذه المقارنات لا تسعى إلى أي تشبيه أو مطابقة) وفي هذين المثلين تأكيد على ارتباط تجاربه في مناخ وتيار واحد، يجمع بين براعة التقنية وعفوية التعبير ضمن تجديد مستمر للغة الشعرية الموروثة والإنشاء المستجد والمبتكر.

على كل، وفي تخصيص لكلامنا عن نتاجه الأخير، نرى أن هذا الديوان يضيف إلى النتاجات السابقة ليس ثبات سمة التجريبية التي وصمت الأعمال السابقة فحسب، بل استثمارها في كتابة غنائية على نحو ملفت ومثير للتقدير. ورغم ميله إلى الحذف المتطرف لمكونات الجملة الشعرية واختصارها أكثر من الإمكان، فإنه لا يني يحافظ على الإيقاع الجواني للفظة والكشف عن إمكانيات كامنة فيها أو جديدة بنسبة ما. وما يميز هذا الديوان مقارنة بما سبقه، هو انفتاحه التعبيري وتكويناته، الصورية الأكثر مادية ووضوحاً، فمن حالات شعرية خالصة وذهنية ينتقل هنا إلى استشفاف واستدراج للخارجي و«الواقعي» واستنباط رؤى شعرية منها، وهو أمر نادراً ما كان يقاربه الشاعر سابقاً:

«هذا الخجل من الفجر. وتنقشع إلى انطوائك الفاجع. ولتحاذي وجهك مرآة لا تتسع لدخولك» (ص ١٤).

الديوان مغامرة حسية من الدرجة الأولى

«هذا الخجل من الفجر. كم أن خلفك كثيف وكم قدامك. وكم أن الموق لا يعرفون. وكم أن عينيك مسبلتان على احمراره القاسي.
هذا الخجل من الفجر» (ص ١٥).

ويعمد شاوول أيضاً في «أوراق الغائب»، بمداراة واشارات مكثفة، إلى استحضار الذاكرة، وإلى إلتقاط بعض من مشاهد السيرة في ثلاثة أبعاد: الأنا ـ الطبيعة ـ الحرب. والأخيرة نراها مبثوثة ومتفرقة إلا أن بصمتها واضحة كل الوضوح، في انكسار الجسد، في الطبيعة المدمرة، في الحنين والحزن الدفين، وفي اليأس اليومي كما في العزلة المتمثلة بالإنساني والهواجس التي يتضاءل فيها العالم إلى حجم حلم واحد وجسد متوحد.

«عندما اخترقت الرصاصة الأولى صدري تلاشيت كمن تمسك بالهواء من رؤوس أهدابه.
كان ارتطامي أعمى.
كان ارتطامي آخر اعتراف يتلوه الجسد قبل الهاوية» (ص ٨).

إذاً الملاحظ في هذا الديوان تحديداً،





تقليص المسافة التي كانت تفصل الشاعر عن المناخ الشعري الجديد، بحيث يبدو في انشائه، ولغته، وغنائيته، بل في مشهديته، يتقارب كثيراً من قصيدة التسعينات في بيروت، مما أعطى لقصيدته ملموسية وحسية، قليلاً ما كانت تتراءى في سوابقه، مع احتفاظه الأكيد بصوته الخاص ومناخه المتفرد.

واذا كان بول شاوول كاتباً مسرحياً من الطراز التجريبي (اذا صح التعبير)، فإننا غالباً ما نستشف مكاناً وزمناً مسرحياً في قصيدته، مكاناً وزمناً عبثيين ومطلقين، فأي حوار أو كتابة هما مونولوغ داخلي يحطم أية امكانية للبلاغة، في تأكيد مستمر لتلاشي الأشياء والعالم. نستدل على ذلك من تلاشي العبارة نفسها في لحظة انبجاسها وذروتها التعبيرية، حيث في الذروة يتحصل موتها.

ويبدو «أوراق الغائب» أيضاً لحظة إلتقاء لمجمل إرثه الشعري، فقسوة التعبير وغرائبيته في «أيها الطاعن في الموت». وعبثية المعنى في «بوصلة الدم». وكثافة الصورة في «وجه يسقط ولا يصل» أو «الهواء الشاغر»، وصولاً إلى الصخب اللغوي والملحمي في «موت نرسيس». كلها نراها على درجة أو نسبة متفاوتة وقد تداخلت وتوزعت في صياغة قصائد «أوراق الغائب» التي تستجد فيها هذه الروح الغنائية. ومن الأفضل أن نقول أن هذا الديوان هو بشكل أو بآخر خلاصة تلك العملية التجريبية الطويلة التي استطاعت الآن أن تمس المادة الشعرية بصمتها أو بكلامها على حد سواء:

«كيف تتسع المرآة لكل هذا الإمِّحاء؟» (ص ٢٨).

وتوحي لنا قصيدة شاوول وكأنها الشيء الضئيل المتبقي من نص هائل. نص تعرض مراراً وتكراراً للقراءة والحذف، بقسوة وعناد، وكأنه، في اختصاره وحذفه، يوشك أن يمحي القصيدة كلياً، إلا أنه في اللحظة الأخيرة يترك لنا اشاراتها فقط، والتي تكتمل في الصمت الذي يليها. واذ تبدو قصائده قصائد بوح بامتياز، فانه يتجنب أن يكتمل بوحه، كمن يعتقد أن شاعريته تكمن في عدم تتمة الكلام، في ايقاف الجملة وحدِّها وقطعها ومنعها من الاستدراك، بل كمن يقاوم أي اغراء تبديه التعبيرات الأولى والأفكار المتتالية.

«أوراق الغائب» تكاد تكون أكثر حضوراً في تعبيرها الممتنع على البلاغة، وفي غنائيتها الممتنعة على الإنشاء. □

قبلية مستمرة

أحمد مفلح

الحركة الوطنية اليمنية
دراسة
سعيد أحمد الجماحي
مركز الأمل للدراسات والنشر - عدن ١٩٩٢

■ التاريخ حلقات مسلسلة لا يمكننا فصلها، فالحكم على الماضي لا يمكن بدون فهم الحاضر ومعرفة ما وصلنا إليه، وفهم الحاضر لا يكون الا بالعودة إلى بدايات الأحداث وحيثياتها. وهذا لا يعني ان التاريخ فقط سرد أحداث ووصف حالات، بل الغوص في كنه الحدث والتقاط دوافعه وخلفياته، وعند ذلك يمكننا التكهن بالمستقبل والحكم عليه.

والكتاب الذي بين أيدينا، «الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة»، لا يمكننا فهم موضوعه، أو وضعه في اطار الحكم التاريخي من دون العودة إلى بدايات التاريخ اليمني، هذا التاريخ الذي بقي مرتهناً لثلاثة عوامل: نفوذ السلطة المركزية وقواتها؛ والاطماع الخارجية؛ والنزاعات الداخلية. ولكن بقيت حاجة الوحدة وحبها والفناء في سبيلها هي الشعار الملازم لهذا التاريخ.

فاليمن تعني تلك الأرض التي على يمين شبه الجزيرة العربية، على اعتبار أن الشام يقع على شمالها، وأن الحجاز هو وسطها وهو الحاجز الذي يفصل بينها. وسميت بالخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزرعها، والبحر محيط بها من المشرق إلى الجنوب راجعاً إلى المغرب. وحديثاً تعرَّف أرض اليمن بأنها منطقة الجنوب العربي أو أرض اليمن؛ فمنطقة الجنوب العربي كانت تعرف أنها تلك المنطقة الجغرافية الواقعة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية والتي تشمل اراضي حضرموت والمهرة المتاخمة لسلطنة عُمان شرقاً وعدن حتى باب المندب والممتدة على ساحل المحيط الهندي جنوباً، أما أرض اليمن، فتعرف بأنها كافة اراضي اليمن العربية التي تحدها المملكة العربية من الشمال والشرق ويحدها البحر الأحمر على امتداد الطرف الجنوبي من ساحله الشرقي حتى باب المندب، وهي منطقة جغرافية تبلغ مساحتها ٢٤٠ ألف ميل مربع[1].

إن هذه التعريفات والحدود اليمنية تعكس مدى الاتساع أو الانكماش الذي تعرض له نفوذ السلطة المركزية، وان هذا النفوذ كان مصحوباً بالاتساع الجغرافي احياناً، إلى خارج الأرض اليمنية، عندما تكون السلطة المركزية قوية؛ اما عند تراخي هذه السلطة، فإن الانقسام والتجزؤ كانا هما السياسة السائدة.

ومنذ فجر التاريخ ارتبطت الحياة اليمنية بالاستقرار في الأودية وممارسة الزراعة والتجارة، وقد عرف اليمنيون الدولة منذ عصور مبكرة نسبياً، وكانت هذه الدولة، كبقية دول العرب قديماً، هي دولة قبائل. ولكن مع قيام المصالح التجارية وقيام

الاتصالات بمجتمعات الانهار نشأت الحاجة إلى وجود سلطات تنظم حياة هذه الدول والمجتمعات وعلاقاتها الخارجية. فسادت صيغة التحالف بين القبائل، إلا ان هذه التحالفات كانت تتخللها بعض المحاولات للضم القسري والحروب. وقد ارتبط تاريخ اليمن بحضارات عظيمة ذات شأن بدءاً بمعين وسبأ وذي ريدان وقتبان وحمير وحضرموت وغيرها. وتمثل سبأ أول وأكبر وأهم تكوين سياسي، وان الدول التي ذكرت معها أحياناً لم تكن سوى تكوينات سياسية كانت تدور في الغالب في فلكها، ترتبط بها احياناً، وتنفصل عنها حيناً آخر، أو تندمج فيها لتكون دولة واحدة مثل دولة حمير والتي لقب ملوكها بملوك سبأ وذي ريدان. وأرض سبأ في فترات امتداد حكمها كانت تضم ارض اليمن كلها.

إذاً، اليمن القديم عرف تطور كيانات وحدوية ونفوذ سلطة مركزية قوية، لكن هذه الحال لم تكن دائمة ومستمرة؛ فهناك عوامل عدة كانت تتلاعب بمصيرها وبقائها. ومن هذه العوامل ما هو داخلي، صراع الابناء والأسر وذوي النفوذ، ومنها ما هو خارجي، ارتبط بأطماع قوى كبرى غير - يمنية، ولا تنتمي إلى الجزيرة العربية مثل الأحباش والبيزنطيين والفرس. فقد استغلت هذه القوى الخارجية الصراع اليمني الداخلي، فنظمت الحملات العسكرية المتتابعة، وكان ابرزها الحملة الرومانية عام ٤٢ ق. م. التي تمكنت من احتلال بعض المدن الساحلية، لكنها فشلت امام مقاومة مأرب عاصمة سبأ. وبعد هذا الفشل أوكلت حماية المصالح الرومانية إلى الأحباش، الذين قاموا بعدة حملات في القرون الميلادية، الأول والثاني والثالث والرابع والسادس، ولم تستطع هذه الحملات ان تحقق هدفها الا في القرن السادس عام ٥٢٥ م[٢]. وخلال تلك الحملات التي عرفت بحروب الثلاثمائة عام، عرف اليمن القديم تحوله الأكبر نحو توحيد الكيانات السياسية اليمنية في دولة حمير أو التبابعة. الاّ ان هذه الدولة حملت في داخلها عوامل ضعفها وانقسامها، ويرجع ذلك إلى تقاليد الحكم التي حكمت الدولة بنوع من الحكومة الاتحادية يقود اقاليمها امراء وقادة محليون تحت قيادة ملك مركزي واحد يجمع في يده كل السلطات المتعلقة بالسيادة. ولكن طبيعة الحكام الارستقراطية، إلى جانب الخلافات والصراعات بين السلطة المركزية والمناطق، والاطماع الخارجية، اسقطت الدولة المركزية التوحيدية، كما ذكرنا، عام ٥٢٥م، والتي دام احتلالها حتى ٥٧٨ م. ثم كان للفرس محاولات عدوانية عام ٥٩٨ م حيث نجحوا في بعضها واستطاعوا السيطرة على اجزاء من اليمن (صنعاء).

ومع ظهور الاسلام، رأى اليمنيون ان ارتباطهم بالاسلام سيوفر لهم منافع عديدة منها التخلص من المحتلين الفرس، وان الاسلام سيساعدهم على انتشال اليمن من التردي السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي عايشته البلاد لفترة طويلة[٣]. ودخل الاسلام إلى اليمن في العام ٦٢٨ م، وصارت اليمن جزءاً من الدولة الاسلامية الأكبر، فتأثرت بالسياسة الاسلامية، وخضعت للأمويين ثم العباسيين حتى عام ٨١٨ م، حيث قامت أول دولة يمنية شبه مستقلة عن الخلافة العباسية، وهي دولة الزيادية، ومنذ ذلك التاريخ عرف اليمن دولاً مستقلة كثيرة (دولة بني زياد؛ بني يعفر؛ القرامطة؛ آل نجاح بوبيد؛ الصلحيين؛ بني زريع في عدن. . الخ). واخيراً خضعت اليمن للحكم العثماني عام ١٥٣٨ م، وقد عرفت اليمن طوال فترة الحكم العثماني الأولى معارك وتمردات كبيرة قادها الامام شرف الدين وابنه المطهر، إلى ان اضطر العثمانيون إلى عقد هدنة مع الامام القاسم بن محمد الهادوي، ادّت إلى جلاء العثمانيين عن اليمن عام ١٦٣٥ م، والامام قاسم هذا هو مؤسس الدولة القاسمية التي استمرت حتى ثورة ٢٦ ايلول/ سبتمبر ١٩٦٢ م. لكن الحروب والصراعات الداخلية المتواصلة في الدولة القاسمية، شجعت العثمانيين على دخول اليمن ثانية عام ١٨٤٩ م وبقوا حتى العام ١٩١٨ م.

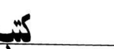
ولم تكن اليمن بعيدة عن الصراعات الاستعمارية الغربية، نظراً الى اهمية موقعها على خط التجارة العابر في البحر الأحمر، والمتجه الى جنوب الهند. ومن هنا كان لجوء بريطانيا الى احتلال جزيرة بريم رداً على نزول قوات نابليون بونابرت في مصر. وبعد أقل من ثلاثة اعوام لجأت السفن البريطانية الى ميناء عدن، وترافق ذلك مع توقيع اتفاقية مع سلطان لحج، الذي كانت تتبعه عدن، التي بمقتضاها صار الميناء تحت السيطرة البريطانية، وبذلك ضعفت السلطة المركزية، وبدأ عهد جديد من مسار التاريخ اليمني، سيكون له انعكاسه السلبي القوي على الوحدة اليمنية. فقد ارتبط السعي الاستعماري البريطاني لاحتلال جنوب اليمن في مطلع القرن التاسع عشر بسلسلة من التفاعلات السياسية والعسكرية والقانونية، وكانت تلك التفاعلات تدور بين اطراف ثلاثة هي السلطة الاستعمارية البريطانية، والسلطة التركية، والسلطات المحلية اليمنية والتي توزعت بين محالف للوجود البريطاني وآخر محالف للوجود العثماني، وطرف ثالث سعى الى الاستقلال عن الطرفين وقاد محاولات للمقاومة العسكرية. وقد قادت هذه المواقف الى نتائج في غاية الخطورة، اذ وقعت هذه الاطراف مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات التي وصلت الى ١٠٢ وثيقة.

يشعر القارىء بالضياع من كثرة الأسماء والأحداث

وقد عملت تلك المعاهدات والاتفاقيات على ترسيخ التجزئة، وشكلت الاساس القانوني الدولي والمحلي للانسلاخ والتجزئة اليمنية. اما اهم هذه الاتفاقيات، فكانت اتفاقية آذار/ مارس ١٩١٤ م التي عقدت بين العثمانيين والسلطات البريطانية، فقد مثلت الاعتراف الأول والرسمي لما سمي بخط الحدود بين الاراضي العثمانية في اليمن وبين مناطق الجنوب العربي الذي خضع لبريطانيا. وبناء على ذلك دخلت الدولتان المحتلتان لليمن في مفاوضات حول تقسيمه فيما بينهما بشكل يسمح لكل منهما بتقرير مصير الاجزاء التي ستؤول الى نفوذه. وهكذا تحدد رسمياً وبدافع من المصالح الاستعمارية تقسيم الأرض والشعب اليمنين الى قسمين.

وبعد هزيمة الاتراك في الحرب العالمية الأولى، خرجوا من اليمن، واعترفت الدول المشاركة في مؤتمر لوزان ١٩٢٣ م، ومنها بريطانيا، باستقلال اليمنيين في المنطقة التي انسحبت منها تركيا. ظهرت صراعات جديدة بين امام اليمن وكل من الاستعمار البريطاني حول مصير الجنوب، ومع الادارسة الذين حكموا عسير في الشمال، وقد ادّى هذا الصراع إلى التدخلات الاقليمية والخارجية عبر الاستعانة بالانكليز تارة والسعودية تارة أخرى. وظلت هذه الخلافات والصراعات، التي غذاها عدم تحديد حدود المحميات، واحتمال وجود النفط حتى العام ١٩٦٢ م مع قيام الثورة.

حاول المؤلف أن يقدم لنا لمحة تاريخية عن اليمن، في الفصل الأول، لكنه اكتفى بالعرض السريع لفترة طويلة تبدأ من بداية تشكل الأرض اليمنية حتى دخول الاسلام اليمن. والحقيقة ان هذه الفترة كانت زاخرة بالاحداث، ومهمة بالنسبة إلى التاريخ اليمني، ولا يمكن المرور عليها بسرعة، فرأينا، ان الاطماع الخارجية كانت سبباً من

الاسباب في تمزيق اليمن، كما تبين لنا أن الوحدة والانتفاضات الشعبية كانت حلاً مهماً وظاهرة شعبية عند اليمنيين، وهذا سيوضح لنا لاحقاً خلفيات التجزئة اليمنية الأخيرة وكذلك دوافع الوحدة. وقد تلمس المؤلف اشكالية مهمة، اذ يقول «... اتسمت الحالة الاجتماعية بالطابع القبلي.. فقد كانت القبيلة هي ابرز وأقوى فئات المجتمع...» (ص - ٢٢)، فهذه حقيقة واضحة في اليمن، ما زالت مترسبة في عقلية معظم اليمنيين، فرغم نشر الوعي والثقافة المتنورة، إلى حد ما، عند بعض اليمنيين، فإن العقلية الموروثة ما زالت تتحكم في تفكيرهم، وهذا دليل ان موروثات الاجيال الماضية بقيت تتفاعل بعقلية ومفاهيم الاجيال الحاضرة، فماذا عن المستقبل؟ امّا عن دخول الاسلام اليمن في القرن السابع الميلادي، فنرى أن اليمنيين دخلوا الاسلام طواعية استجابة لرسائل النبي (ص). الحقيقة ان هذا الكلام هو مدعاة للشك لأن النزاعات الطائفية والدينية كانت متحكمة في اليمن، ولهذا لا يمكن الدخول في الاسلام فقط لمجرد الدخول والايمان، فلولا المصالح التي كان اليمنيون يرجونها لما كان هذا الدخول السريع.

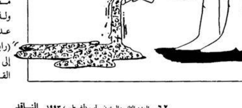
أما في الفصل الثاني، فيتحدث المؤلف عن بدايات العمل الوطني وميلاد أول حزب معارضة يمني، هو حزب الاحرار (١٩٤٤) في عدن، ضد سياسة الامام يحيى حميد الدين وبطشه. وكانت أهم مطالب الحزب هي انقاذ الامة من المجاعة المهلكة، واعطاء حد أدنى من الحريات والديموقراطية. ولنا ان نسأل كيف سمحت بريطانيا، الموجودة في عدن، لحزب الاحرار بممارسة نشاطه؟؟ يقول المؤلف أن بريطانيا كانت «هادفة إلى إتاحة الحرية النسبية من ناحية، واستخدام ذلك النشاط للضغط على الامام، ولكن حزب الاحرار لم يحقق آمال البريطانيين، بل العكس، فقد لعب دوراً رائداً في نشوء الحركة الوطنية ونظام الوعي الوطني، ونشر الأفكار الوطنية المعادية للاستعمار في جنوب الوطن اليمني ونظام الإمامة في شماله..» (ص - ٧٢). والحقيقة ان هذا السماح البريطاني لم يكن اكثر من ورقة ضغط على الامام، وتكريس تمزق اليمن وتجزئته من خلال بث الخلافات، أما عند اتاحة الحرية النسبية، فإنه من غير المعقول أن تمنح بريطانيا الاستعمارية ذات السياسة التجهيلية، أية حرية. فطالما ان الحزب هو عملية اقلاق راحة وازعاج للامام فليكن، وعندما ترى انه يؤثر ادنى تأثير على وجودها فلن تبقيه لحظة واحدة، وهذا ما حصل بعد الاجتماع بين القاضي محمد بن عبد الله الشامي مع البريطانيين في عدن اثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد عرض مطوّل ليوميات هذه المعارضة وشرح وافٍ لجمعياتها ونشراتها، نصل مع المؤلف إلى نهاية هذه التحركات عام ١٩٤٨، بعد ان استطاعت ان تستولي على الحكم مدة ثلاثة اسابيع وأربعة أيام. ولم يحاول المؤلف استخلاص العبر، أو بحث اسباب هذه الانتكاسة وتحليلها، بل اكتفى بعرض ما حدث يوماً بيوم. ولنا ان نقول ان احد أسبابها هو عدم التنظيم والارتقاء بعد الى مستوى طرح القيادة البديلة الحكيمة، فالصراعات القبلية والمشاحنات الشخصية كانت هي الطاغية، هذا إلى جانب الاشخاص الذين كانوا ينتهزون الفرص لمعرفة الرابح، فهم مع هذه الجهة ومع تلك، فهذا دليل على ضعف وتفكك الحزب والمعارضة عموماً في تلك الفترة.

لا رابط موضوعي بين ثورة الشمال وانفجارات الجنوب

وفي الفصل الثالث، يتابع المؤلف حديثه عن المعارضة اليمنية وجولاتها مع الامام أحمد بن يحيى واعتبر ان الوحدة اليمنية كانت مطروحة منذ الخمسينات (ص ١٠٩)، ولذلك تحدث عن الحركات التي قامت في عدن والمطالبة بالاستقلال، فكانت حركة (رابطة أبناء الجنوب). وعاد حزب الاحرار إلى لم شمل أعضائه، وتأسيس النوادي القروية. وبدأت المعارضة تتخذ اسلوباً جديداً في التعاطي مع الامام يقوم على السياسة والدسائس اكثر منه على العمل الانفعالي، فكان لا بد من دق اسفين في الاسرة الحميدية الحاكمة، «فعملت على إثارة ولاية العهد، ووجدوا في البدر (محمد بن أحمد) بغيتهم وانه سيكون اكثر قرباً إليهم، وهكذا عملوا على دغدغة مشاعره، والالتفاف حوله..» (ص ١١٦)، وهكذا تحولت ولاية العهد إلى قضية سياسية. لكن اعضاء الاسرة الحميدية تنبهوا الى هذا الاسفين، خصوصاً بعد عودة عبد الله بن يحيى من الخارج واشتداد الصراع مع ابن اخيه؛ ولكن عبد الله استطاع ان ينتزع المبايعة من أخيه، ولكن لم تدم هذه المبايعة طويلاً، لأن معظم اعضاء حزب الاحرار، وكذلك مصر - عبد الناصر لم تكن مؤيدة كثيراً لعبد الله، لأنه كان مرتبطاً بالأميركان وسياسة الاحلاف الغربية آنذاك. وعاد الامام أحمد الى الامامة، وعادت معه سياسة الاعدامات، وسقطت المحاولة الثانية للمعارضة بسبب عدم القدرة والوعي والخيانة إلى جانب المداخلات الخارجية من قبل مصر.

وفي هذه الفترة بدأت تتبلور السياسة الخارجية اليمنية (الشمال)، حيث توثقت العلاقات مع مصر، ودخلت في اتحاد الدول العربية ١٩٥٨، بعد الوحدة المصرية - السورية وكذلك بدأ الانفتاح على الاتحاد السوفياتي وبلدان اوروبا الشرقية والصين، وكان من نتيجة هذا الانفتاح، خصوصاً على مصر، ان اليمن بقيت بعيدة عن سياسة الاحلاف الغربية، كحلف بغداد عام ١٩٥٤، وأيضاً فتحت المجالات لنقل الافكار القومية (البعثية، وحركة القوميين العرب، والناصرية) إلى اليمن، وبدأت هذه الخلايا القومية العمل والتعبئة والتحضير لثورة ايلول/سبتمبر ١٩٦٢. ويعتبر المؤلف، وهو عضو في حركة القوميين العرب، أن الثورة اليمنية هي ثورة ذات دوافع قومية عربية، تدعو الى الوحدة العربية كما تدعو الى التحرر الاجتماعي، ومن هذا المنطلق يمكننا تفسير وتوضيح موقف جمال عبد الناصر من الثورة اليمنية.

بعد ٢٠٧ صفحات من الكتاب يطل علينا الكاتب بقصة الثورة اليمنية (ثورة سبتمبر) التي غيرّت تاريخ اليمن، ويعطينا تفاصيل دقيقة وسرداً قصصياً وتاريخياً مفصلاً يوماً بيوم. حتى يشعر القارىء بالضياع والتيه من كثرة الأسماء والاحداث. فانطلاقاً من



مشاركته واطلاعه على سبر الأمور وخفاياها، جاءت معلوماته دقيقة ومفصلة. فقد أراد المؤلف أن يقول في هذا الفصل، أن قادة الثورة، هذه المرة، كانوا اكثر تنظيماً ووعياً من الحركات القديمة، رغم عدم فصله بين الحركات أو الثورات القديمة وبين ثورة ١٩٦٢. وسبب هذا الوعي هو التجارب القديمة والانفتاح الخارجي، وخصوصاً مع مصر، فالمساعدات المصرية، وخصوصاً مساعدات جمال عبد الناصر شخصياً، كانت عاملاً مهماً في إنجاح الثورة وانتصارها، وبرأيه، أن هذه المساعدات هي واجب قومي، لأن اليمن عربية، وثورتها ثورة قومية. ويميز الكاتب بين الانظمة التقدمية التي اعترفت بالنظام الجمهوري (مصر، والاتحاد السوفياتي، والجزائر، وتونس)، والانظمة اليمينية الرجعية التي أحجمت عند الاعتراف كـ (السعودية والاردن واميركا وبريطانيا) (ص ٢٣٧). اما ابعاد سياسة الولايات المتحدة الاميركية تجاه اليمن بعد الثورة فقد اتخذت مسلكاً توفيقياً تمثل في معادلة تهدئة الثوار بالاعتراف السياسي، فضلاً عن ان ذلك يوفر للأميركان قناة اتصال دبلوماسية في الجمهورية اليمنية تمكنها من القيام بجهود وساطة لتطويق امتداد تأثير العمل الثوري إلى السعودية، ودعم موقفها لحماية السعودية. والتي تعني في الاساس حماية المصالح الاميركية وخاصة البترولية (ص ٢٣٩). لكن حقيقة الموقف الاميركي انه كان متصلباً اكثر من ذلك، وعلى العكس حاولت الولايات المتحدة ممارسة ضغط كبير على عبد الناصر من أجل سحب جيشه من اليمن. وكانت هذه أولى قضايا الخلاف بين عبد الناصر والساسة الأميركان[4].

اما عن اعتراف الولايات المتحدة بالنظام الجمهوري، فقد تم في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٢، على عكس ما ذكر المؤلف، وكان الهدف الاميركي هو حصر الصراع في اليمن وعدم القيام بما يؤدي إلى اتساع دائرته خارج حدود اليمنية[5]. وكان تطور الموقف الاميركي هذا نتاج تفاعل عاملين: أولهما: المصالح الاميركية المتضخمة في الصراع اليمني، وثانيهما سياسة كينيدي الذي جاء الى الحكم في كانون الثاني/ يناير ١٩٦١. هذه السياسة التي تقوم على التساهل واحلال التعاون محل الصراع[6].

وانطلاقاً من وجهة نظره، حول العمل الوحدوي في جنوب اليمن وشمالها، ينتقل المؤلف (ص ٢٦٥) إلى العمل الفدائي، ضد البريطانيين في عدن (حزيران/ يونيو ١٩٦٤)، حين هز انفجار مروع مقر المجلس الاتحادي في مدينة الاتحاد - العاصمة. معتبراً ان الثورة في شمال اليمن، واعمال الانفجارات ضد البريطانيين في الجنوب، هما عمل واحد، ولهما الخلفية التحررية نفسها. لكنه لم يقدّم لنا رابطاً عملياً أو موضوعياً واحداً بين هاتين الحركتين، سوى الحاجة إلى التحرر، فما جرى في شمال اليمن لا يمكن تسميته اكثر من انقلاب عسكري، فالذين قاموا به، اكثرهم عسكريون، والطريقة التي نفذ بها كانت طريقة انقلاب عسكري، خصوصاً أن قضية الانقلابات العسكرية أصبحت قضية مألوفة لدى الأنظمة العربية. اما النضال في جنوب اليمن، فانه كان عملاً مختلفاً في طريقة تنفيذه، ومنطلقاته، فهو عمل فدائي، يقوم على اساس حرب العصابات، ضد محتل أجنبي إستعماري. وكانت النظرة الوحدوية أو المطالبة باليمن الواحدة، تنقلب إلى يمنين في يمن واحد، وعلمين في لون واحد.

يتابع المؤلف حديثه عن الحروب والاضطرابات التي واجهتها اليمن الشمالية بين الملكيين التابعين للإمام البدر، والمدعوم من السعودية، وبين النظام الجمهوري المدعوم من المصريين، ويشرح لنا شرحاً دقيقاً ومفصلاً أهم المعارك وسيرها وأسماء بعض الضباط المشاركين فيها وتظهر لنا هذه الاحداث أن النظام الجمهوري لم يكن ذلك النظام الشعبي والقوي، رغم كل ما ابداه المؤلف لالفات النظر إلى هذا النظام الشعبي المثالي، فإلى جانب مشاكله الداخلية بين أعضاء النظام، ومحاولات الانقلاب عليه، كان الكثير من القبائل غير منضوية تحت لوائه، والاّ بماذا نفسر قوة وكثرة جيش الملكيين؟ وبغض النظر عن المرتزقة، والدعم الرجعي والأمبريالي له، لكن وباعتراف المؤلف، كان هناك الآلاف من الاشخاص المقاتلين، الذين استطاعوا دك صنعاء وحصارها، حتى كادت أن تسقط في أيديهم. أيضاً كان هناك المشاكل الخارجية وهي كما اسلفنا، قوة وحروب الملكيين، وكان مأزق النظام الاساسي ارتباطه وانصياعه للسياسة المصرية، متناسياً أن لكل نظام خصوصيته ودبلوماسيته. وهذا بدوره يدل على ان القادة اليمنيين كانو يفتقرون الى الخبرة. فردات الفعل والعاطفة هما سمة السياسة اليمنية، وبالتالي كانت الايديولوجيا السياسية تتأثر بالميول العاطفية؛ فحلفاء اليوم، اعداء الأمس. ولم تنجُ الاحزاب العقائديّة والمبدئية، من هذه السمة، فالانشقاق دخل الحركة القومية وحزب البعث. وكل مرة كانت تقع فيها الخلافات، كان الشباب المثقف اليمني يدفع ثمن هذا الخلاف بصورة مروعة، فالسيف الذي ضرب اعناق الاحرار ايام الامام أحمد بن يحيى وابيه، مازال يضرب اعناق الاحرار والمثقفين ايام الاحزاب التقدمية والعقائدية، وهذا ما ينطبق تماماً على حوادث اليمن عام ١٩٨٦، عندما اقدم علي ناصر محمد على إعدام أعضاء قيادة الحزب الاشتراكي اليمني، وابرزهم عبد الفتاح اسماعيل فالعقلية القبلية مازالت هي الحاكمة، رغم كل الشعارات المرفوعة.

أسلوب اعتمد على العرض أكثر من التحليل

لا شك في ان الكتاب يحمل معلومات تفصيلية ودقيقة قلما توجد في أي عمل تاريخي يمني آخر، وذلك عائد الى شخصية المؤلف واشتراكه في صنع الاحداث احياناً وطبيعة عمله، كصحافي ومدير تحرير صحيفة (١٤ اكتوبر) ومجلة (الثقافة الجديدة) وصحيفة (الأمل). لكن، هذه الاعمال والنشاطات عند المؤلف حملت معها بذوراً سلبية، كما حملت معها بذورها الايجابية. اما السلبيات، فيمكن ايجازها بما يلي:

١ - ان اسلوب الكتاب جاء اسلوباً





صحافياً يعتمد على الوصف وعرض الاحداث اكثر منه تحليلياً. فرغم دقة المعلومات ووفرتها، لم يوظفها المؤلف توظيفاً تاريخياً، بل صحافي يعتمد اسلوب اليوميات في الكتابة، وهو الى التوثيق اقرب منه الى التاريخ، وهذا عائد ايضاً الى كون المؤلف يعيش في خضم الاحداث، فسجلها كما هي دون تحليل، فكان الكتاب مذكرات شخصية يومية. ودليل آخر على تأثر المؤلف بالأسلوب الصحافي هو الصور الى ضمّنها الكتاب، والملاحق، التي هي معاهدات واتفاقات ومعلومات، فهذه الملاحق جاءت بلغتها الصامتة آخر الكتاب، بدلاً من توظيفها في سياق البحث ومناقشتها والتعليق عليها. لا شك ان هذه الاتفاقات والمعاهدات تعتبر وثائق مهمة لكل باحث، لكن حبذا لو علق عليها المؤلف، وقرأها لنا بلغتها الموضوعية والدبلوماسية. وأيضاً، هناك مآخذ على توثيق الكتاب من الناحية المنهجية حيث المقدمة والملاحق أخذت اكثر من ثلثي الكتاب حجماً. وكان يمكن ان يأتي الكتاب بحجم اصغر بكثير ومعلومات أكثر تركيزاً.

٢ ـ التداخل في فصول الكتاب وفقراته، إذ ليس هناك تنسيق منهجي لمادة الكتاب، فتارة نراه يتكلم عن شمال اليمن، ثم ينتقل دون سابق انذار، الى جنوبه، ويدخلنا في عالم جديد يستغرق منا وقتاً اضافياً حتى نعيش معه، وما ان ننسجم مع موضوعه الجديد حتى يعود بنا الى ما بدأه في بداية الفصل. فلا تمييز بين احداث الشمال واحداث الجنوب، ربما لقناعة المؤلف، بأنه ليس هناك شمال وجنوب، بل هي يمن واحدة، وهذا بعيد عن الموضوعية، فعدن والجنوب اليمني كانا يعانيان من الاستعمار البريطاني في الوقت الذي كان الشمال يرزح تحت نير الاستقلال الامامي، وشتان ما بين الوضعين (راجع الفصل الثالث).

٣ ـ هناك نقص كبير في المعلومات التاريخية، وذلك ناتج عن عدم التحليل والبحث في الأحداث التاريخية، فمثلاً ما هو الموقف الاميركي من الثورة اليمنية؟ وما هو دور اليهود في اليمن وثورتها؟؟ وأيضاً كيف تعاملت الجامعة العربية مع الاحداث اليمنية؟؟ وكيف انعكس الخلاف السعودي ـ المصري (الناصري) على الساحة اليمنية؟؟ خصوصاً ان سياسة الاحلاف الغربية، وتأييدها أو رفضها، هي المقياس في العلاقات العربية ـ العربية في ذاك الوقت. حبذا لو قدّم لنا المؤلف ـ من منطلق تجاربه، اجوبة عن هذه الاسئلة المهمة.

اذاً، غاية المؤلف كانت اظهار الروح الثورية اليمنية وتوق اليمنيين إلى الحرية والقومية العربية، وان الروح الوحدوية هي التي حكمت اليمن وشدت الجماهير اليمنية، لكن لم يقل لنا لماذا تأخرت الوحدة حتى الآن، و ما هي أهم معوقاتها؟؟ علماً ان المؤلف لم يتكلم عن الوحدة، لكن هل ستستمر هذه الوحدة؟؟ فمن يقرأ الكتاب يخرج بفكرة ان لا ثبات في السياسة اليمنية، وان القبلية مازالت تعشش في العقول. □

(١) ـ محمود كامل، اليمن شماله وجنوبه: تاريخه وعلاقاته الدولية (بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨) ص، ٥.

(٢) ـ سيف علي مقبل، وحدة اليمن تاريخياً (بيروت ودمشق: دار الحقائق، ١٩٨٧)، ص ٢٥.

(٣) ـ المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٤) ـ علي الدين هلال، امريكا والوحدة العربية ١٩٤٥ ـ ١٩٨٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩)، ص ١٧٣.

(٥) ـ المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٦) ـ أنظر: جيمس بيرنز، جون كينيدي، ترجمة خيري حمّاد (بيروت: منشورات دار الشروق الجديدة، ١٩٦١)، ص ٢٤١.

لعنة التأريخ

عماد حمزة

لبنانيات

دراسة

نقولا زيادة

رياض الريس للكتب والنشر - لندن ١٩٩٢

■ أان تكون عربياً هو أنْ تكون إنشائياً بالسليقة، وليست الانشائية عيباً إلاّ حيث تجيء استدعاءً لمخزون التركيب التعبيري في اللغة على نمط، «حيث لا بدَّ للشمس من ضباب يحجبها، أو مغرب تسير اليه، فتمحّي، إذّاك كل خصائصها، مأسورةً بصورةٍ دُفعت اليها دفعاً، وتتبدّى مع ذلك مجموعة من اشجار الارز، لتبعث في نفسي نوعاً من الرهبة ممزوجاً بالشمم والحنو» (ص ٢٠). كالذي نراه في مقدمة «لبنانيات ـ تاريخ وصور». تشم رائحة الشعر ولا تراه، تتحسّس براعة الوصف ولا تهزّك الدهشة، تتوقع التاريخ فتعترضك الجغرافيا، كأنّك معلّق بين الكلمات تقفز بك الى خاتمة توخّاها صاحبها عربون محبة للبنان وشعبه وأرضه.. الخ.

كأنما حبّه الطويل ألجأه إلى هذه المقدمة الطويلة، والتي أُردفت بمقدمة أخرى أقرَّت لبنان بلداً اميناً (ص ٢٩)، وبصمت على أن النّقّاش، والحفّار، وواضع الاسطورة إنما هم معاً أوّل كتبة التاريخ.

لقد شغل التاريخ عمرَ الدكتور زيادة فأجاد كلما تناول موضوعاً كما في: «القومية والعروبة/ ١٩٥٠» و «Urban Life in Syria Under the early Mamluks/ 1953» إلاّ أنَّ وعي الأستاذ زيادة التاريخي في «لبنانيات ـ تارخ وصور» استمر يحتل من انفعالاته مساحاتٍ حتى أفقدنا متعة الإصغاء إلى روحه كما كان يشتهي، وأفقدنا جودة معارفه التي خيّل إليّ أنّه كان ساحة لصراع كليهما في قلبه وقلمه، فكان التجزيء الذي استمر من المقدمة نفسها حتى القسم الرابع والأخير من الكتاب الجائي بدون خاتمة.

وتدلّ عناوين الأقسام على مضامينها، كما هو مُفْتَرض، فالأوَّل: «هؤلاء أرّخوا لبنان»، والثاني: «من خبايا التاريخ اللبناني». والثالث: «مذكرات لبنانيين»، والرابع «لبنان في كتابات الآخرين». وقد انتقى الأستاذ زيادة لكل قسم ممثليه، ولقد أنفقت وقتاً اتقصّى الحكمة القائدة الى هذا الانتقاء، من أعلام، وأحداث وأمكنة. فبدا لي تارة موفّقاً صائباً لأنّ الأعلام التي انتخب اعتُبرتْ ركائز في ميادينها. وتارة بدا لي مرتجلاً استيسر الهين المتداول، فأغفل مَنْ أغفل، متحصّناً بحرف الجرّ المفيد للتبعيض «مِنْ» كقوله: «مِن مؤرخي..» ولطالما استأذن الدكتور زيادة في «لبنانيات ـ تاريخ وصور» القارىء، أو دعاه إلى ملاحظة، بخطاب مباشر يتزاحم مع السرد والحكاية على امتداد الكتاب. كأنما الحالة النفسية لم تكن هي نفسها عند الكاتب حتى في الموضوعة الواحدة. ولعل ذلك من أثر التعليم ولا سيما الجامعي منه. وفي القسم الأوّل من الكتاب سجّلت مجموعة من الملاحظات على مستويين: اللغوي بكافة، ولست عارضاً له البتّة خشية الخروج على السياق، والآخر: الأدائي، وعنيت به: الإنتخاب ـ الموضوع ـ المادّة. حيث لن أتورّع عن إبداء صفحتي حياله ما أنستُ من نفسي طاقة عليه. مكتفياً، هنا، بإيداء ملاحظتين على القسم الأوّل، إحداهما تركيز المؤلف على مؤرخي الكنيسة واعتبارهم مؤرخي لبنان إلى جانب هيرودوتس (؟) وسترابو، والطبري والمقدسي، غير آبهٍ



بتواريخ أخرى عرض لها آخرون من الذين استوطنوا لبنان، وكان لهم ما لسواهم من نقل وتدقيق وتصنيف. ولا أفهم كيف يشغل الجزار أفران عكا، لِنَقُلْ ليوم واحد، ولا يعرف الدكتور زيادة من بين كل هؤلاء من كتب التاريخ وله باع غير قصيرة في الحصول على مخطوطات كهذه. أو لعل ليس من بين هؤلاء من هم أهل لهذا! أم ترى لبنان هو ما اتفق بعضهم عليه؟

إنّ اعتماد وجهة نظر أحادية في التاريخ، إنما هو قصور نظر، بينما اعتماد نظرية، فذلك شأنٌ آخر نكن له اعظم الاحترام، لأنّ مادة الخلاف هنا لها قوانينها، لا إعتقاداتها واهواؤها. لذا ما وجدتني بحاجة الى التعليق على استخدام الدكتور زيادة عبارة «جاء الفتح العربي» (ص ٣٤) لعلمي أنّ صراعاً فكرياً نشأ ولا يزال، وإن خبت جذوته، حول «فتح عربي» أو «فتح إسلامي». فموضوع كهذا يُعتبر موضوعاً نظرياً له قوانينه، والجدال حوله شيّق ربّق، ووددتُ أنّ لي فيه صولة، ولن أزيد على الرغبة شيئاً.

والملاحظة الأخرى تتعلّق بكيفية نقل المؤلف للحادثة المفروض انها تاريخ. فلقد أذهلني الدكتور زيادة، وهو مَن هو في ميدانه، عندما عرض لحادثة ـ تاريخ بين الأمير بشير وبعض خصومه، فاستعمل في معرض الرواية تعبير الحكاية كما أوردها فريقٌ من المتخاصمين، إذْ قال: «... تمادى حسّاد المترجم في الوشاية به.. الخ» (ص ٤٤)، وكأنما ذلك إقرار وتصديق من حصيف كالدكتور زيادة، للرواية كما رواها أحد طرفي الصراع. كأنّ لعنة التاريخ تلاحق، أبداً، العاملين في حقل التاريخ، فلقد أنفق ابن خلدون سنوات سجنه يتقرّح في مقدمته «الخالدة» ليستدرك على المؤرخين في مغالطهم، وغير ذلك كثير، بيدَ أنه حين شرع هو نفسه في كتابة التاريخ وقع فيما حذّر منه.

وبالانتقال الى القسم الثاني من الكتاب، وهو بعنوان: «من خبايا التاريخ اللبناني» لم نجد في هذا الفصل إلاّ كلّ معروف، مشتهر ومكرّر، وما كان فيه من الخبايا خبيئة واحدة لا يعرفها أصغر مهتم أو قارىء دوري لصحيفة سيارة. ففي موضوعة «الالياذة والفينيقيون» كان الكلام حبلاً على غارب الصفحات يستفزّ العارف، ويستهين بالمتعلم. فلا العارف اتفق معه على ما فيه، ولا المتعلّم رأى فيه مادة تعوزه أو تغنيه. فأكتفي على هذه الموضوعة بهذا القدر، وأنتقل الى موضوعة «الأوْزاعي»، التي اعتمدت فيها على ما جمعه الشيخ طه الولي عن الأوْزاعي؛ وساءني ان الحديث على الإوْزاعي تناول كثيراً مما لا علاقة له بالموضوع، كأنما كان اختياره لخلق توازن تمثيلي، ولكن على قاعدة «٣/ ١٠ غير مكرّر» بعرف التوازن الطائفي في لبنان. وفي السياق لم نعثر على أحد أهم مفاتح فهم الأوْزاعي في علاقته مع الحكّام الأمويين، عنيت به فتواه الشهيرة في حليّة دم الشاعر الديلمي. فإذا اتّسعت الصفحات في «لبنانيات ـ تاريخ وصور» لتسعة اسطر لتحديد مفهوم الدين عند الأوْزاعي، كيف، يسألني الديلمي، عن تطبيق المفهوم هذا على اهراق دماء المحرمين بفتوى؟

وإذ نتجاوز عن موضوعة «المدرسة في جبل عامل» فلأنها جاءت سريعة مبتسرة، لا تغني ولا تقيت، وكذا سواها من الموضوعات التي عالجت، كما ذكرنا آنفاً، كل معروف، مطبوع ومنشور، كالحديث عن المطابع والمجلات والجرائد، ودور النشر، وصلات لبنان بالمغرب العربي، وكلها موضوعات خطيرة تحتاج الى عناية، أو نقل يعتمد فيه الناقل حكمة الانتخاب لتجيء تامة الولادة غير منقوصة. لقد أصاب المصنف في العنوان وأخطأ. «فتاريخ» كلمة كبيرة جاءت هنا على شاكلة الطفل الذي ارتدى ملابس ابيه، و «صور» قاربت الصواب لو أُردِفت بوصف أسود وأبيض.

> **تتحسس براعة الوصف ولا تهزّك الدهشة**

في القسم الثالث: «مذكرات لبنانيين» كان عليَّ أن أتصور جماعة الدارسين، وهم يتلوون أسفاً من موضوعة «أدب السيرة والمذكرات» لاحتوائها إحالاتٍ غير متوازنة. فيما الموضوعات المتبقية والنائفة على العشر، إنما جاءت هجناء مرتجلة، نقلت عن مظانها نقلاً عاجلاً غير متأنٍ، فيه انتخاب معروف (توازن تمثيلي غير مكرر.) وآخر لا يعلمه إلاّ الدكتور زيادة نفسه؛ وثمة ما نستكنهه كما في موضوعة «كمال جنبلاط» ولا نزيد.

اما القسم الرابع وهو بعنوان «لبنان في كتابات الآخرين» فكان أطول اقسام الكتاب، وفيه من كل كتاب ورقة، ضُمّتْ الى بعضها بعضاً ضماً فيه تقنية المصنِّف، وغابت عنه براعة الأداء، وما الذي يستطيع فعله ممثل بارع بادارة مخرج متعجِّل. أتراها غريزة الكتابة للكتابة؟ أم تراه عشق الذات للإصغاء الى ذاتها؟ ام ترى أنّ ثمة من يعتقد بجدوى اكتشاف اميركا، من جديد، على مركب شراعي؟

«لبنانيات ـ تاريخ وصور» كتاب كان يمكن له أن يكون كتاباً ضخماً ككتاب «ديورانت» «قصة الحضارة»، بيد أن إعادة انتاج ما قد انتج ليس انتاجاً على الاطلاق. □

متحف الحواس

عباس بيضون

صحبة الظلال
نصوص
بسام حجار
منشورات ميريم - بيروت ١٩٩٢

■ قارىء «صحبة الظلال» من نثر بسام حجار لا يشعر انه بعيد عن شعره، فهو تقريباً في محل هذا الشعر: موضوعاته وقاموسه وحساسيته. واذا سكتنا عما يفرق الشعر عن النثر من ضغط واضمار وتلميح وعبارة فقرية، فإن افتراق شعر حجار عن نثره، على رغم اشتراكهما في المحل والمادة، هو اشراك شبه حرفي وليس صورياً. فلا يغفل القارىء عن أن هذا شعر وهذا نثر، وقد يعجب من أن يجبل من المادة نفسها شعر ونثر على نحو لا يقبل الخلطة. لا يكفي القول هنا أن نثر «صحبة الظلال» قصّر عن الشعر، فهذا القول مردود من اين اتيته.

في «صحبة الظلال» احياناً غزارة تصويرية، بل طاقة تصويرية لافتة. وانت لا تبتعد عن الفكرة المباشرة خطوة الا وتجدها تكوكبت في محيط من الصور التي تترجرج بين البعد والقرب، بين المطابقة والانزياح، واين





الاثاث والأشياء أقنعة ومحطات علامات

من هذا نسك شعر بسام حجار واخذه بأكثر الصور فقرية، ولو كان التكثر التصويري هو الشعر لوجدنا في نثر بسام حجار شعراً اكثر مما نجد في مجموعاته الشعرية.

وفي نثر «صحبة الظلال» لعب بالمعاني، وسلوك بين ظلالها، وخطو بين متباينها وخفة وترسل فيها، ما لا نجده في شعر سمته الحذر والتظليل والأخذ بهوامش المعاني، وفي نثر «صحبة الظلال» درامية وجدل وتناسل كلام فيها يؤثر بسام في شعره أن يضمن ذلك غناء خافتاً وحواراً داخلياً.

ولن نطيل لنقول أن في نثر «صحبة الظلال»، مادة شعر بسام حجار في حال من الحركة والعلن والاسترسال والتوسع والتبحر والكثرة، ما يغدو في الشعر بطئاً وخفاءً وحذراً وتجنباً وقلة. ولأحدنا أن يقول هذا هو حد الشعر وذلك حد النثر، غير أن هذا الكلام لا يشفي وحده، فلا يكفيَ القول أن الشعر في طي الكلام والنثر في بسطه. والأرجح أن مقام النثر عند بسام حجار غير مقام الشعر من غير ناحية.

في «صحبة الظلال» ما في «لأروي كمن يخاف أن يرى» و«فقط لو يدك» من عالم قوامه المنزل وأشياء المنزل، وما يطل عليه المنزل من زوايا الشارع، وما يحدس أن الشارع في هاجس المقيم المنزلي يظهر عليه. وفي هاجس المقيم المنزلي أن الشارع صنو البيت وجاره وانه يتلقى نفايات الحياة المنزلية وحيرة ووساوس المغلّقين في حجراتهم، وانه أيضاً يسفر عن خلاء ووحشة كذلك الخلاء الذي لا يحبس اثاث المنزل وأشياؤه سده وتبديده. والأرجح أنه يجد في الأثاث والاشياء اقنعته ومحطاته وعلاماته. وليست شجرة الشارع ولا امتداده واسفلته سوى خطوط هذا الخلاء واشيائه. فإذا كان نثر بسام حجار وشعره نزيل هذا المحبس الذي يبقى دائماً مستقطب الكلام واطاره، فإن شأن حجار في نثره غير شأنه في شعره.

في «صحبة الظلال» نجد أن بين النزيل وأشيائه ما يشبه التلازم، بل ما يشبه الوحدة «تبدأ الرحلة وليس في حوزتك الاّ الادوات التي تعينك على لمس الاتجاه أو شمه... تكون اقتربت وإن كانت الخطوات ابداً. حتى اذا اعتمت، شعرت أن المسافة إلى قدميك وانها اطول من أن يجتازها حياً». أما التلازم بين النزيل وأشيائه ومسافات منزله، بل الوحدة المضنية المرهقة بينه وبينها فأمر قريب المتناول، انت لا تكاد تجده الاّ وهو عندها، قريب منها بعيد عنها، مستدع لها، ضيق بها، خائف منها، هاذ بها، ضائع فيها، محشور بينها، تجده على هذا النحو أو ذاك، ولكنك لا تعثر عليه في هدنة منها، أو استراحة أو انفراد. وليس التلازم وحده ولكن الدخول فيها دخولاً قلقاً مضنياً موحشاً في الغالب. ولست تحسن أن تجد للنزيل كياناً قائماً بذاته أو صوتاً يخصّه. فأنت دائماً عند الشخص ـ الأشياء إذا عنينا بالأشياء كل ما يقع في الخارج. انك عند الشخص ـ المنزل، أو الشخص ـ الشارع، ولكنك لا تجد الشخص مالكاً نفسه أو صوته. ولعلّ علة ذلك أنّ الشخص المتكلم هو هنا عند نفسه دون أن يمتلك كياناً أو يشخص مفرداً، هو عند نفسه لا يسعه أن يستريح من نزاعه المؤلم مع أشيائه أو من الهمّ بها. وهو لذلك في درجة من قصور عضوي لا يحسن معه أن ينفرد بكيانه، ذلك القصور وهذا العجز، هما محل كلامه وهذيانه وسفره الموصل في امتار حجرته، لا نكاد نرى النزيل الاّ وهو يعالج أشياءه ببصره ويده وسمعه وأنفه وانتظاره.

ولا يهم هنا أن تكثر الأشياء أو تقل، أن ترحب أو تضيق، أن يحضر العالم إلى الحجرة أو أن تنغلق الحجرة على جدرانها وأثاثها. فالنزيل حين ينظر لا ينظر اكثر من مطال عينيه. وحين يلمس لا يلمس اكثر من مطال يده. وهو لا يسمع اكثر من مطال سمعه. ولأنه ينظر ملياً في المدى القصير ويلمس ملياً في المدى القصير، بل ينظر ويلمس بإيغال وتمعن وقوة، فإن النظر يتسع لمشاهدات ميكروسكوبية، واللمس يتسع أيضاً لتحسس ميكروسكوبي.

النظرة وهي في تمليها الميكروسكوبي أوسع من العين ومن الشيء، كذلك نجد لها عمقاً ومساحة اوذيسية، ونجد لها تناسلاً وتوالداً وخصوبة، «اتساع السنتمتر المربع إلى هذه الحدود، أقصى ما في أقاصي المتر الواحد» «لماذا تظن أن ربع ساعة فقط من الليل يتسع لكائنات غريبة..». واذا كان النزيل لا يزال يخبط ويغوص في السنتمتر المربع، أو يهوي في مدى ربع ساعة من الليل، فإن سعتي السنتمتر وربع الساعة تجعلان منها في حد ذاتها متاهة مسامية لا تحتاج منك إلى أن تنتقل أو تهيم على وجهك، إنك تتوغل في الخلايا والمسام بدون راحة ولا طمأنينة فهنا لا تنفد الا بصعوبة، وهنا لا تفعل شيئاً سوى أن تتبدّد في ذرات وجزئيات نظرتك نفسها التي لا تفتأ تدور في الفراغ المحدود الذي أمامها، انك عندئذ اقرب إلى أن تخوض في خلايا جسدك، وخلايا دماغك، وايأ كان الأمر فإن النظرة التي تثقل وتسمك وتتكثف، واللمسة التي تثقل وتسمك أيضاً، لا تلبث أن تصطدم بكثافتها وسمكها، لا تلبث أن تتصلب فلا تعود تشعر الا بقصر المدى الذي لا ينفع نحته و نخله وتذريره. يرتد البصر حسيراً و اليد حسيرة وتقع منهما نظرة ثقيلة متصلّبة، ولمسة ثقيلة متصلبة. ربما كان هذا من (مادية) بيولوجية اذا صحّ القول، فقد رسم لصاحب الظلال أن لا يعلو أبداً على حواسه، بل أن يتفرّق إلى حواس شتى. فهو صاحب النظر اذا نظر، وهو صاحب السمع اذا سمع، وهم صاحب اللمس اذا لمس وهلم جراً.

رسم لصاحب الظلال أن يكون عيناً أو اذناً أو يداً وأن لا يدخل على عينه أو أذنه أو يده شيء من سواها. انه يتبأّر (من البؤرة) في عينه أو يده، هذا (التعليق) في خطة

الكتابة، وهي خطة تجعل من صاحب الظلال جهاز حواس . فلا عجب أن لا نراه الا وهو مسنود إلى ما يتصل بواحدة من حواسه، واذا كان الأمر كذلك، أمسى الرجل حبيس حواسه بقدر ما هو حبيس منزله. انه يتقصى سمعه ويؤثر لذلك أن يسمع أقل وأن لا يصرفه ما يسمعه (فهو غير مهموم بموضوعاته وتعدد اصواته والحانه) عن اختبار سمعه. وهو يتقصى بصره ولا يهتم كثيراً بسياحة بصره، ولا يعنيه أن يتكثر من الرؤية، فهو يبغي أن يبصر ما يلازم عينيه، وأن يلمس ما يلازم يده. وكأن هذه الملازمة تجعل من موضوع البصر انعكاساً للبصر، ومن موضوع اللمس انعكاساً لليد، فلا يكاد الرجل يخرج من آلة بصره وآلة سمعه. وكأنه بذلك يتخذ من حواسه أوثاناً، ولا أدري اذا كان بوسعنا أن نتكلم هنا عن وثنية الحواس.

ربما لذلك يرتد البصر حسيراً والسمع حسيراً واللمس حسيراً، فهو يرجع إلى منبعه، وإلى بؤرته، كلما هم أن يباشر نظراً أو سواه فليست الجدران والمسافات والليل سوى حدوده واطرافه، وليست هذه في النهاية سوى انعكاسه. فالنظرة على الجدار المثابر ليست سوى النظرة نفسها وكأنها تنظر في عمقها وبؤرتها. من هنا فان حجرة بسام حجار في «صحبة الظلال» ومنزله ليس سوى حواسه منعكسة متمراة. ولا نعود عند ذلك نعجب من أن صاحب الظلال لا يكاد يرى سوى جدران وليل ومسافات، فهو في الأغلب لا يرى سوى حجرة عينه، وليس اكثر من الجدران والليل والمسافات كناية عن الحدود والأطراف والنهايات، أي كناية عن المدى والخلاء، لذا لا نعجب حين نقرأ «ان الرمادي في عينيك، وانك في الحقيقة تعجز أن ترى، تعود إلى ذاتك وتستريح وتكون الأوهام والحقائق انقضت بالطريقة ذاتها. . . انها حالة الإعاقة». وليست والاعاقة الا عجزك عن أن تتقدم في عينيك أو تتقدم في سمعك ولمسك، وانك لا تعثر كلما تحركت الا على الوقت «تنزف وقتاً»، وقت محض مقطع بسنتيمترات المسافة أو غير مقطع على الإطلاق، إذ يحدث أحياناً أن تجد نفسك أمام النهار كله، أو الليل كله، ويكون عليك عندئذ أن «تتنفس كل النهار» أو تتنفس كل الليل.

ربما كانت آلة الحواس هذه هي المسخ، فصاحب الظلال ينوء ببصره كما ينوء بسمعه ولمسه، وهو يفعل ذلك كله وكأنه يفعله بأدوات مستعارة «الأدوات التي تعينك على لمس الاتجاه».

انه في قلق بصره وسمعه ولمسه، بل قل انه في وسواسها المقيم. من هنا ينفتح الطريق إلى هذيان لمس وبصر وسمع. هذيان هو في النهاية من الاسترسال في فراغها وتدررها، من الخبط في مسامها وحدودها، أي يصطدم كل مرة بأدواته، ولا يستطيع أن يتقدم ابعد منها. تلك هي في الغالب (حالة الإعاقة)، حالة التقلب الصعب والعسير في المكان نفسه، السنا هنا في عصاب شامل «منذ دهر وأنا اشتهي نفسي».

لا ينفك صاحب الظلال عن هذا التقلب العسير في محبسه الا حين يجد لنفسه (كائناً) أو يتلبس بكائن. ولعل (الكلب) هنا أقل مسخاً من صاحب الظلال، فهو ينظر ويحس ويسمع دون، أن يتخبط في آلتي بصره وسمعه.

لا بد من أن نلاحظ أن ثمة خطة للكتابة، وأن رد الكائن إلى مسخ حواس لم يتم الا بابتكار وعمد، أي انه لم يتم الا بقدر من التأليف والصناعة، فنحن هنا أمام (وضع) روائي، اما في شعر بسام حجار فالأمر غير ذلك، ثمة نزيل وأشياء ولكن بين النزيل والأشياء امرأة وطفلة، وبينهما لمسة ونظرة لا تضيعان في مسامها. هناك دفء يد المرأة ونظرة الطفلة، بل هناك يد المرأة على جبين النزيل وشفتيه وبصره الذي لا يرتد حسيراً أمام ضحكة الطفلة ونظرتها. هنا عالم قليل، لكن قلته لا تعني غيابه، وان عنت في احيان خوف غيابه. يقل كلام النزيل في الشعر لأن لمسته ونظرته تستدعيان اكثر، ولأنه يصغي إلى كلام باطن يترسم علاماته واشاراته الخفية والنادرة. فالوضع هنا ليس مسرحياً، والكلام لا يصدر عن وضع ورسم روائيين. لسنا هنا أمام كلام الآلة أو الجهاز أو المسخ. فالكلام كلام من لا نحسن أن نجسمه في رسم أو وضع، وهو يتصل وينقطع لكنه لا يخبط في آلات صوته ونظره وسمعه. ربما نجد هنا حد الشعر، الا يفاجئنا أن يجيل من المادة نفسها وبحروفها تقريباً رسمان واحد للشعر وآخر للنثر؟□



طانيوس دعيبس

الانقلاب على الطائف

دراسة

ألبير منصور

دار الجديد - بيروت ١٩٩٣

استند منصور الى تجربته في الحكم كوزير للدفاع ثم الاعلام

■ فكرتان ثابتتان في كتاب الوزير والنائب السابق الدكتور ألبير منصور: «الانقلاب على الطائف». الأولى ان اتفاق الطائف لم يجر تطبيقه، والثانية انه يجب أن يطبق. بهذا المعنى فإن كتاب الدكتور منصور هو شهادة للطائف وليس شهادة عليه. وهي شهادة شديدة الأهمية لسببين: الأول، إن الكاتب رافق من الداخل عملية وضع اتفاق الطائف بتفاصيلها الدقيقة وبتوازناتها وباسبابها الموجبة. والثاني، انه رافق من الداخل عملية وضع الاتفاق موضع التنفيذ، أو بالأصح محاولات تنفيذه والعوائق التي اصطدمت بها هذه المحاولات. فالاتفاق الذي وضع على الورق في الطائف اصطدم بارض الواقع في لبنان، فتبين ان حساب الورق هو غير حساب الارض، مما طرح السؤال ولا يزال يطرحه: هل ان اتفاق الطائف قابل للتطبيق أم ان تطبيقه مستحيل؟

والسؤال يجر السؤال: هل إن الذين وضعوا الاتفاق والذين رعوا وضعه كانوا مدركين لحقيقة تناقض ارض الواقع مع الاهداف المرسومة؟ واذا كانوا على هذا الادراك، فهل ان رهانهم كان على الظروف المؤاتية وعلى الدعم الخارجي لفرض التنفيذ، فأدى تغير الظروف ووقف الدعم إلى وقف تنفيذ الاتفاق؟ وهل ان اتفاق الطائف وضع على قياس اشخاص معينين لينفذوه فإن افتقدوا تعذر التنفيذ؟ يدفع إلى طرح هذه الاسئلة الاستنتاج الذي يثبته الدكتور منصور في خاتمة الكتاب والذي يقول فيه: «لم يخطىء أهل الطائف يوم وافقوا على وثيقة الوفاق الوطني. فالوثيقة وضعت لتنفذ في ظل





توازنات اقليمية وداخلية معينة، من قبل مسؤولين من نوعية معينة، بضمانات وتعهدات عربية معينة، فاذا بها تنفذ في ظل توازنات أخرى ومسؤولين من نوعية أخرى وتحلل من التعهدات والوعود، واذا بها تنقلب إلى عكسها وفي ركنيها الاساسيين: ركن صيغة الحكم وركن السيادة».

ولكي يصل إلى هذا الاستنتاج كتب الدكتور منصور السيرة الموضوعية لعملية وضع اتفاق الطائف وسيرة تجربته الذاتية في الحكم خلال مرحلة محاولات وضع الاتفاق موضع التنفيذ، بجرأة كبيرة وبصراحة وبانحياز يعلنه بنفسه في مقدمة كتابه: «لست بصدد سرد اخبار أو وقائع حديثة وإنما اعرض تحليلاً وأبدي رأياً وأتخذ مواقف... فأنا لست مؤرخاً. أنا اكتب في السياسة ولست محايداً فيها». وموقفه يعلنه منذ البداية أيضاً: «ان ما يطبق اليوم ليس اتفاق الطائف»... «لبنان الذي عرفنا واردنا تتم اليوم محاولة انهائه»... «اتفاق الطائف اصبح اليوم اثنين: الاتفاق المكتوب والاتفاق المطبق»... «فبعد محاولة حل المأساة بالاتفاق كيف نحاذر تحول الحل إلى مأساة أدهى؟». ومحاولة الاجابة على هذا السؤال الأخير هي المهمة التي يطرحها الدكتور منصور على نفسه في الكتاب. فهل نجحت محاولته؟ الاتفاق تحول من حل لمأساة، إلى مأساة حل بفعل التنفيذ الخاطىء، هذا هو جواب الدكتور منصور الأول. وجوابه الثاني هو ان التوازنات الخارجية والداخلية التي وضع في ظلها الاتفاق تغيرت بعد وضعه، فحال هذا التغير دون استمرار مفاعيل الضمانات الراعية للتنفيذ.

من حل لمأساة الى مأساة حل

الجواب المزدوج الذي يقدمه الدكتور منصور في كتابه يفضي إلى القناعة لديه بصحة التسوية التي انتجها اتفاق الطائف: «اعتقد ان الصيغة التي وضعت في الطائف هي افضل صيغة حكم يمكن ان توضع للبنان ولنظام الديموقراطية المركبة المعتمد فيه»... «ان التمسك بتنفيذ وثيقة الوفاق الوطني بنصها الحرفي ومضمونها الحقيقي لا يزال يشكل برأيي الاساس الشرعي الأول الواجب اعتماده لتصحيح الانحراف الحاصل».

أهمية كتاب الدكتور منصور الأولى لا تكمن في هذا الجواب المزدوج تحديداً، بل هي برأيي في الباب الأول من الكتاب الذي يشرح فيه كاتبه، وللمرة الأولى، ماهية اتفاق الطائف كتسوية سياسية. والشرح هنا لا يطال النص وحده، بل يطال جوهره ولا سيما النقاشات التي دارت في الطائف وخارجه والتي أدت إلى صياغة النص النهائية. ففي هذا الباب تشريح كامل لما كان عليه النظام السياسي في لبنان قبل الطائف، وما اصبح عليه بعده. يعرض للثغرات التي سببت في السابق اسباب الشكوى والخلل. ويعرض للكيفية التي عالج بها نص اتفاق الطائف هذه الثغرات ولغائية هذه المعالجة، ابتداء من مفهومي الكيان والمجتمع في اتفاق الطائف، مروراً بالنظام السياسي الذي اقره الاتفاق ولا سيما في ما يتعلق بالمؤسسات وتحديد وتوزيع صلاحياتها، وصولاً إلى موضوع السيادة.

والأهمية التي يكتسبها هذا الجزء من الكتاب، تنبع اولاً، من انه يشكل الرد الأكثر وضوحاً على مقولة ان اتفاق الطائف أُسقط على اللبنانيين من الخارج وفرض عليهم فرضا. فجميع المفاصل الاساسية المتعلقة بصيغة الحكم وبتركيبة النظام السياسي الجديد في لبنان، تجد في هذا الباب تفسيرها السياسي والدستوري والاسباب التي قضت بصياغتها على هذا النحو، والنقاش الذي دار بشأنها في الطائف، والاتجاهات المختلفة والمتعاكسة التي ظهرت وأدت في النهاية إلى الصياغة التوافقية النهائية لها. والكاتب شارك من الداخل في هذا النقاش، وشهادته الموثقة دليل على الدور اللبناني الأساسي في وضع صيغة الحكم الجديدة. واذا كان الأمر نفسه لا ينطبق على بند السيادة فلأن هذا البند لا يرتبط بلبنان وحده ولا سيما في ظل موازين القوى الموجودة في المنطقة، وبالرغم من ذلك فان الدور اللبناني، نسبة إلى ما يرويه الكتاب، كان مؤثراً في العديد من التحديدات المرتبطة بهذا البند.

وتنبع أهمية هذا الجزء ثانياً من تقديمه مادة واضحة للنقاش السياسي، بشأن اتفاق الطائف فبالرغم من مرور اكثر من ثلاث سنوات على اقرار وثيقة الوفاق الوطني، لم يدخل نقاش الصيغة السياسية الجديدة في البلاد، حيز الحوار الجدي المرتكز إلى مضمون هذه الصيغة ومعاني نصوصها. وكان النقاش ولا يزال منطلقاً من زوايا المواقف السياسية بمعزل عن النص ومضمونه. لذلك يشكل الكتاب مادة شديدة الأهمية تساهم في دفع النقاش بالاتجاهات السليمة المؤدية إلى تظهير القواعد الدستورية والقانونية والسياسية للصيغة الجديدة بما يسمح بتكريسها أو بتعديلها أو بتطويرها. ومن هذه الزاوية يتخذ الجزء الثاني أهميته في كونه يشكل مساهمة من الكاتب نفسه في النقاش المذكور. ففيه وجهة نظر الدكتور منصور، المرتكزة إلى تجربته الخاصة داخل الحكم كوزير للدفاع ثم كوزير للاعلام، بكيفية تنفيذ الاتفاق انطلاقاً مما أُقر في الطائف كنص ومضمون ومما مورس خلال عملية التطبيق.

يجزم الكاتب ان اتفاق الطائف، كما اقره النواب، وكما جرى تكريسه في الدستور، لم يتم تطبيقه ابداً. والسبب يعود برأيه إلى الاختلال الذي حصل في ميزاني القوى الخارجي والداخلي، والذي أدى إلى تراجع مواقع القوى المؤيدة لاتفاق الطائف نصاً وروحاً لتقوى بالمقابل، مواقع القوى التي منها من وافق على اتفاق الطائف عن غير قناعة ومنها من اراده تسوية مؤقتة وعمل على

الانقلاب عليه لاحقاً. ثم يقول ان «تفريغ الاتفاق من محتواه بدأ مع انتخاب الرئيس الهراوي ونهجه في ممارسة الحكم المباشر، انما ظهور هذا الخلل إلى العلن بدأ مع حكومة الثلاثين (حكومة الرئيس كرامي)»، لأن «الثلث الضامن للتوازن والوفاق الوطنيين لم يؤمن في هذه الحكومة مما دفع نهجها وسياستها باتجاه تعطيل اتفاق الطائف في مضمونه. حرفتها اثقالها باتجاه السيطرة الميليشياوية، والغاء المشاركة الفعلية وممارسة الحكم في مجلس الوزراء، وباتجاه الاستدراج المتزايد لتدخل المسؤولين السوريين في الشؤون الداخلية اللبنانية وخطوات ناقصة في جميع التدابير المقررة تنفيذاً للاتفاق». لكنه يلغي، في عملية النقد والتشريح التي يلجأ اليها لتبيان هذا الخلل، كل حديث عن دور القوى المؤيدة للاتفاق وأهمها رئاسة المجلس النيابي والنواب في السكوت عن مكامن هذا الخلل. اما الجانب الآخر من الخلل فيعتبره في «استدراج المسؤولين السوريين الى التدخل المباشر واليومي في الشأن الداخلي اللبناني» الذي «حوّل الاشقاء السوريين إلى اطراف فعليين في الصراعات الداخلية وجزء منها».

ويعلن المؤلف مخاوفه من ان النتائج والاخطار الناجمة عن النموذج الحالي للعلاقات مع سوريا ستكون في «تجذر الانعزال لدى بعض الفئات اللبنانية، وإعادة انتاج العداء لسوريا والعرب». وانطلاقاً من هذه المخاوف يؤكد في سياق دعوته لمواجهة هذا الواقع ان «المدعوين للمواجهة لا مكان بينهم لمعادٍ لسوريا أو للعرب. ليست الدعوة لاستعادة سيادة الدولة في لبنان واستقلالية قراره عداءً لسوريا أو استعداءً عليها، ولسنا نقبل ان تعادينا سوريا نتيجة هذا الموقف». ويكمل في تأكيده: «لن تستعاد السيادة اللبنانية من موقع العداء لسوريا بل من موقع الأخوة والصداقة والصدق والكرامة... ان مطلب السيادة واستقلالية القرار الوطني يجب طرحه من موقع العروبة والتمسك بها. ومن موقع العلاقات المميزة مع سوريا وعلى قاعدة صدق الانتماء العربي وصدق التعاون والتنسيق مع سوريا. ان كل محاولة لتحويل مطلب السيادة واستقلالية القرار إلى عدائية نحو سوريا، أكان مصدر المحاولة سعي اللبنانيين أو ردة فعل السوريين، هي محاولة يجب محاذرتها وفضحها».

الخلل اذن على مستويي صيغة الحكم والسيادة نتج عن اختلال في موازين القوى، وعن عدم تبلور قوى في الداخل قادرة على مواجهة هذا الخلل والحؤول دون استفحاله والعمل على تصحيحه. ومن هنا تأكيد الدكتور ألبير منصور على أهمية العامل الداخلي «الاساسية ان لم تكن الأهم» في تصحيح المسار ومنع انتصار الانقلاب على جوهر التسوية التي اقرها اتفاق الطائف، وتحولت الى دستور الجمهورية الثانية في لبنان. اما كيف يأخذ العامل الداخلي دوره المطلوب، فعبر جبهة «منظمة معلنة الأطراف والاهداف، وطنية الانتشار، تفرض، بالديموقراطية ووسائلها استعادة السيادة، وتؤسس لبناء دولة القانون والمؤسسات». □

الشهود الذين غابوا

بلال خبيز

مجرّد ٢ فقط

رواية

ابراهيم نصر الله

دار الشروق - القاهرة ١٩٩٢

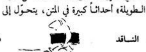
■ كانت رواية ابراهيم نصر الله الأولى «براري الحمى» لا تخرج عن اطار هذيانها الشيزوفراني أبدا، فلقد كان نصر الله يدير انقساماً بين شخصيتين متشابهتين، ما ان تموت احداهما حتى تحيا الأخرى للتخبر عنها، شخصان يتناوبان الموت والحياة، فتدور الرواية في خانة الإخبار عن ميت. ويبدأ ان ابراهيم نصر الله يدير فكرته الشعرية ويمطها ويطيلها بطريقة تجعلها مستوية وبلا ثغرات، فما أن تبدأ الرواية بقصيدة شعرية، حتى يطالعك شخص الرواية المنقسم الى اثنين بهذياناته المتواصلة، وبأفكاره التي ان دلّت على شيء فإنها تدلّ على اقتراب هذه الأفكار من طبيعة شخصيتيها اللتين، وهما لا تميزان بين موت وحياة، لا تميزان شيئاً آخر.

لم تكن رواية «براري الحمّى» بهذا المعنى أكثر من فكرة شعرية تم استنفادها بطريقة جعلتها أطول مما يجب، على عكس روايته الثالثة «عو» التي تابع فيها شخصياته وجعلها تنمو باتساقٍ ووفق منطق مدروس، لهذا تبدو «عو» رغم خفتها رواية حقيقية، فهي رواية شخصيات وأسماء، وأمكنة، هي إلى هذا الحد أو ذاك منمطة وفق ما يبتغيه الكاتب منها، إنها رواية شخصيات لا تقترب من الحقيقة ولكنها تحاول الإشارة إلى بعض جوانبها، فأحمد الصافي الكاتب القصصي الذي تثير احدى قصصه «طفل الليلة الطويلة» أحداثاً كبيرة في المتن، يتحوّل إلى كلب مربوط على شرفة الجنرال. وقصة أحمد الصافي هذا تدفع «سعد» إلى الصمود أمام المحققين كما دفعته أصلاً إلى القيام بالعملية ضد العدو الإسرائيلي، وإذا كان أي تشابه بين أحداث الرواية والحقيقة مقصوداً تماماً باستثناء الأسماء كما يشير ابراهيم نصر الله في بداية روايته، فإن الحدث الوحيد الذي يمكن أن يجد سنداً حقيقياً هو هذه العملية البطولية ضد المعسكر الإسرائيلي التي يقوم بتنفيذها سعد وثلاثة من رفاقه.

◆ ما أن تموت شخصية حتى تحيا أخرى ◆

سوى ذلك فإن الرواية لا تخرج الا من خيالٍ محض، وليس في أمر الخيال ما يفيد، لكنه الخيال الذي يجعل الرواية برمتها تشبه إلى حدٍّ بعيد في مدى منطقيتها تحوّل بطلها إلى كلب مبقّع بالحبر، فبقدر ما تبدو هذه الفكرة خيالية، كذلك تبدو المدينة والجنرال الذي لا شاغل له سوى التحقيق مع «سعد» واستضافة أحمد الصافي لترويضه وتدجينه صباحاً وظهراً ومساءً، أو المدينة التي لا تتسع إلا لأشخاص الرواية، فلا يدخل فيها شخص الا لغرضٍ يتعلق بمصير أحمد الصافي في سيرورة تحوله إلى كلب، والغابة التي لا لزوم لها إلا لأن الجنرال يريد أن يبني بيتاً فيها، والكلب الذي لا شأن له ولا حاجة إلا لرباط عنق الذي يضعه أحمد الصافي حول عنقه في نهايتها. هكذا تخترع الرواية أمكنة وأشخاصاً بحسب حاجتها إليهم، فيديرهم ابراهيم نصر الله بحسب ما تشاء مخيلته، وما يريد إيصاله.

على كل حال لقد مضى زمن على «عو» وأحمد الصافي، ولم يعد الكلام على الرواية يضيف شيئاً إلاّ في اطار الكلام على روايته الرابعة «مجرد ٢ فقط» ففي هذه الرواية يبدو ابراهيم نصر الله، الشاعر في «براري





كتب

الحمّى، والمؤلف في «عو» روائياً في «مجرّد ٢ فقط». فبين «عو» و «مجرّد ٢ فقط» ثمة بون شاسع في طريقة المعالجة، وفي ثبات الرواية وثقلها، وقدرتها على أن تحمل منطقها الخاص. تدور «مجرّد ٢ فقط» في مخيم فلسطيني ما، بطلاها اثنان دعيا إلى مكانٍ ما في دولة ما ومنعا من العودة، ذلك أن لا مكان لهما ليعودا إليه، فتنقسم الرواية على نفسها، فثمة أحداث تجري في الدولة التي وصلا إليها وأخرى تجري في المخيم قبل أن يغادرا، وبين أحداث المخيم في الحرب (التي أظنها الحرب اللبنانية) وبين الأحداث التي تجري في المكان الآخر فارق كبير، هو الفارق نفسه بين الحياة والموت، فأحداث المخيم تجري بوصفها أحداثاً لا تطاق ولا تصدّق بمعنىً من المعاني، هي عبارة عن بضعة أيام في ملجأ داخل منطقة معرضة للقصف ويحدث أن يقتحمها المهاجون ويوشكوا على ذبح من في الملجأ حين تأتي مجموعة عسكرية فتطوق المهاجمين وتأسرهم جميعاً قبل أن يبدأوا بالذبح، لكن الذبح والقتل الجماعي لا يتوقفان، فثمة تلال من الموتى يغرق هذان الاثنان بينهم، ولا يدري القارىء إن كانا ميتين أم حيين، بعد هذه الأكداس من القتلى ينتقلان إلى المكان الآخر، أحدهما بيد مقطوعة، هي اليد التي تظل موجودة بالنسبة له، ويظل يشعر بأصابعها، وبألمها، ويحس بها حين يغمر حبيبته. هذه اليد، التي يستطيع انباتها وإعادتها إلى الحياة مجدداً ككل ما فيه، ذلك أن الحنين إليها هو ما يجعلها أصعب من أن يدركها الفناء، شأنه ورفيقه اللذين يستطيعان الاستمرار بالحنين وحده، الحنين إلى إنشاء كلام ليس أكثر من محاولة صنع مكان بديل عن المكان الأول أو الثاني أو الثالث بحسب ترتيب خارطة الأمكنة الفلسطينية والاقامة فيه. فالمكان هاهنا ليس مدينة مخترعة، ولا زوايا وتكايا وشوارع وأبنية. المكان فيها يبدو يكون حقيقياً بقدر ما ننشىء فيه كلاماً، هو ذكرياتنا وأخبارنا وأحوالنا. هو الحياة التي تجعل من بطل روايته الأولى يخترع موتاً لشبيهه كي يتسنى له أن يخبر عنه، أن يطلق الكلام من سجنه الأبدي. هكذا يغدو الكلام ما يجعل هذا المكان حميماً وخاصاً، فيستعين على غربته باعطائه صفاتٍ، والإخبار عنه، بتحديده للأصدقاء، بتكوين فكرة سريعة عن شاغليه، بمشاركتهم التحيات والأوقات. وأيضاً بالمجهول الذي يتربص بهم جميعاً، والذي يدفعهم جميعاً إلى السعي، حتى لا يدركهم وهم جالسون على أقفيتهم. هذا المجهول الذي يستعدون له كل صباح، والذي ما إن يتصدون له حتى لا يعود قدراً مقدراً، فيخرج الرجل إلى عمله والمدرس إلى مدرسته وتلاميذه وبذلك يتصدى لمعاشه فلا يعود مجهولاً. ويخرج الشبان من الملجأ تباعاً للإلتحاق بالجبهة حتى لا يظل العدو دوياً ميتاً وحسب، بل يصير إلى حدٍ بعيد أقل اقلاقاً وأقل خطراً، سواء بالنسبة لمن كان داخل الملجأ أو بالنسبة للمقاتل نفسه. فمن كان داخل الملجأ يعرف أن الموت أبعد عنه ما دام يحتاج إلى درجة واحدة كي يبلغه، فالموت سيأتي لمن ذهب يقاتل، ولأن خبر موته لم يصل فذلك يعني أن الموت ما زال بعيداً ولن يأتي مفاجئاً.

لهجة عامية تفصح عن اختفاء الحياة

«مجرّد ٢ فقط» تنتبه لهذا المجهول فتتعامل معه، ليست واضحة المعالم كرواية «عو» وليست بلا أجوبة «كبراري الحمّى» فهنا يجد المرء نفسه متعاملاً مع الحدث والمحيط كما يفترض به، فلا يعود الموت مفاجئاً روائياً، وحين يحصل لا يحتاج إلى معجزات لإعادة إحياء من مات، حيث يبدو المرء وكأن هناك أموراً لم يتممها فيعود إلى الحياة لإنجازها.

الكلام، والموت، أمران متلازمان في أعمال ابراهيم نصر الله الثلاثة. فالكلام هو صلة الحي بالأحياء، وصلة الأحياء بالميت، والموتى بشكل عام. لذا تبدو اللهجة العامية وكأنها تفصح عن هوية الموت، بل يبدو الموت وكأنه يفتقد هويته دونها. فالحوارات المكتوبة بالعامية تجعل من الموتى موتى حقيقيين، بمعنى أن هناك من يؤكد موتهم. والذي يؤكد موتهم تواطأ معهم على لهجة في الحياة، واستمر بتعاطيها والكلام عبرها بعد الموت، فليس ثمة شواهد قبور، وليس ثمة وثائق تؤكد الموت. الموت يتأكد لأن آخرين يتكلمون اللهجة عينها التي كان يتكلمها الموتى. يقولون أنهم ماتوا وأنهم كانوا يعرفونهم إلى هذا الحدّ أو ذاك قبل الموت.

هكذا لا يعود الموت على حاله في «براري الحمّى» ولا يضطر ابراهيم نصر الله إلى إعادة الشخص الى الحياة ليخبر عن الموت وفداحته. إنه فقط يعلن الموت بلسان من بقوا أحياء. لهذا حين تنتقل الرواية إلى شقها الآخر إلى المكان الآخر. يصير الموت والحياة سواء. فلا شيء يؤكد حدوث الموت ولا شيء ينفيه. فهناك لا يمكن للكلام أن يتصل من حيث انقطع، لهذا يشبه الموت الحياة، وتشبه الحياة اختفاء الحياة.

رواية «مجرّد ٢ فقط» هي بين روايات ابراهيم نصر الله الأصلب عوداً والأكثر ثقلاً وصدقاً، فالرواية صادقة بقدر ما تتصل شخصياتها بآخرين. لكن ذلك الذي يصنعه ابراهيم نصر الله في «عو» لا يكفي وحده لتثبيت صدقيتها، إنها بحاجة أيضاً لآخرين يجهلونها وتجهلهم حتى تقف الحقيقة على قدميها، وتستطيع أن تثبت. □



رواية برانية

داوود الرز

كلب الأمير

رواية

نجيب منصور الشيخ

دار الانسان - لندن ١٩٩٢

■ من موقع المعارضة السياسية للأسرة المالكة في الحجاز، أراد الكاتب نجيب منصور الشيخ لروايته أن تساهم في فضح أفراد هذه الأسرة مُمثّلين بأمير منطقة جدة، حفيد عبد العزيز آل سعود، دون أن يغفل الراوي عقد الصلة - ما سنحت ظروف السرد الروائي - بين السلوك الإداري «المنحرف» للحفيد وسلوك الجد المؤسس.. على أن «الفضائح» الكبرى في الرواية ليست جديدة، فهي من النوع الذي تداولته الصحافة العالمية على امتداد أعوام ماضية، في سياق تسليط دوائر غربية، أضواء على مسألة حقوق الإنسان في المملكة عبر فيلم «موت أميرة»، وحادثة اقتحام الحرم الشريف من قبل القوى المسلحة النظامية بعد احتماء معارضين سياسيين وأيديولوجيين في داخله. لذا يسعى الكاتب في ثنايا الرواية بعد تعويم الحادثتين على المتن إلى «التفضيح» انطلاقاً منهما باتجاهات متعددة. فيبدأ «التفضيح» بظاهرة اجتماعية راهنة يرى الكاتب أنها ترفد الحاكم بجهاز من الجلاوزة (كلاب الأمير) يحتاجهم للقبض المحكم على شؤون البلاد لصالح «تحقيق ثروته»، ودفع «مجونه» إلى حدّ أحلامه القصوى. والظاهرة المشار إليها، هي بطالة يُحكى أن أبناء الريف المهاجرين إلى المدن، يعانون منها بشدة تدفعهم إلى الدوس على ضمائرهم وعلى ما هو متأصل بالإنسان من مشاعر مؤاخاة لأخيه الإنسان والقبول بأحط الوظائف، وظائف تعذيب واضطهاد السجناء السياسيين في سجون المملكة. ثم ان «التفضيح» يمتد إلى تاريخ التأسيس، حيث يشير الكاتب في مناسبات عدة من لحظات السرد الروائي، إلى اقترافات أسس بها ولها الجد عبد العزيز، من نوع قتل أزواج للتزوج من نسائهم، والتنكيل والغدر بشيوخ لإجبار قبائلهم على الإنضواء في لوائه واستخدام الشرع قولاً وحدّاً، استخداماً مزيفاً وتضليلياً.

على أن «التفضيح» هنا ليس معقوداً على الماضي كما يُظن، بل إن التذكير يريد أن يكشف عن تماهي سلوك الأحفاد بسلوك الجد، ليصبح هذا الأخير نهجاً متكاملاً في الإدارة السياسية الراهنة وامتداداً لروح السلف في دم الخلف.. على أنه (التفضيح) ينصب في الرواية على التوشيح المرعب لعلاقة الأمير بجهازه التنفيذي، حيث ينغلق الفضاء الإداري على مزيج من روح الحذر والتآمر والغدر وتعميم شهوات السلطة والمال والجنس، ضمنه..

الرواية موظفة لخدمة موقف سياسي

عند هذا الحد نقول أن الفن الروائي في عمل نجيب منصور الشيخ ليس جوهراً يأخذ أبعاداً تجريبية خاصة بهذا الفن كفن، تريد أن تتجاوز في حقله مآلاتٍ مدرسية سابقة في الرواية العربية أو العالمية، تنقدها أو تضيف عليها أو ترفع بجوارها عمارة روائية من نوع خاص.. إن جوهر المحاولة إعلامي بالدرجة الأولى بكل ما يعنيه الإعلام من رؤية الواقع رؤية مُطَوّعة، ومن ثم توظيفها لصالح الموقف السياسي. هذا لناحية المعاني، أما لناحية الأداء فإن الرؤية، كفن يتم توسل تقنياتها تبدو مسلوخة عن أي معاناة فنية مُعمقة، فهي تقنية بحت تأخذ قيمتها من قدرتها على تسليس أداء المعنى أداءً حكائياً مُبَسَّطاً، مفرغاً من الحواشي والتدفقات والاحتدامات الروائية المشهودة في الأعمال الكبرى.. محتفظاً فقط بما يسوق خيارات الأبطال السياسية خيراً أو شراً (خيراً بالتفلت من، والابتعاد عن الارتباط بالجهاز الإداري الخاص بالأمير، والتعفف عن مكتسبات هذا الارتباط.. وشراً بالارتباط به والتَّشرُّهن لمكتسباته) إلى مصائر سعيدة في الحالة الأولى، ومصائر درامية مفجعة في الحالة الثانية..

وهكذا يدعو إلى الإعجاب حقاً امتلاك الكاتب لتقنياته الموجهة نحو الغاية الوظيفية لنصه، و التي أشرنا إليها.. فنحن أمام نمط من الكتابة المبسطة المريحة للقارىء، الصحافية إلى حد كبير والمقطّعة إلى فصول قصيرة (ثلاثون فصلاً في ٣٠٨ صفحات بمعدل لا يزيد على الصفحات العشر إلا بقليل لكل فصل)، وهي فصول تتقابل كمشاهد سينمائية متوازية لبطلين يفترقان في بداية الرواية، فيوغل أولهما (عقاب) في الإقبال على الإخلاص للأمير وفي شهوة الترقي الإداري والمالي، داخلاً في من قست قلوبهم، ضارباً عرض الحائط باعتراضات زوجته وابنته المقبلة على الزواج وابنه الجامعي، على قبوله لوظيفة سيّاف الإمارة التي يعرضها عليه الأمير بعد أن يلمس فيه غلظة في القلب منقطعة النظير وتفانياً في الدوس على ضميره وتشهي التبعية. لا يرف له جفن إزاء تفكك اسرته وابتعاد أبنائه وزوجته عن المنزل الأسري... بينما يتصدع البطل الآخر (فارس) متجهاً تحت تأثير حبيبته وابنة خالته سلمى التي تبدي احتقاراً لوظيفته كواحد من جلاوزة الأمير، فيمضي باتجاه معاكس لاتجاه معلمه (عقاب) منجزاً رحلة تطهير ضميره والعودة به إلى طزاجة المشاعر الإنسانية.

هكذا يسري السرد (كلباً للمعاني) متتبعاً مصيري البطلين، مُرَتباً فصلاً من حياة الأول الداخلية والأسرية، يليه فصل من حياة الآخر العاطفية والضميرية وانكفائه عن السلوك الوظيفي ذي الجوهر الإنحرافي.. إلى أن ينتهي الأول - في زحمة اثرائه السريع والدخول في الشراكة (الشرك) مع الأمير وحاشيته، وفي زحمة إخلاصه الأعمى لصورته كرجلٍ للمهمات الصعبة الموكلة إليه من قبل سيده - إلى قطع رأس ابنه الذي يحكم عليه بالقطع مع جملة المحتمين في الحرم الشريف إبان الحادثة المعروفة..

هنا يستيقظ الأب الرؤوم في (عقاب) ويُدرك أن (كَلْبيّته للأمير) قد صنعها الأمير وأن الأمير قد قتل ابنه بيده هو.. وعند هذا الحد يدخل (عقاب) في هذيانات فاضحة للأمير وخطرة عليه، وما يلبث أن يقرر الأمير أن يتخلص منه. وإذ يجد نفسه من ناحية أخرى ضحية عملية احتيال يقوم بها شقيق زوجة الأمير وتفقده كل ثروته، يلجأ إلى قتل الشقيق ويتبع ذلك بمحاولة فاشلة لاغتيال



كتب

الأمير نفسه. وينتهي به الأمر تحت سيف السياف، مقطوع الرأس وسط تصفيق حماسي من قبل الجمهور... بينما ينعم الثاني (فارس) بنهاية سعيدة، إذ استقال من وظيفته بعد أن مارس مجموعة خيانات لدوره كجلواز بنقله رسائل المساجين إلى ذويهم وانحيازه إلى صف المعارضة السياسية وتكفيره عن ذنوبه السابقة بتلقي عقوبات رؤسائه بالسجن والتعذيب وإبداء استعداده لبذل إحدى كليته لسجين شيخ كان قد أُطلق سراحه بعد أن أتلف التعذيب كليتيه.. ولكن السجين المُسرَّح يموت قبل أن يقدم (فارس) على بذل كليته، تاركاً له وصية يورثه بموجبها ملكية أحد بساتينه. وإذ تقف حبيبته على حقيقة استقالته من وظيفته المشينة وتوبته، ينتهي به الأمر إلى الزواج السعيد..

الرواية عند هذا الحد من النوع السهل المريح لقارىء ذي روح استعلامية لا رغبة له في التعمق، وهي (الرواية) تتبادل مع هكذا قارىء نوعاً من التواطؤ الصالح لإعلام يومي، وفي هذا السياق يمكن الكلام عن تجرؤ نادر على ذكر الأشخاص بالأسماء، وهم أشخاص في مواقع قوة معظمهم من أمراء المملكة، يشار إليهم ببنان الإتهام وتنسب إليهم أحط الأعمال..

جرأة نادرة في ذكر الأشخاص باسمائهم

لدى نوع آخر من القراء، الباحثين عن المتعة التي يقدمها فن الرواية سطحاً وعمقاً، سلاسة واحتداماً، تبدو المحاولة ناجحة جداً لزاوية ما تريد أن تؤديه من غاية تشهيرية.. لكنها على العكس تبدو تلفيقية من زاوية تخص مجموعة من الأسئلة المنتمية إلى الفكر السياسي والفهم التاريخي للأمور. إذ كيف يمكن لمجتمع يقدّمه الكاتب شديد الرسوخ في قيمه الخيّرة التي تعزل الشرير (عقاب) طوال الرواية، كيف يمكن لهكذا مجتمع أن يُحكم من قبل أمير مواصفاته يُلخصها الفسق والانحلال ونهجه الإداري المعلن هو ارتكاب «السبعة وذمتها» شرط الحفاظ على التشكيلة القانونية (إذ برأيه أن الأميرة السعودية العاشقة كان بإمكانها النجاة من الموت لو أنها حافظت على الشكل القانوني كغطاء لسلوكها العاطفي).. أليس صحيحاً أنه «كما تكونوا يولَّ عليكم»؟ ففي اللوحة الإجتماعية التاريخية التي يقدمها الكاتب عن مسرح الرواية مفارقة، فالمعروف أن المُلك المتحلل اخلاقياً، يعمم التحلل على معظم خلايا المجتمع، إذ إن الناس على دين ملوكهم.. في اللوحة: المجتمع شديد التماسك حول قيمه العريقة.. لا تفسخ ولا انحلال أخلاقي ولا أثر فيه لتحلّل المُلك، بينما بالمقابل يتم التهويم والنسج على أقوال برّانية في طبيعة السلطة. □

انتخاب غير موفق

الياس العطروني

حلم حارس ليلي

مجموعة قصصية

فخري قعوار

دار الآداب - بيروت ١٩٩٣

■ بعد ثلاثة عشر مؤلفاً متنوعاً ما بين قصة ومسرحية ومقالة وترجمات، وفي تجربة كتابية غزيرة الطبع منذ اصدار مجموعته القصصية الأولى «ثلاثة اصوات» سنة ١٩٧٢ في عمان. نقف الآن عند آخر اصدار عن دار الآداب في بيروت، وهو مجموعته القصصية «حلم حارس ليلي». وهي «قصص قصيرة منتخبة» كما سجل على الكتاب. قدم لها الروائي يحيى يخلف.

السمة العامة لنصوص المجموعة هي انها لا تنتمي كلياً إلى اي اسلوب معروف من اساليب القص، بل لا تقاربها اساساً، وللوهلة الاولى يتراءى كلام يحيى يخلف صحيحاً عندما يقول في تقديمه، ان المجموعة تتوزع على كافة اتجاهات القصة المعروفة. ولكن بعد القراءة الثانية ينكشف ان نص فخري قعوار، الذي يظهر بريئاً إلى درجة الاحساس الاكيد بأنه يخفي طبقة مكتومة من المعنى، لا يخفي شيئاً.

يبدأ القاص مع بنائية نصه بالتحضير لحدث ما سيحصل. هام واساسي. ثم يسير مسرعاً حيناً، وبطيئاً احياناً، إلى ان يصل في النهاية الى اللاشيء. كما في قصة «المطاردة» مثلاً (ص ٣٠)، فهو يخاف من ثور يحدق إليه وفي نيته الهجوم عليه (لا اعلم كيف بامكاننا اكتشاف نية ثور). يهرب إلى غابة معتمة ذات اشجار متشابكة. يختفي الثور وتسمع اصوات عيارات نارية، ويرى عشرات العيون تحاصره، وتطالبه اصوات بالاستسلام، فيعلن انه جاهز، ويتعالى خوار الثور. وفي النهاية «سنطلق عليك النار كلنا مرة واحدة، وننهش لحمك، ثم نلقي ببقاياك العفنة للوحوش البرية. ثم هيأوا اسلحتهم لاطلاق النار».. وانتهى.

سبب اختياري لهذا النص، انه الاقرب بين نصوص المجموعة لاسقاط حالة سياسية لعلها الطربوش الانسب لاكتشاف معنى أو مسبب لارتفاع منسوب الضجيج المفرق المشتت في النص، لكن سرعان ما نشعر بالخيبة الثانية. والتي عادة ما تكون أكثر مرارة، عندما لا يثمر التفتيش أو وسائل القياس التخميني في مقاربة النص لحالة سياسية ما. اللهم الا اذا اعتبرنا الثور اسرائيل، والاصوات المحاصرة المطالبة باستسلام الراوي هي انظمة اقليمية أو عالمية. واذا سلمنا جدلاً بهذا الافتراض نمسك بمقاتل تقنية للنص، اذ انه يفتقد في هذه الحالة نقاط ضوء الربط الفاصلة ما بين الابهام والرمز. أو بين المعنى والعدم. في مطلق الاحوال، الخشية ان يكون الافتراض مبنياً على توهم، عندها يسقط النص بمجمله في الدائرة الفارغة.. تلك الخشية التي تلوح مؤكدة.

الكلام عن قصة «المطاردة» ينسحب على الكثير من نصوص المجموعة، محور الارتكاز فيها هو التحضير لقول مهم، أو محاولة الايهام باخفاء المهم. في هذا تلعب براءة النص الدور الاساسي، اذ لا يمكن لنص ان يتحمل هذه الجرعة من البراءة دون الوصول إلى نتيجة - حصيلة.. لكنه الحاصل. مقلب آخر، وان كانت نسبة تواجده أقل. هو معالجة موضوع غير جدير بالمعالجة القصصية. كما في قصة «مشهد» (ص ٢١): «زوجة تقرر مغادرة المنزل والزوج موافق. ثم تعدل عن قرارها لأنها اذا غادرت لن تعود». أو في قصة «القندلفت» (ص ٥٩): «قندلفت يطرد من عمله لأنه امي».

من جهة أخرى نصادف في المجموعة محاولات صيد غير ناجحة، ليس بسبب ذكاء الطريدة، بل بسبب اسلوب الصيد. ففي قصة «اليوم خمر وغداً» اصطياد لقصة امرىء



القيس. وفي «ذو القرنين» اصطياد لموضوع الاسكندر المقدوني. وفي «زوجة قاسم» اصطياد لحالة قاسم امين. أما في قصة «مغارة السنديانة» (ص ٩٣) فيتجسد المطب القصصي واضحاً.

حكاية دق الوتد في القنمباز بدلاً من دقه في ارض المغارة أو المقبرة، الحكاية القديمة التي تتكرر بين الفينة والفينة في النتاج القصصي العربي مكرسة الاستنتاج بأنها تكتب خلال فترات الشح. وآخر ما عولج على صعيد هذه الحكاية ما كتبناه شخصياً في العدد ٤٩ من «الناقد» تموز/يوليو ١٩٩٢، في معرض تناولنا لمجموعة الكاتب يوسف الشاروني القصصية المعنونة، «مختارات» التي تدور احدى قصصها «العفاريت» في قرية الشاروني وذلك حين يدخل شاب إلى المقبرة ليلاً لدق مسمار في جدارها تحدياً لعفاريتها ولرفاقه، ويتم العثور عليه في الصباح وقد مات من الخوف بعد ان دق المسمار في ثوبه. الطريف في هذه الحكاية انها وردت عند الشاروني في (مختارات) وعند قعوار في (منتخبة). مع ان هذا الأخير لا يميت داق المسمار، بل يصيبه بالهبل بعد ان يستبدل مغارة السنديانة كمكان للواقعة المنسوخة بالمقبرة في نص الشاروني وغيره..

من حيث الاسلوب في قصص قعوار المنتخبة، تبدو جلية آثار كتابة الستينات، أو بعضها، من جهة الاسهاب المغرق في الوصف (ذلك الذي حل مكان المحسنات اللفظية في الفترة ما قبلها). ففي قصة «الكلب» (ص ٧٤): «تثاءب مرة فرأيت صفين طويلين من الاسنان الحادة القاطعة، يقف في كل صف منها نابان بارزان مدبّبان، ينتهي كلّ منهما بطرف رفيع كنهاية قلم رصاص». أو من جهة رجرجة الاسلوب في قفزه من نمط إلى نمط بتضارب فني غير مبرر جمالياً. ففي قصة «موت رجل ما» (ص ٣٤) يبدأ النص بداية رومانسية جيدة، ونصادف لغة مختلفة إلى حد ما، تجعل مسرى النص يتهادى كهودج في صقع منبسط: «يا قشر الدراق الذي يصهل تحته الشبق، اريد ان اقف في الناس، لا يسترني شيء سوى جلدي، معلناً عن موتي بملء فمي وشراييني، ليقال في بلاد بعيدة، ان ثمة رجلاً ما، كان لجلده لون ما، وقف عارياً في مكان ما، ومات بطريقة ما». واذا بالقاص هنا يُدخل الحدث في تناقض محشور. رجل وامرأة في سيارة يتناغيان.. وليل وضباب. فجأة، حادث سير وسيارة شرطة، وقتيل ملقى في حفرة مليئة بالماء. إلى هنا يستمر النص في بنائية جيدة. يبقى ان يوظف التناقض ويستثمر في مهمة الشد. إلى هنا استطاع القاص تأمين توازن فني. لكن نتيجة التوظيف والاستثمار هي التي تحدد نجاح كل ذلك أو العكس، انطلاقاً من الوحدة العضوية للنص.

نرى النتيجة على شكل حوار باهت يمتص صفعة الحدث وبالتالي ألق رومانسية ما قبله.

«قالت: اظن انه في الستين.

قلت: اظن انه حارس لاحدى العمارات الكبيرة.

قالت: لا بد انه كان يروي الحكايات لاحفاده الصغار.

قلت: لا بد ان احدى السيارات النزقة صدمته ثم فرت.

قالت: ربما كان فقيراً، ويضع تحت معطفه رغيف خبز.

قلت: ربما كان غريباً في ارض لا يملك شيئاً منها.

قالت: ما ابشع النهايات المفاجئة».

حقاً ما ابشع بعض النهايات المفاجئة، على وجه الخصوص اذا كانت نهاية لنص كان يمكن ان يكون ناجحاً، لولا تنابذ زرع عن سابق تصور وتصميم، فحوّل البداية الرومانسية والحدث الصافع إلى خطاب اجتماعي اقتصادي مع شرخ هائل بين داخل السيارة وخارجها. ثم ان الكاتب عند انتقاله في تعامله مع نصه إلى مجال النص الواقعي خرق قواعد هذا المجال من خلال المعطيات. فالرجل المرمي في حفرة مليئة بالماء لا يبدو منه سوى رجليه. هذه المشهدية التي حددها الكاتب تلغي السن والمستوى الاجتماعي.. وكل ما بني عليه الحوار. أيضاً هناك التضاد بين حالة الشدّ في خلق الحدث، وحالة الإرتخاء في الخاتمة.

المقبرة عند الشاروني تصبح مغارة عند قعوار

في نصوص أخرى يشد قعوار الرحال إلى ارض الكتابة السياسية، وهي ارضية معظم كتاباته القصصية باستثناء معظم ما ورد في مجموعته هذه التي انتخب لها ما هو بعيد عن نهجه، وربما كان ذلك سبب هزالها. فلنتبين عافية الضفة الأخرى. في نص «حسبنا الله» (ص ٢١٨)، «يضيء مشرق الشمس في امتداد الصحراء، فيقول كبير القوم انه لم يعد يعرف الاتجاهات. يشير شاب يرتدي قنمبازاً بالنظر إلى الشمس. تقول فتاة متحجبة بغطاء جلدي على وجهها، مثقوب عند العينين، ان الشمس لم تغير مكان طلوعها». القاص هنا يحدد عناصر نصه، الارض الصحراوية، الاجيال، ونقاب الفتاة المتحجبة بغطاء جلدي يقودنا إلى الخليج العربي، فنتحسب لنص يحتك بالمحرمات أو المحظورات والمحذورات، لكن السياق يأخذنا إلى وجهة معاكسة إلى حوار حول الشمس ومطلعها ينتهي بالاتفاق على «حسبنا الله ونعم الوكيل». وكأن مهمة القصة ان تشير إلى انها تجري على ارض الخليج وحسب، فتخلو من بارقة على علاقة بالواقع، لتنتقي ما هو على علاقة بالطبيعة اكثر مما هو على علاقة بالانسان اساس المشكلة هناك وهنا وفي كل مكان. ربما التحسب هو الذي رسم حدوداً للنص قيدت حركته، بل جمدته، أو ربما هو العجز. يصفعنا التعاكس حول هذه النقطة بالذات، كون من قدم للكتاب هو يحيى يخلف كاتب «نجران تحت الصفر». لكن الكاتب الذي اراد الاتجاه إلى المكان الساخن، وقف عند بواباته، أو طار فوقه.

تلك مكابح، والمكابح ايًا كان سببها هي من اهم اسباب بلاء الكتابة العربية عموماً، والقصصية والروائية منها على وجه الخصوص. واستطراداً فاللغة تستطيع احياناً ستر عورات موضوع مطروق من خلال فنيتها، لكنها في مجموعة قعوار تشرد في حركة نكوصية ربما كانت مواكبة للمضامين، كما نرى في قصة «الشرف» (ص ١٥). فهي ليست قصة بقدر ما تشبه حديثاً يتكرر منذ بداية ما سمي حركة تحرر المرأة العربية: «مجموعة رجال يجتمعون حول انثى خاطئة، ترد عدة اقتراحات حول وسائل قتلها، ثم يقتلونها ويفتتون جسدها بشباريهم». في هذا النص القصير على سبيل المثال (اقل من ثلاث صفحات) واستحضاراً لموضوع اللغة ونكوصها في موازاة المضمون، يرد فعل قال ٢٤ مرة (قال ـ قالت ـ قلت).

اكاد اجزم ان المشكلة في هذه المجموعة القصصية تكمن في كونها «منتخبة» فعلى مدار انتاجه القصصي قدم فخري قعوار نصوصاً جميلة كان معظمها على ترابط مع الحالة السياسية الساخنة. اعتقد انه الآن ينظر إلى ما كتب بعقل بارد مع برودة كل شيء من حوله، ومن هذه البرودة انتقى من مجمل انتاجه، أو انتخب، ما يوازي حالة الحاضر، وليس الحالة التي كتب النص اصلاً بموازاتها، فكان ان وقفنا على حالة اشبه بالحياد ليست في مكانها. من هنا اظننا نلحق ظلماً بفخري قعوار ان حكمنا على انتاجه القصصي من خلال ما انتخب. □



باسم المرعبي

موسيقى للجفاف

عمارة الفُقراء أم عمارة الاغنياء؟

دراسة

محمد عبد السلام العُمري

أصدقاء الكتاب. القاهرة ١٩٩٢

■ لم.. يُجانب المؤلف الحقيقة، حين وضع عبارة.. «رؤيا موضوعية لعمارة حسن فتحي» كعنوان فرعي للكتاب، فهو لاحَقَ كل ما هو إيجابي وسلبي في نظريته وأعماله مُعتمداً في ذلك على رؤيته الشخصية وعلى رؤى وآراء الآخرين من عرب وأجانب، ممن تصدّوا لعمل هذا المعماري الكبير.

في الصفحات الأولى، يُعرفنا المؤلف إلى بدايات اهتداء أو تعلق حسن فتحي بعمارة الطين، وهو الذي لم يزر القرية، قط، حتى السابعة والعشرين من عمره، غير ان تعلق أمه بالقرية، وهي المتحدرة منها، وحنينها الدائم لها، كانا قد ولّدا فيه حُباً للقرية المصرية وللفلاحين الفقراء، «وامتلأ رغبة في أن يعمل من أجلهم شيئاً» (ص ١٦).

وعلى الصعيد الأكاديمي فقد تخرج فتحي من كلية الفنون التطبيقية. في عشرينات هذا القرن، وبعضهم يُسميها المهندسخانة. فمن المعروف ان عمارة حسن فتحي، قد اعتمدت الطين، كمادة اساسية، باعتبارها رخيصة ومُتوافرة، وقد كان جهده مُنصباً على إقامة مساكن تتوافر فيها الشروط الصحية من تهوية وإضاءة، ومنسجمة مع البيئة وطبيعة الحياة الريفية، كما ان تصاميمه امتازت جميعها بالقباب المستمدة من العمارات الاسلامية والفرعونية والقبطية. وهو يؤكد على ذلك كهوية وطنية.

على انه أَولى الناحية الجمالية أهمية فائقة، فهي عنده توازي المنافع العملية التي تقدمها تصاميمه للإنسان، فقد «كان لتذوقه الموسيقى ودراسته العزف على الكمان الأثر الكبير في ان يجعل من جفاف أي برنامج معماري قطعة موسيقية» (ص ٦٩). ولحسن فتحي العَدِيد من الأعمال التي حازت شهرة عالمية، منها التخطيطات والتصميمات الخاصة بالقرنة الجديدة في مصر. وكذلك في وادي زرقا بتونس ودار الاسلام في أبيكيو في نيومكسيكو. كما أعدّ التصميمات المعمارية لحوالي ٢٠ فيلا و١٨ استراحة للأمراء والباشوات... الخ، كما يُشير المؤلف إلى الجوائز العديدة التي حصلَ عليها وأهمها جائزة الاتحاد الدولي للمعماريين وهي تعادل في قيمتها جائزة نوبل (ص ١٢٣). ورغم الإعجاب الذي يُبديه المؤلف براعةوخصوصية عمارة حسن فتحي، إلا ان هذا لم يمنعه من تثبيت الكثير من المآخذ عليه، والتي أفرد لها العديد من صفحات الكتاب، وعنونها بـ: «مآخذ كثيرة ونقاط ضعف في عمارة حسن فتحي»، وقد جاءت عبارة عن ملاحظات موضوعية، أفرزتها طبيعة هذه الدراسة، وسأعرض إلى أهمّ هذه النقاط:

١ ـ عُرف فتحي بأنه مهندس عمارة الفقراء، غير ان المفارقة «ان فقيراً واحداً لم يسكن عمارته، بل مَن سكنها هم الأمراء في الكويت والسعودية وأصحاب الملايين المصريين».

٢ ـ عدم تمكن عمارة الطين من دخول المدينة، وبالتالي عدم تمكنها من حلّ مشكلة الكثافة السكانية في المدن.

٣ ـ اقتصار عمارته على البناء السكني المفرد ولم تمتد إلى البناء المركّب.

٤ ـ عدم الاستفادة من أسطح القباب، عملياً، كما انها اساساً مرتبطة بالأضرحة.

٥ ـ ومن المآخذ المهمة، كذلك، هو ضعف مادة الطين نفسها، الركيزة الاساسية في عمارته. حيث لا تصمد أمام الفيضانات. «كما حدث مع مشروعه الأول في القرنة» (ص ٧٩).

إلا ان هذا لا يُقلل من أهمية هذا المعماري والفنان الكبير والذي يُعد «الشخصية البارزة في العمارة المصرية في القرن العشرين، وعلى المستوى العالمي يُعتبر واحداً من أشهر عشرة معماريين في العالم» (ص ١٠٢). □

نوايا طيبة!

ذاكرةُ الرماد

سمير البرقاوي

قصص

أصدار خاص. عمّان. ١٩٩٢

■ لم يكن الاتكاء على الشعارات والنوايا «النبيلة». ليشفع لانقاذ أيّ عمل فني، إذا لم يكن، أصلاً، حائزاً على مقومات وشروط نجاحه. والفن حينما يعمد إلى ذلك، يكون الهدف تغطية العجز الإبداعي، سواء قصد صانعه ذلك أم لم يقصد. ليس هذا الكلام جديداً، ولكنه يتجدد، حيال أيّ عمل، يثير مثل هذه الهواجس.

والمجموعة التي بين يدينا، تحوّلت، ومن خلال معظم قصصها ان لم تكن جميعها، إلى دكةٍ لإلقاء الخطب والمواعظ، وفي شتى الاغراض الفنية والوطنية! «... فان كنت تكتب للناس فاكتب ما يفهمونه، وان كنت تكتب لنفسك فلا داعي لأن تتعبها وتحملها عبثاً لا يُجدي» (ص ٣٢). هذه واحدة من اللُقى الثمينة التي نعثر عليها في المجموعة والتي يُسديها الكاتب لأخيه الشاعر ـ حسب قصة الانتظار ـ، حينما يعرض عليها قصيدة يكتنفها الغموض! ويُخيل لي ان الكاتب هو مَن يتبنّى مثل هذا الرأي أو الحكمة، فهو يعمل من أجل ان يفهمه الناس، والمشكلة ليست هنا، فملاحظتنا لا تتعلق بالغموض او الوضوح، بقدر ما تتعلق باسراف الكاتب في المباشرة، وكذلك الوقوع في أحادية الموضوع، فكل القصص ـ عدا واحدة ـ

كانت تناقش موضوعة الاحتلال أو السجن والحرب، وما ينقذ الموضوع، عادةً، أيّ موضوع هو نوع المعالجة، إلا أن معالجة القاص، هُنا، أسقطته في التقريرية والافتعال: «... وعدت أصيح في وجهه من جديد. بأسنانك قاتلْ، بأظفارك.. مت هناك وليكن جسدك متراساً للآخرين». هذا الحوار المنقول من قصة «الحرب والذاكرة». والذي يدور بين امرأة وزوجها إثر هروب هذا الأخير من معركة، تُفصح عن تعسف القاص إزاء شخوصه وقسرهم على التصرف والنطق بشكل مبالغ فيه، مما يفقدهم مصداقيتهم وواقعيتهم، وبالتالي لا يصح أن يُعمّموا كنماذج.

كما ان بعض القصص جاءت بنهايات مُفبركة، حيث أنّ الكاتب بدا يقفز فيها فوق الواقع والوقائع لأجل أن يرسم مصائر مأساوية أو سعيدة لشخوصه، كما في قصتي: «الرهان» و«المتنبي والجراد» على سبيل المثال، وهو بذلك يبدو وكأنه يستدرّ عواطف القراء لا أفكارهم! ولم تكن بقية القصص بمنجى من الملاحظات الآنفة الذكر، وغيرها، ومرد ذلك ربما يعود إلى ارتباك البدايات وقلقها.. ربما! □

تمويه السر

طائر آخر يتوارى

شعر

عقيل علي

منشورات الشتات. باريس. ١٩٩٢

■ على قلة ما نشره عقيل علي من نتاجه الشعري، في بداية السبعينات، ومن خلال مجلة «الكلمة» الا انه في قليله هذا، كان لافتاً، سواء على صعيد لغته او اختياره - في حدّ ذاته - التعبير شعرياً، بالنثر، اذ هو من قلةٍ آنذاك كتبت قصيدة النثر وبرّرت اختيارها لها عن وعي ودراية.

ثمة خصوصية مؤكدة، اتصفت بها قصائد المجموعة.. هذا هو الانطباع الذي يخرج به القارىء دون عناء. وكأن ثمّة مصادر سرية ينهل منها الشاعر.. قصائد كأنها لا تحيل إلاّ إليها وهي في الوقت ذاته تُذكر بالنماذج المهمة في الشعر، لا لجهة التأثر المباشر وانما لجهة فرادتها. هذه الفرادة التي لا بد ان تقوم على شيئين أساسيين: ضخامة تجربة وسعة انفتاح ثقافي.. كما يؤكد كاظم جهاد في كلمته الشعرية المكثفة - عقيل علي، او: السير حثيثاً إلى الأقاصي - التي ذيّل بها الكتاب.

وسط عالم يبدو الشاعر انه غير آبهٍ به يسير في دروب اختطها لنفسه، محصناً إياها بالكلمات، مُتأملاً ومُراقباً.. وبصفاء يكاد يقترب من العفوية يُغنّي الأشياء، وقد بدا في الوقت ذاته داخل العالم وخارجه.. داخله حيث هو يتزود بخبراته ومشاهده، وخارجه لأجل ان يصفه وان كان الانطباع الأقوى الذي يُسرّبه الشاعر لقارئه هو انه خارج المشهد دائماً، حيث رائحة العزلة تُهيمن على أجوائه، بل ان كلماته برمتها صادرة عن «حنكة» العزلة:

.. فليس ما يطرق الباب سوى الهجران (ص ٤٨).

رائحة العزلة عابقة في المجموعة

*

لا زلت وحدي
وانتم لستم ملاذي يا من أحببتكم
(ص ٥٦).

وفق ذلك نستطيع تلمس الطريق المفضية الى تجربة الشاعر، الى الروح التي يصدر عنها والتي تُفسّر، ما أسميه الشراسة والبدائية التي تُثيرها أجواؤه، حتى في أكثر أناشيده الفة وحميمية، كما في قصيدة: «أيام ماضية.. أيام آتية» والتي هي قصيدة حب طويلة حيث يكشف عقيل عن تدفق آسر لمشاعره حيال امرأةٍ مستحيلة، بل عن علاقة شائكة محكومة بالتردد والاندفاع:

ابدأكِ بأفراح كاذبة
وأقتلكِ
من المناهضة تبدأين
انظري كيف انتهيتِ الى اثواب الوحوش
انظري كيف تنتهي السُلالات...
وكيف تبدأ
انظري
....
لقد ملأتكِ وأفرغتك مراراً
لست أحبك.. لم أتغنّ بك ايّ يوم
صرخة كنت فيّ، مُريبة وملموسة
(ص ٣٥ - ٣٦).

ومثل هذه النظرة هي ما يحكم او يسود علاقته لا بالمرأة فحسب، بل بالأشياء والآخرين أيضاً. ومردّ ذلك الى احتكام الشاعر الى دواخله إن لم أقل انكفائه. وكل ذلك نتاج ما أسميته حنكة العزلة.. حيث تغدو الحواس اكثر صفاء وربما بدائية في التعامل مع الأشياء أو ملامستها، وهذا قد يُفسر أيضاً عمل مخيلته واستقلاليتها، لا تبعيتها بحيث يبدو وكأنه يحيا حياة شديدة الخصوصية حتى داخل قصيدته. حياة يجنح بها بعيداً عمّا يُربك توحدها او يتناول اسرارها. لهذا تغدو الكتابة هنا عند عقيل جداراً آخر يضربه حول حياته. إنها تعزيز السر أو تمويهه وليس افتضاحه، وإن بدا الشاعر كأنه يُفصح:

لم أكن ذلك الرجل، لم أكن. كنت دوماً عدو نفسي وغريبها (ص ٨٠).

انه إفصاح الانشطار، الانشطار الذي ينطبق عنه:

لا أدّعي
ان تكون غير أنت
لأجل نسيانك
بوسعي أن أكتُبَ الشعر
بوسعي
ان أتأمل ارتفاع طائر السُدى عمودياً...
والأمل بأن تعود (ص ١٠).

وكما انه يبدو من مناطق شبه خاصة، حياتية وثقافية يصدر عنها عقيل علي في كتابته. فهو كذلك يُشكل بتجربته منطقة خاصة في الشعر العراقي، تبدو غير خاضعة لسياقات تجربة القصيدة العراقية عموماً، وان كانت لا تنفصل عنها في السياق الأعمق لتشكل تجربته وخصوصيتها. □

ناقد ومنقود

مقالات الصادق النيهوم

صوت صارخ في البرية (الرد)

يوناثان كتّاب
فلسطين

ابتداء من هذا العدد سوف ننشر في هذا الباب «ناقد ومنقود» الردود على مقالات الصادق النيهوم ومواقفه، وفي الوقت نفسه، تعليق النيهوم على هذه الردود.

■ لقد قرأت بشغف واهتمام مقالات الدكتور الصادق النيهوم والتي تعرفت عليها لأول مرة من خلال كتابه «صوت الناس/ محنة ثقافة مزورة»، ثم من بعض المقالات في مجلة «الناقد» والتي تعرفت عليها من خلال استفساري عن كتابات الصادق النيهوم ومن ثم قراءة كتابه الأخير «الاسلام في الأسر».

ورغم اقتناعي بصحة تحليله وانتقاده لما آلت اليه الأمة العربية والاسلامية بشكل عام، إلا انني أرى فراغاً مجزعاً في الحل الذي يقترحه وهو تطبيق نوع من الديموقراطية المباشرة، عن طريق تسييس صلاة الجمعة وإعطائها دوراً ثورياً كمنبر عام حر يلتقي فيه المسلمون كل جمعة.

وان عدم ارتياحي قد يتلاشى اذا ما تمكن الدكتور الصادق النيهوم من الإجابة في مقال لاحق على بعض الاستفسارات التي وردت الى ذهني، أثناء محاولتي تصور ما يمكن أن يحدث لو قبلنا الصيغة المقترحة:

١ ـ أين هو مكان غير المسلمين من هذه الديموقراطية؟ وكيف يمكننا ضم الخمسة عشر مليون مسيحي ونيّفاً في الأمة العربية الى هذا النظام الجديد؟ أم انهم سوف يبقون على الهامش؟

٢ ـ ما هي الآلية التي تتحول بموجبها الديموقراطية المباشرة، والتي يمكن تصورها في جامع واحد يجمع أهل حي معين مرة كل أسبوع للتداول في أمورهم الاجتماعية، الى قرار عام يتخذه المواطنون بمجملهم في مدينة صغيرة أو كبيرة كالقاهرة مثلاً، أو في اقليم أو في دولة، ناهيك بمجموعة الدول العربية وربما الإسلامية أيضاً؟ إن الديموقراطية المباشرة كان من الممكن تطبيقها في مجتمع أولي بدائي صغير، لكن مع توسع رقعة الدولة الإسلامية، لربما كان من الحتمية أن تتحول الأمور الى مركزية، اشار اليها بالتفصيل الدكتور الصادق النيهوم، حين شرح كيف أخل الأمويون، ومن بعدهم بقية الحكام العرب والمسلمين بمبدأ الديموقراطية الجماعية. لقد كان لهذه الديموقراطية ما يشبهها قبيل استقلال الولايات المتحدة تحت مبدأ New England Townhall Democracy ، لكنه ما لبث أن تحول من ديموقراطية مباشرة الى مبدأ ديموقراطية تمثيلية تقوم كل مجموعة بانتداب أو انتخاب ممثل عنها الى مجلس المقاطعة. ومن ثم اتفق ممثلو المقاطعات على دستور فيدرالي يجمعهم في دولة واحدة مركزية السلطة، يحكمها دستور ومجلس كونغرس يمثل، عن طريق الإنابة، مختلف الولايات.

وكيف يمكن أصلاً ان نفكر في حل المشاكل بين الأقاليم المختلفة أو بين الدول المختلفة بموجب لقاءات يوم المجمعة؟ يتحدث الدكتور النيهوم عن اجتماع الملايين في مكان واحد وأمام منبر واحد، فهل يتوقع فعلاً ان يقرر المسلمون المجتمعون في جامع في مدينة الكويت أو في جامع في أبو ظبي مثلاً، الشيء نفسه الذي يقرره المسلمون المجتمعون في الخرطوم أو جنوب السودان أو في قرية شيعية في جنوب لبنان أو موريتانيا مثلاً؟ واذا قرر مسلمو دول النفط خلاف ما يقرره مسلمو موريتانيا والصومال (وهذا ما يجب أن نتوقعه لأنهم يعيشون تحت ظروف إجتماعية واقتصادية مختلفة) فهل يضمن اجتماعهم في ديموقراطية مباشرة، كل في جامع، أي صيغة مشتركة لحل مشاكلهم؟

٣ ـ كيف نضمن سلامة هذا الاجتماع من الديماغوجية والتي بواسطتها يتمكن الاقوياء أو الخطباء المفوهون، أو من يحسنون استغلال مخاوف أو مشاعر الآخرين من الوصول ما يرغبون به أصلاً، حيث لا يختلف الوضع في الديموقراطية المباشرة عن الوضع الذي نجده في وسائل الاعلام المسخرة لصالح هذا النظام أو غيره، وهذه المصلحة أو غيرها؟ بل الابعد من ذلك ان الدكتور النيهوم نفسه قد أشار الى ان التغيير الجذري المطلوب يحدث فقط عندما يحصل تغيير مباشر في المفاهيم الجذرية والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية. الا يتبع ذلك، انه في غياب مثل هذه الثورة الحقيقية والتغير في الواقع الفعلي، فان تحويل النظام من مركزية (سواء جمهورية أو ملكية أو اقطاعية أخرى) الى لا مركزية في الجامع، لن يغير من مفاهيم الناس شيئاً، سواء فيما يتعلق بالحجاب أو قطع يد

السارق، أو بترسيخ وتثبيت الجهل على حساب العلم والتفكير العصري الحديث.

٤ ـ ليس هناك في النظام الجديد ما يضمن المفاهيم العالمية (وليس الأوروبية) المنضوية تحت شعار حقوق الانسان. فسواء كنا نعني حرية الفرد أو حقوق الأقلية أو حقوق الصغار أو الشيوخ أو المرأة أو غير المسلمين، أو كنا نتحدث عن غيرها من حقوق الانسان التي يجب أن تضمن دستورياً، وتقيد وتحدد الحكومة قضائياً، عبر ايجاد جهاز وآلية قانونية لضبط تصرفات الحكومة، وكائنة من كانت، فان مجرد تحويل السلطة الى الجامع في ديموقراطية مباشرة، بحد ذاته، لا يضمن بالضرورة حقوق هؤلاء المستضعفين. □

الأبعاد الخفية (التعليق)

الصادق النيهوم

■ نظام الجامع ليس بديلاً عن العمل الحزبي، بل قاعدة معدة لضمان فعالية العمل الحزبي بالذات، من دون الاخلال بحق الاغلبية في اتخاذ القرار النهائي. فالمشكلة في نظام الاحزاب، كما ولد في دول الغرب، انه نظام قام لتلبية مطالب رأس المال الذي وفرته الثورة الصناعية واستيطان القارة الأميركية، تحت ظروف تاريخية خاصة جداً، لا يمكن تكرارها حتى بالصدفة. ولهذا السبب، لم يتمكن نظام الاحزاب من ضمان حق الاغلبية في العدل، الا في بيئة الغرب الصناعية وحدها. أما بقية الدول التي تبنت هذا النظام، سواء من باب التقليد أو باب اليأس، فقد أصبحت الاحزاب فيها، مجرد قناع اعلامي، لأسوأ أنواع الفوضى السياسية، وديكتاتورية الطبقة، وشطحات الحكم الفردي.

اننا قد نختلف هنا في تقويم تجربة نظام الاحزاب خارج بيئة الرأسمالية. فمن حقك أن تشير الى بلدان مثل كوريا الجنوبية ومصر واسرائيل، باعتبارها نماذج ناجحة للعمل الحزبي خارج بيئته الغربية. لكن ذلك قد يكون مجرد جدل قائم على تجاهل الوقائع: فهذه الدول مرتبطة عضوياً بالغرب، ومسخرة لخدمة أهداف محددة، وليس في وسعها أن تتخذ قراراً لا يوافق مصالح الغربيين، من دون أن تتعرض لعقاب مروع. ولهذا السبب يموت اليهود دفاعاً عن أسهم بريطانيا وفرنسا في قناة السويس. وتتطوع مصر لحماية شيوخ النفط، وليس أطفال غزة. وتعمل كوريا الجنوبية مثل حصان طروادة لتمرير رأس المال الأميركي تحت حماية شركات وهمية، لاستنزاف العالم الثالث باسم «المعجزة الاقتصادية».

حول هذه النقطة، نستطيع ان نختلف الى ما لا نهاية. فمن حقك أن تصر أنني مخطىء. ومن حقي أن أقول، أنك لا ترى أبعاد الصورة الخفية. لكننا نستطيع أن نحسم الخلاف عملياً، اذا اتفقنا على أن الوقاية خير من العلاج، وأن أفضل ضمان لحماية العمل الحزبي من النفوذ الأجنبي أو المحلي، هي أن يختص الحزب بالادارة فقط، فيما يظل التشريع وديعة بين أيدي الناس، بحيث لا يستطيع حزب أو طبقة، أن يصدر قانوناً، أو يلغي قانوناً، أو يتخذ قراراً يتعلق بمصير الأمة، من دون أن يحصل على موافقة الاغلبية، في استفتاء مفتوح، تحت حراسة وسائل اعلامية حرة.

هذه الاغلبية، نستطيع أن نبحث عنها في الشوارع، كما تفعل دول الغرب عندما تحتاج الى اجراء استفتاء عام. ونستطيع أن ندعوها للقاء في لجان خاصة تحت إشراف الحزب، كما يحدث حالياً في الصين. ونستطيع أيضاً أن نذهب اليها في «الجوامع» حيث يلتقي المسلمون أسبوعياً منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن. واذا كنت ممن يستهويه النظام والكفاءة، فسوف ترى على الفور، أن اللقاء الدوري في الجوامع، يوفر أحسن الظروف، واكثرها قدرة على الايفاء بغرض الاستفتاء حول قضايا التشريع بالذات.

فالمواطن هنا، لا يجلس في مقر الحزب الحاكم، ولا يعترف بمذاهب أهل السياسة، بل يجلس في بيت مقدس، يعرفه باسم «بيت الله». ويتبع شريعة مقدسة، يعرفها باسم «حكم الله» ويملك رؤية مفصلة جداً لمعنى العدل والحق معاً. انه ليس مواطناً محايداً، تستطيع أن تستميله بوسائل الدعاية أو الاغراء، بل مواطن منحاز الى العدل سلفاً، مما يجعله أفضل الخبراء في مسائل التشريع، ويمنحه موقع القاضي الذي يطمئن اليه جميع القضاة.

مشكلة هذا المواطن ـ في رأيك ـ انه مسلم أصولي، من شأنه أن يفرض على المجتمع، شريعة تتبنى التفرقة بين الاديان، وتدعو الى حجاب المرأة، وتبيح الزواج باربع، وتعتمد، التشرذم بين مذاهب الفقه، والعودة الى تقاليد القرن السابع باسم المحافظة على السنة النبوية. وهو اعتراض حقيقي، وثابت بالتجربة في كل ما فعله الاصوليون حتى الآن، ومصدر قلق بالنسبة لمسيحي مثلك، ومسلم مثلي، على حد سواء. لكن ذلك يعني ـ فقط ـ ان خلاصنا يكمن في احياء دور الجامع بالذات:

فهذا الرجل الاصولي الذي تشكو من تخلفه على جميع الجبهات، مجرد نتيجة تلقائية لغياب الشرعية عن واقعنا. ومادام الاسلام قد فشل في إقرار حق المواطن في الحرية والعدل، فلا مفر من أن يتحول على يد الاقطاع الى فقه موجه لتغييب وعي المواطن وراء حجاب كثيف من الخرافة والجهل. وهي حقيقة يثبتها اصرار جميع الدول العربية على تلقين أقوال الفقهاء لصغار الاطفال في المدارس باسم «التربية الدينية»، رغم أن الدين نفسه لا يلزم الطفل بمثل هذه التربية، في عملية معلنة من عمليات غسيل الدماغ التي تتوجه الى تدجين عقل الطفل في سن مبكرة جداً، وقبل أن تتاح له فرصة عادلة للنقد والادراك.

ان النتيجة الأولى لمثل هذه السياسة التعليمية، هي أن يصبح التعليم نوعاً من التجهيل القائم على نقل خرافات الفقهاء من جيل إلى جيل. والنتيجة الثانية، أن يغمرنا طوفان من «الاصوليين» الذين يتخرجون من معاهدنا «العلمية»، مسلحين بذلك النوع من الجهل المقدس الذي لا طائل من ورائه سوى أن يظل بديلاً شرعياً عن العلم بالذات.

في ضوء هذا الواقع، لا بد أن أوافقك على القول، بأننا لا نستطيع أن نضمن سلامة اللقاء في الجامع، من هجمة أصولية تحيله الى جبهة لفرض تقاليد القرن السابع على مجتمعنا وقوانيننا، باسم حرفية النص القرآني، أو باسم المحافظة على السنة النبوية. لكن ذلك لا يعني ان نقبل الحكم قبل المداولة، خاصة اننا أصحاب حق واضح، واننا نملك الى جانبنا نص القرآن الذي جعل العدل شرطاً لتطبيق الشريعة، بموجب مبدأ «مسؤولية الناس عما كسبت أيديهم». وهو شرط يستحيل الوفاء به من دون اقرار حرية الرأي، وضمان حق النقد والحوار، لكل مواطن، وكل مواطنة. □



ناقد ومنقود

اجتهادات تالفة

رد على عارف تامر في رده على رضوان السيد في العدد ٥٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣

عمر خضر
سورية

■ كتب الاستاذ عارف تامر مقالة مطولة يدافع فيها عن الاسماعيلية ويهاجم بشدة الاستاذ رضوان السيد ظناً منه أنه يرد على من يستحق الرد عليه، والغرابة في ذلك أنه توجد صفحات ومجلات تنشر مثل هذه الاقاويل وكأن الاستاذين عارف تامر ورضوان السيد يحملان فكراً جديداً يجب نشره.

والاغرب من ذلك أن هناك من يعتبرون انفسهم كتّاباً ونقاداً أو رواد فكر، ولم يشعروا بما يحيط بهم في هذا العالم الذي تجاوز كل الاحقاد، وتطور الى ابعد الحدود. ان الفكر الذي يدافع عنه عارف تامر، فكر قديم مثل بقية الافكار الفئوية الأخرى، فيه القوقعة والجمود النصي المتغالط على العقلانية والفلسفة والمنطق، ويخالف لروح الفكر العصري المتحضر. فالعلاقة الفكرية المتداولة في عالمنا هذا والذي تجاوزه العالم منذ قرون تقوم على المقارنة بين النصية والعقلانية ونحن ما زلنا نخاف النقاش حولها.

فاليزيدية والاسماعيلية والحنبلية والشافعية... هي مذاهب قديمة واجتهادات تالفة، يجب الاجتهاد فيها من جديد ولصالح الجميع كضرورة حياتية لا تقبل الشك أو الريب. اما اسلوب التهكم والتهجم الذي مارسه الاستاذ عارف تامر في بداية مقالته، فهو لا يدخل في مجال النقد أو الادب أو الفكر مطلقاً، ففي مقالته من السبب والشتم ما يكفي لاثبات وجود خلفية فئوية متقهقرة الى عصور ما قبل التاريخ. فقوله في بداية مقالته: «بالامس البعيد منَّ علينا بفتواه الملطخة بالروائح الكريهة» «والأدران...» ومقارنته الفظيعة بين صلاح الدين وهولاكو، والحجاج والعثمانيين، ووضعهم في فصيل واحد هو فصيل الحاقدين «والممغوصين» هي مقارنة باطلة لا أساس لها من الصحة ولا يصدقها أحد في عالمنا هذا. حتى الاعداء الصليبيون اعترفوا بفضائل صلاح الدين وقدرته وحكمته في الدفاع عن الحق والعدل والارض. فهولاكو مجرم وقاطع طرق. والحجاج دموي قطع رؤوس كبار القوم من أعوانه وسفك الدماء لبقاء سلطانه والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يريد الاستاذ تامر المساس بشخصية صلاح الدين؟ وهل يمكن لعارف تامر ان يؤثر على بطل تاريخي مثل صلاح الدين؟ ولماذا يحاول الاستاذ الاسماعيلي ان يضع صلاح الدين في فصيل هولاكو والحجاج السفاك؟. وهل يقبل الصليبيون أنفسهم بتصنيف الاستاذ عارف تامر لصلاح الدين؟ الا يعتقد الاستاذ تامر أنه أخطأ في دفاعه عن الاسماعيلية واساء اليها بهذه الطريقة الرعناء والمنطق الفئوي المريض؟

ثم يدخل الاستاذ عارف في اجواء دفاعه ومساءلته عن الاسماعيلية فيغوص في الماضي السحيق وبين ادبيات تالفة اكل الدهر عليها وشرب، ويعتز بأن الاسماعيلية دونت في كتب اختصاصية طبعت في اوروبا والهند وكأنَّ في ذلك فخراً للاسماعيليين! ثم ينتقل من الفكر الاسماعيلي الى كتّاب الاسماعيلية. ويذكر كتاباً دافعوا عن الاسماعيلية ويستحضر الماضي الاسماعيلي بردائه البالي، ويريد ان يجبب الناس بنعش دفن في قبور مجهولة المكان والزمان، اما الاستاذ رضوان السيد الذي لم أقرأ مقالته حول الاسماعيلية والتي لم يعد هناك سبب أو ضرورة لقراءتها بعد قراءة مقالة الاستاذ تامر، حيث يبدو وكأنه من الطينة نفسها التي جبل منها الاستاذ تامر، والذي لا يستحق من أحد في هذا العالم، ان يقرأ مقالته أو أفكاره الخرافية البالية، تلك الافكار التي تدافع عن فئة وتهاجم فئة أخرى... وحيث تسيطر على كاتبها، اذا جاز لنا ان نسميه كاتباً، افكار فئوية متقوقعة متراجعة عن ركب الحضارة والتطور البشري الجديد. أو تلك الافكار التي لا تحترم الآخرين وتحاول التقليل من اهميتهم. وكأن في هذه القوقعة الفئوية حسباً أو نسباً مشرفاً للأدب. فالعالم الذي نعيشه اليوم لا يوجد فيه مكان واحد للعقلية الفئوية الاقليمية القديمة، لان الحضارة البشرية لا يمكن لها ان تستمر دون تجديد العقلية القديمة والغاء النصوص الجامدة المسبقة الصنع. وكان جديراً بالاستاذين عارف تامر ورضوان السيد وامثالهما من قراء وكتاب للافكار البالية، ان يعودوا بعقلانية وهوادة ليتأكدوا من أن المطروح في عالمنا للنقاش هذه الايام، هو المقارنة بين النصية والعقلانية ومحاولة الوصول الى اسباب تخلفنا الحضاري والصناعي، أو فتح باب المناقشة بين الخير والشر.

اما المقارنة بين اليزيدية والاسماعيلية أو الحنبلية أو الشافعية الخ.. فمطلوبة باتجاه استنتاج الافضل منها جميعاً، وان الاجتهاد في هذه المذاهب من جديد أصبح ضرورة حياتية لا ريب فيها، فالنص الذي اوجده العقل في زمان ما، وكان صالحاً لذلك الزمان قد تلاشى والى غير رجعة في واقع جديد.

والاجتهادات القديمة أدت مهمتها في مرحلة تاريخية سحيقة ولا أرى بأساً في استذكار هذه الاجتهادات بين الحين والآخر، اما ان تصبح هذه الاجتهادات مادة حياتية توقف الحضارة البشرية وحضارتنا بشكل خاص، فلا أرى بداً من تركها والتخلي عنها ورميها في مستودع التاريخ الازلي.

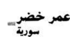
وليعلم الاستاذان عارف تامر ورضوان السيد، أن تخلفنا سببه العيش في الماضي واستحضاره كل لحظة ودقيقة، بحيث ان كثرة التفكير في الماضي أنستنا التفكير في المستقبل. فاذا كان جدي بطلاً رائعاً يقهر الابطال! فإن ذلك لن يجعل مني بطلاً يقهر الذباب في حلبة السباق! وكون اجدادي قاتلوا بشراسة، لا يشكل ذلك دريئة ترد الاعداء عن حدود بلادي.

وما كتبه ابو بكر الرازي والدكتور البيومي وابو عمران الشيرازي لا يغنيني عن الكتابة والاجتهاد والتجديد في عالم، اعيشه أنا، وليس البيومي والشيرازي أو الرازي. فهم وضعوا الاساس الذي يجب ان نبني عليه والا عشنا ابد الدهر بين الاساسات كما نفعل اليوم. هل يعلم الاستاذ تامر بأننا لا نملك من الهاتف والتلفزيون اللذين يعيشان معنا في البيت سلكاً واحداً؟.. وأن السيارة التي تنقلنا الى اطراف الارض، والطائرة التي تحملنا في أرجاء الفضاء، لا نملك منهما برغياً واحداً ينتمي الى السلفية المسبقة الصنع؟ اذا لماذ يريد الاساتذة السلفيون ان يعودوا بنا الى الوراء، لنعيش مع الاموات في قبورهم؟ وهل بقي لنا مكان في قبور اودعناها جثثا حتى طافت بالعظام؟

لقد ترك العالم المتحضر كل اساليب النفاق على الذات وخرج من قوقعته القديمة الى عالم الحقائق والارقام، فطور افراده الحياةالبشرية، وساهموا بكل ما لديهم من قدرة في انجاز أجهزة وآلات معقدة تفوق تصورنا البالي، اما نحن فما زلنا عند الحديث عن الاسماعيلية والحنبلية...

فالكذب على الذات كفر ليس بعده كفر، وهو ماء يطفىء لهيب الحضارة الانسانية ونحن الذين ندفع الثمن غالياً ايها السادة السلفيون. هل تريدون ان يكلفنا الكذب على الذات أكثر من هذا؟ إذاً لماذا لا نعترف بأننا أصبحنا ركام هذا العالم؟ أم إنكم تريدون ان نصل الى حافة الهاوية التي لا عودة منها؟

ايها السادة السلفيون، ان مسؤوليتكم أمام الاسلام كبيرة وكبيرة جداً، وان تستركم بالدين هو سبب فشلنا في متابعة مشوارنا الحضاري والعلمي، لأن الاجتهاد السلفي ترك العقلانية جانباً وتخلّى عن الابداع في مجال العلوم الحياتية وحشر الخرافات والاوهام في عقول الناس في مجتمعاتنا الاسلامية، كل ذلك بدأ في عصر الانحطاط ولم ينتهِ حتى يومنا هذا، وكان يهدف للوصول الى السلطة أو التقرب من السلطان أيام العثمانيين. وقد تحققت أهداف الاساتذة السلفيين واحتلوا مناصب عليا في الدولة العثمانية



المتخلفة، فزادوا التخلف بذلك وهماً على وهم وتأخراً على تأخر. في وقت كان فيه العالم يقوم بتحديد سلطة الكنيسة ووضع الاوهام جانباً لان الابداع والتفكير في عالم علمي صناعي لا يمكن أن يخلقا في عالم الاوهام والنظريات المسبقة الصنع، فالفكر العلمي هو العمل الناتج عن العقلانية والتفكير في الابداع والابتكار. أما ما سبق صنعه قبل قرون من يومنا هذا، ومهما كان مصدر اجتهاده الفكري، فلا يعتبر علماً أو فكراً أو ابداعاً، فسياسة الترهيب والترغيب واختيار البدع بدل الابداع والفئوية بدل الاجماع، أمور لا تغني من جوع. أما أن يأتي السلفيون في هذه المرحلة الاعلامية المتطورة وفي عهد المعلوماتية السريعة المزدهرة، فيدعون الى المذاهب والى الرجوع إلى عصر الانحطاط الذي تجاوزه العالم منذ قرون، فلم يكن محسوباً أبداً، الا اذا كان ذلك يعود الى خلفيات اعلامية موجهة من جهات مشبوهة.

فالاسلام يا سادة دين وحدوي علمي متجدد، بحيث يناسب كل زمان ومكان. وان الاجتهاد فيه كما أسلفنا، أصبح ضرورة حياتية لا تقبل الشك أو المجادلة. أما الفئوية والمذهبية المتعددة الاتجاهات والأقاويل الخرافية فليس لها أية علاقة بالاسلام والمسلمين يقول الله تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

وأخيراً وليس آخراً، أود أن أنبه الاستاذين عارف تامر ورضوان السيد إلى أن يتخليا عن اثارة الفتن ونشر الفئوية في المجتمع الاسلامي الموحد، بالرغم من وجود القوميات العديدة والاجتهادات الكثيرة هنا وهناك. واني احذّر أجهزة الوهم السلفية من الاستمرار في التعلق بمصالحها والمتاجرة بالدين وترك مصالح المسلمين التي تتعرض للخطر الداهم من خلال تخلفنا العلمي والصناعي الملحوظ. لأن الشعوب الصناعية ستحاول كما حاولت سابقاً أن تلغي وتسيطر على كل ما نملك، لأننا لسنا بمستوى المسؤولية والقدرة على الحفاظ حتى على أنفسنا هزيلين مستهلكين لان وجود الامم في هذا العالم المتحضر أصبح يتلخص بما تقدمه للحضارة البشرية من جديد.

والسؤال الذي يفرض نفسه هذه الايام: الى متى سيشتري منا العالم المتحضر كلام العهود السحيقة ويرسل لنا عبير جهود شبابه العابق والحافل بالآلات الكهربائية والألكترونية ونتائج أبحاثه عن الكواكب والبحار والأجهزة المختلفة، التي نتمتع بها ونستعملها ولا نملك فيها أية مساهمة تذكر؟

فالقيود والشروط التي أحاطت بعقلية المسلم، والتي تخصص بها السلفيون منذ عصر الانحطاط الى يومنا هذا، لا تمت الى روح الاسلام بشيء، لأن روح الاسلام متجددة دائماً، فعبقرية الكاتب والمفكر كامنة في خلق أدب وفكر يدفع المجتمع الى عالم الخلق والابداع. وان الأدبيات القديمة واساليبها لم تعد قادرة على مثل هذا الانجاز أو العطاء الحضاري، والدليل على ذلك واضح في تأخر مجتمعاتنا الاسلامية عن عالم الصناعة والابتكارات العلمية الحديثة.

وفي الختام أتوجه بمقالتي هذه الى كل الكتاب والمفكرين وأطلب منهم أن يتركوا أسلوب الأوهام جانباً وأن يصعدوا الى مستوى المسؤولية المنوطة بهم واني لمغتبط بأن أسمع رأي الآخرين إن وجدوا. □

فصاحة الجاهل !

رد على مقالة أحمد مفلح «الثورة العربية بقلم الضابط المحبوب» في العدد ٥٨ نيسان / ابريل ١٩٩٣.

سليمان موسى
الأردن

■ طالعت مقالة الكاتب الفلسطيني أحمد مفلح، التي قدّم فيها آراءه في مذكرات صبحي العمري «أوراق الثورة العربية» بأجزائها الثلاثة. وقد بدا لي ان كاتب المقالة غير مطلع على تاريخ الثورة، وعلى تفاصيل الأسباب التي أدت إلى قيامها، والاتصالات والمباحثات التي دارت حولها. ويبدو لي أيضاً ان الكاتب لم يعط الاعتبار الكافي لصاحب المذكرات وسجل نضاله المجيد، اذ ان العمري من الطلائعيين القلائل الذين حملوا السلاح من أجل العروبة ضد أكثر من عدو. لقد حمل العمري سلاحه وقاتل في الثورة العربية (ضد الاتحاديين الأتراك) وفي ميسلون (ضد الغزاة الفرنسيين) وفي العراق (ضد الغزاة الانكليز). وكان يجدر بالكاتب ان ينطلق في حديثه عن العمري من منطلق هذه الخلفية، ومن منطلق التقدير لرجل حمل بندقيته سنوات وسنوات، وواجه خطر الموت، في سبيل عقيدته القومية ودفاعاً عن شرف امته. ولكننا ـ على عكس المتوقع ـ نرى الكاتب يشير اشارات مبطنة إلى الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه العمري، دون أن يأخذ بعين الاعتبار ان عائلة العمري لم تحل بينه وبين الالقاء بنفسه في أتون الحرب من أجل عزة وكرامة قومه.

ونستدل من سطور المقالة ان كاتبها ذو اطلاع محدود على تاريخ الثورة العربية. وكنت أتمنى ان يكون اطلع على كتاب المؤرخ السوري الكبير أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى» بأجزائه الثلاثة (نُشر في عام ١٩٣٤). وهذا المؤرخ هو أول مؤرخ أطلق وصف «الكبرى» على الثورة العربية، في حدود ما أعلم. وكنت أتمنى ان يكون كاتب المقالة قد اطلع على كتاب العماد مصطفى طلاس «الثورة العربية الكبرى» والذي نُشر في عام ١٩٧٨، أو على مؤلفات عديدة في هذا المجال لكتاب عرب وغير عرب، أخص بالذكر من بينها الكتاب الشهير لجورج انطونيوس «يقظة العرب» الذي صدر أصلاً بالانكليزية في عام ١٩٣٨ (ونُشر بالعربية مترجماً بقلمي الاستاذين ناصر الدين الاسد واحسان عباس)، وكذلك على كتابي «الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤» الذي صدر عن دار النهار في بيروت سنة ١٩٧٠.

من المؤسف ان نرى في مقالة أحمد مفلح كل هذه الجرأة على الباطل، حينما يسمح لنفسه بالحديث عن «عقلية قيادة جاهلة». ومن المؤسف أيضاً ان الكاتب يستمد الجرأة على الباطل من معين جهله بألفباء المعلومات المتعلقة بالثورة العربية. ودليلي على هذا الجهل تساؤله القائل: «فعلى أي أساس اختير الحسين ليكون مفاوضاً باسم العرب؟» وكذلك قوله: «فهل يعقل ان الشريف حسين هو الوحيد القادر على هذه المهمة، وهل كان يمثل كل العرب فعلاً؟» ولو كان الكاتب يعرف شيئاً من ألفباء تاريخ الثورة، لما فاتته معرفة الحقيقة البسيطة القائمة على ان اعضاء جمعيتي (العربية الفتاة) و(العهد) الذين كانوا يمثلون الروح العربية الناهضة خير تمثيل في تلك الفترة (سنة ١٩١٤) هم الذين ألقوا على كاهل الشريف حسين تلك المسؤولية الخطيرة، وأوفدوا له عدداً من الرسل أذكر منهم فوزي البكري والشيخ كامل القصاب. واولئك الأعضاء هم الذين وضعوا الميثاق القومي وبعثوا به إلى الشريف حسين من أجل ان يفاوض بريطانيا على اساسه، نيابة عن العرب.

اما القول بأن بريطانيا هي التي اختارت الشريف حسين، فنابع من الجهل المطبق بموضوع الثورة العربية. وهناك عبارة غريبة عجيبة في مقالة الكاتب حول موافقة الحسين على تنصيب أمير افريقي ليكون خليفة للمسلمين... فمن هو ذلك الأمير يا ترى؟ الكاتب يستند إلى كتاب من تأليف محمد علي الفتيت. نحن طلاب علم، فزدنا علماً يا رعاك الله بالاستاذ الفتيت والمعلومات المستقاة من كتابه الذي اتكأت عليه. واما الحديث عن «تسليم» مناطق



مرسين وأطنة واسكندرونة، فيدل على ان الكاتب غير مطلع على مجرى المراسلات، وعلى الظروف التي دارت فيها، ولا على استغاثات السوريين بالشريف، وبعد ان علّق جمال السفاح القافلة الأولى من أحرار العرب على أعواد المشانق (آب ١٩١٥)، وبعد ان سلّط سيف الإرهاب على سورية كلها. وفيما يتعلق بالساحل السوري، أحيل الكاتب إلى قول الشريف حسين في رسالته إلى مكماهون بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩١٥: «وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلهما، فهي ولايات عربية محضة، ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم، فانهما ابنا جد واحد...»

وقل الشيء نفسه فيما أورد الكاتب بعد ذلك.

وليس هنا مجال اعطاء التفاصيل في موضوع كُتبت فيه عشرات الكتب وآلاف الصفحات. ولكنني لا أجد مندوحةً من القول لكاتب المقالة عن موضوع ما يسميه اتفاقية فيصل ـ وايزمن: انت في قولك هذا تكرّر ما يرد في كتب بعض الصهيونيين، وتسير على خطى من يقول «ولا تقربوا الصلاة»، وينسى تكملة الآية «وأنتم سكارى». فلم تكن هناك اتفاقية بالمعنى المتداول، لان الشرط الذي وضعه فيصل بخط يده، عمل على ابطالها تماماً. وشرط فيصل جاء بالنص التالي: «اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى، فانني موافق على ما ذُكر بباطن هذا من المواد. وان حصل أدنا تغيير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمة كانت، بل تُعَد هذه المقالة كلا شيء ولا حكم لها ولا اعتبار، ولا أطالب بأي صورة كانت».

فاذا كنتَ كتبتَ ما كتبت وأنت لا تعرف شرط فيصل هذا، فتلك مصيبة، واذا كنت تعرف الشرط وتجاهلته، فالمصيبة اعظم.

واذا شئت حضرتك فاكتب لي لكي أرسل لك صورةً بالزنكوغراف لهذا الشرط، الذي أجمع الباحثون من عرب وغير عرب انه جعل قيمة «الاتفاقية» لا تساوي قيمة الورقة التي كُتبت عليها. لان فيصل في مذكرته المشار اليها، طلب استقلال العرب. ولو رجعت إلى كتاب أمين سعيد لوجدت ان فيصل كان سُئل عن «الاتفاقية» فأجاب على السؤال بما يشفي الغليل.

أكتفي بهذا القدر في الردّ على تخريجات عديدة، لا صحة لها، وردت في مقالة أحمد مفلح. ومن مصائب العرب ان هناك كثيرين يتصدّون لبحث هذا الموضوع أو ذاك، دون معرفة كافية، ولذلك تراهم يهرفون بما لا يعرفون، وفي آفاق الجهالة يعمهون. □

الخارج على القانون

رد على بعض كتابات أنسي الحاج المنشورة في أعداد متفرقة من «الناقد».

ابراهيم الزيدي
سورية

■ الكتابة عن أدب أنسي الحاج: مغامرة مشبوبة بالرهبة والتوجس، رغم ان قراءته تشعر بالأمان ولذّة الاكتشاف!! يعيش واجب الألم والنسيان. محموم بهاجس الخلق وحتمية الابداع يبحث عن الصدق بوجه واحد في زمن كله أقنعة!! سلاحه: امتيازه في استعمال حق التعبير، وتعبيره مسكون بالحرية والحب. حريته الحياة، وحبه ينزع إلى التوحد:

«أجده كلما وجدته، هو ذاته، أنا ذاته، ولست أنا من يضيعه حين يعود ويضيع. إنها دائماً أنتِ»[1].

إلّا انه بتوحده لا يبحث عن التكافؤ فيمن يحب، فالمسألة عنده ليست لعبة توازن في القوى، إنها حرية، لا في الاختيار بل في العطاء البعيد عن التواضع والكبرياء، إنها حالة لا إرادية المنشأ والانطباع، لا تخضع لقانون الربح والخسارة، بيد ان هذه الحالة ليست عابرة أو طارئة، إنها ملازمة له ـ ربما لعطشها الدائم للحب؟ وهي ليست عقدة وان كان أصلها كذلك «صدمته في وفاة أمه» ولانها ليست عقدة نجدها مدركة في عقله الواعي ومبررة:

«أعبد إلهكِ يا كائنة الإغراء الأكبر، إله اللهو الرحيم ضد كل ما يخيفني. أعبد إلهكِ لأنه طفل مثلي، وغير واضح مثلكِ، وجائع مثلي، وطيب مثلكِ. أعبد إلهكِ لأنه ليس إله السيف والصاعقة، بل إله التبذير والتبدد. أضيئي وظلّلي في رأسي أيتها الملكة الماجنة، إاحكمي قدري والعالم، أنت كل شيء، ولن أخرج من بابكِ إلّا إلى قبر أمي».

إلّا انه لم يستطع التغلب على عطش الحب هذا ـ واعتقد ان ذلك من أهم مقوماته الشعرية ـ وهذه الميزة تقربه لدرجة الغاء المسافة، ينطبق ذلك على القارىء والناقد بأن ـ إذا كانت النوايا طيّبة ـ إذ انه يخلق عند الآخر ـ ردة فعل ـ مشابهة لردة الفعل تجاه الأطفال مهما نفَرت تبقى جذابة، وطفولته هذه جعلت منه غير ملتزم ـ رغبوي ـ إذا صح التعبير يجافي الواقع حيناً، وينبذه أحياناً، يتم له ذلك تحت شعارات مختلفة ـ الحكمة ـ الاشراق ـ الإيجاز ـ الاشتعال ـ «يجب أن نسكت، ثم نعيد شحن الكلام بأقصى ما نستطيع من شعور وفكر، وأقل ما نستطيع من ألفاظ»[2].

وذلك جعله يذهب بعيداً في الكثير من مقولاته وخاصة في موضوعي الحب ـ علماً ان الحب عنده ليس موضوعاً ـ والطفولة. «هذا الحلم الذي أعيش فيه، حلم أن اكبر، هل يتحقق يوماً؟ خوفي إن تحقق، أن أفقد عمراً لا يعوَّض، والخروج منه تيه بلا رجاء»[3].

إذاً هو يعرف ما معنى هذا الحلم، ويدرك ما يترتب عليه بعد تحققه، وإلى أيّ أرض سيخرج إنه مستوعب لهذا كله، ولذلك يرفض الخروج من حلم الطفولة العالق بأجفانه، أو بالأحرى يخاف الاستيقاظ منه، وبالتالي لا اعتقد انه يحلم بأن يكبر وإن كان كذلك فلا بد من سؤال: هل ترك لبنان أطفاله أطفالاً؟ إن نصوص الاديب انسي الحاج تقول: نعم.. ولا، وهما واضحتا المعالم متميزتا النبرات:

«يسألني: لماذا لا تثور؟ يسألني ويداه على فمي، ويدا أبيه وأمه وأجداده وأحفاده على فمي وحنجرتي وعينيّ وأرضي وسمائي»[4].

الّا ان هذا السبر الفجائعي، مطموس حيناً ومغيب حيناً آخر، ودائماً الحب هو الذي يفوز بالتجسيد، إلّا أن عبارته التي يصوغ بها حبه، كثيراً ما تخرج على قانون الكتابة أو على القانون بشكل عام، سواء كان هذا القانون يحمل المعنى الأدبي أو الاجتماعي أو حتى السياسي خروجاً لدرجة السوريالية:

«ما يفسد الكتابة هو وعيك لقرائها. اذهب بلا نظر أهو بنداء الهاوية، تطر... تغلغل في التهاب روحك التي لن يعود لك معنى يوم ترتاح من حريقها. قل كلمتك وأنت نائم عن العالم»[5].

هذا التحليل والبناء ثمة إمكان لمقابلتها بمقالة



تحت عنوان: الالهام السوريالي لأندريه بريتون، يقول فيها: «اعمل على أن يُجلب لك ما يمكنك من الكتابة، بعد أن تكون جلست في مكان اكثر ما يكون ملاءمة لتمركز ذهنك على نفسه. وضع نفسك في حالة اكثر ما تكون من السلبية أو الانفعالية، قدر ما تستطيع، واصرف نظرك عن عبقريتك ومواهبك ومواهب جميع الآخرين»[٦].

رغم وجه الشبه، بريتون على عكس أنسي الحاج، فهو يصطنع الكتابة اصطناعاً من خلال البحث عن السبب الذي يمكن من الكتابة، سواء في اختيار المكان أو في تحريض الذات، أما الكتابة عند أنسي الحاج فهي: استغراق لدرجة وهب الذات:

«السخاء هو الشعر. لا أقول العطاء. العطاء صغير أمام السخاء أقول السخاء وحتى الافراط. لا هوادة في وهب الذات»[٧].

هذا الوله المقرر بناء على أسبابه الخاصة بالشاعر، يكاد ينسحب على كافة الفعاليات الحياتية ـ الانسانية عند الحاج، بصراحة لا تخجل من رفع أيّ شعار يمثل حقيقتها حتى ان كان هذا الشعار «ليبيدو» فرويد:

«لم أحب إلّا ما فيه امرأة. الوطن، الأرض، الشعر، الفنون، الدين. . . ما أحببت من هذه إلّا ما فيه امرأة»[٨].

هذا هو فلك الحاج، وتلك شريعته، ما انفك يتمحور حول يتمه منذ ما شاء الله من السنين!! من يقرأ رسائل السياب إلى يوسف الخال، يحسب ان حزنه قد غادره مع الذين غادروا، حاولت أن أجد له شبهاً بجيله فلم أستطع قراءته ثانية!!

يُفجع قبل أن يُشبع، يتبتل فيشف، ويرطم فيمطر، ولم أدر بأي الصغائر يستخف. حاولت أن اكتب عنه، فكتبت له، إنها قراءة في لهب أصيل لشاعر جميل. ◻

(١) ـ «الناقد» ـ العدد الخمسون ـ آب/ اغسطس ١٩٩٢ ـ ص ٨.
(٢) ـ // ـ العدد الرابع والأربعون ـ شباط/ فبراير ١٩٩٢ ـ ص ٤٥.
(٣) ـ // ـ // الثاني والأربعون ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ ـ ص ٧.
(٤) ـ // ـ // الخامس والخمسون ـ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣ ـ ص ١٨.
(٥) ـ // ـ // الثاني والثلاثون ـ شباط/ فبراير ١٩٩١ ـ ص ٨.

(٦) ـ آفاق الفكر المعاصر ـ غايتان بيكون ـ منشورات عويدات ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٦٥ ص ٥٠٧.
(٧) ـ «الناقد» ـ العدد الثاني والثلاثون ـ شباط ١٩٩١ ـ ص ٩.
(٨) ـ «الناقد» ـ العدد الأربعون ـ تشرين الأول ١٩٩١ ـ ص ٩.

إثارة رخيصة

رد على ياسر عبد اللطيف «لا أحد يقهر الموسيقى» في العدد ٥٧ آذار / مارس ١٩٩٣.

خليل أرزوني
لبنان

■ كم كان رائعاً ما كتب ياسر عبد اللطيف تحت عنوان: «لا أحد يقهر الموسيقى»! فاذا كانت مهارة الكاتب الابداعية تظهرت في سبك الفكرة أو الأفكار بشكل جعلها تنساب إلى داخل القارىء، وثنايا عقله ونبضات قلبه، وتستقر في قاع مشاعره، فإنه أبدع في توليد الصور المجازية التي وضعت المعنى في إطار رؤية سحرية هتك بها أعراض التقليد الممل وجعلت من المعنى والكلمة كائناً حياً قادراً على التحدث مباشرة مع القارىء، العادي وغير العادي على حدٍ سواء، فترصّعت المقالة بالعديد من الصور المجازية الرائعة، اذكر منها ما يلي: «ستلقي بظلك إلى الشارع لتدوسه العربات، فتاة جميلة ستخبر عنك رجلاً من الواقفين خارج خريطة رؤيتك، عاد إلى حديقته يروّض الوقت بتجهيز مكنسة، قارورة زيت من الوقت كان عليّ أن اتجرعها صاغراً. . .» وغيرها من الصور المجازية والمقاربات غير العادية في بث الحياة والحركة في الكلمة والمعنى معاً.

غير أن ما خدش ابداع هذه القصة، حسب رأيي طبعاً، صورة مجازية لا أجد مبرراً لتضمينها السياق، بل أجد ضرورة نزعها كلياً من متن الكتابات الابداعية، وهي العبارة التالية: «الرجل يأكل وقد استحال فمه إلى عضو تناسلي يولجه في الطعام لاتكاً إياه حتى آخر قطرة لذة تبقت في جسده». . . فقد نقلنا الكاتب، أو بالأحرى فقد نقلني من الابداع إلى التدني، من علو التعبير إلى اسفله، من الذوق الرفيع إلى ذوق آخر لا صلة له بالابداع. . . فهل تصوير نهم الرجل ولذة اشباع حاجته للطعام لا يتهيأ إلا عن طريق تحوُّل الفم إلى عضو تناسلي ذكري، وتحوُّل الطعام إلى عضو تناسلي انثوي؟ فهل هو ابداع أم صفاقة أن نُشبه الطعام بالعضو التناسلي لدى المرأة؟ وإن ربط بينهما (الطعام والعضو) الاشتهاء الحار. . . تذكرني هذه العبارة بمقطع في امسية شعرية ساقني إليها سوء طالعي منذ ثلاث سنوات تقريباً في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في بيروت، حيث «كان عليّ أن اتجرع صاغراً قارورة كاز» حين قال «الشاعر» بعد وصف منظر جميل «. . . وهكذا. . . انتصب عضوي لأمارس الجنس. . . فاستعدوا». . . ! . . .

أنا لا اعترض على استعمال المصطلحات الجنسية، بل العكس، إني أدعو إلى تسمية الأشياء بأسمائها في الجنس وفي غيره، ولكن لا بد من وضع المصطلح في السياق المناسب وفي المتن الملائم، فلكل مقام مقال، واعتراضي هذا لا علاقة له بمفاهيم دينية ضيقة أو اجتماعية محافظة، كما انه لا عقد عندي، فانا أنسج علاقات «دبلوماسية» وغير «دبلوماسية» في ميدان الجنس وعالم اللذة. ولكن مرد اعتراضي مسكونٌ بقناعة تامة تعتمد التدبير الأدبي في صناعة الكتابة وترى أن على المبدع ان يحترم ذوق القارىء وألا يخدش شعوره ولا يخيّب آماله. هذا التدبير الذي تحوَّل إلى مقولة أدبية، واتخذ شرعيته و «دوليته» الأدبية في القرن السابع عشر على يد انصار المسرح الكلاسيكي الفرنسي، حيث كان «احترام ذوق المشاهد» أحد أهم مبادىء المدرسة الكلاسيكية في المسرح وفي الأعمال الأدبية. . .

والكتابة كأفلام السينما: أفلام ابداعية، وأفلام هابطة، وما بينها، والتشبيه الجنسي الذي لجأ إليه الكاتب وجاء في غير موضعه هو من قبيل الاسلوب الهابط. ◻

